حياة الرافعي

الطبعات الثالثة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م
الحقوق التطبع محفوظة للمؤلف

يطلب من

الكاتب الإداري الكبير: شاعر محمد عبد العزيز
إن كنت لست معي، فالذكر ملك معي
يراك قلي وآن عيبت عن بصرى
المين تبصر من تهوى وفقده
وناظر القلب لا يخلو من النظر.

رحمك الله، أبا السامي، (1) ورضي عنك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك،
وجزاك خيراً عن جهادك يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين
أيديهم. وبأبنائهم بشراكم اليوم جات تجري من جناها؛ الأنهار خالدين.
فيها: ذلك هو الفوز العظيم.

كتب سعيد - لا أخلي الله مكانه وخطاي عن السوء - هذا الكتاب الذي
كذلك كانت كنيته. واسم ابنه البكر: محمود سامي الرافعي، وإليهما سماه
كذلك تشبها له باسم الشاعر محمود سامي البارودي، وإليه كان ينظر في صدر أبابه.

(1) إذا كان كتبه.
يسعى بين يديه، يرذ به إلى الحياة حياة استدبرت الدنيا وأقبلت على الآخرة بما قمت من عمل، وتم الميزان الذي لا يخطئ، والنافذ الذي لا يجوز عليه الزيف، والحاكم الذي لا يقدح في عده ظل ولا جور، والبصير الذي يعلم خاتنة الأعين وما تخفي الصدور، قد استورع منه دَجَّة السر ونهب العلانية. وقد فرغ الرافعي - رحمه الله - من أمر الناس إلى خاصة نفسه، ولكن الناس لا يفرعون من أمر موتهم، ولو فرغوا لكان التاريخ أكفاناً تعلو على الرحم، لا أثواباً مُلفَّة على البيت لنشره مرة أخرى حديثاً يُؤثر وخبراً يُروى وعملاً يتمثل وكن قدكان بعد إذ لم يكن.
وهذا كتابٌ يقدمه، سعيد، إلى العربية وقوائتها، يجعله المقدمة التي لا بد منها لما أراد أن يعرف أمر الرافعي من قرب.
لقد عاش الرافعي دهراً يتصرف فيه الناس على عاداتهم، وتصرف في أعمال الحياة على نهجها الذي اقتسمته عليه أو مهنته له أو وظائفه.
لتكون المراجة الأدبية الذي لا يعدها حتى ولا يخلو من مسسه بشيء. وأننا - كما عرف الرافعي رحمه الله ودونت إليه ووصلت سبباً من بأسباب منه - أشهد لهذا الكتاب بأنه قد استقرصن من أجراه الرافعي كثيراً إلى قليل ما عرف عن غيره من فرط من شيوخنا وكتابنا وأدبنا وشعرنا؛ وذلك يدل لسعيد على الأدب العربي، وهو أخرى على التاريخ، ولقد يسر الله لكل شاعر أوكاتب أوعلم صديقاً وفيه ينقل إلى الناس أحاديث وأخباراً وأعمالاكياً يسر الله للرافعي، لما أوضعت العربية مجد أدابها وعلمانها، وما نقلت من أدياتها علم أسرار الأساليب وعلم وجه المعاني التي تعلج في النفس وترطب في القلب.
حتى يؤكد لنا أن تكون أداة يصطنع وعلاها يتوارث وفناً يتبلّجٌ على سواد الحياة فتسفر عن مكونها مكتشفة بارزة تأتي للنفس حتى تنتهي بمعانها وأسرارها على أسباب الفرح ودعاوي السرور وما قبل وما بعد والتاريخ ضربان يترادفان على منعته، ولكن فضلاً: فأوله رواية الحب والقصة والعمل، وما كان كيف كان و إلى أين انتمى، وهذا هو الذي انتهى إلينا من علم التاريخ العربي في جملته، ومعه وله هذا الباب صدق الحديث، وطول التحرز والاستقصاء والتبع، وتسبق الأخبار من مواقعها، وتقوى الحقيقة في الطلب حتى لا تخلط بالحق، وأما التاريخ الثاني فإجاد حياة قد خرجت من الحياة، وردت ميت من قبر مغلق إلى كتاب مفتوح، وضح متفرق يتبثّر في الألسنة حتى يتمثل صورة تلوح للتأمل، وهذا الثاني هو الذي عليه العمل في الإدراك البيان لحقائق الشعراء، والكتاب ومن ثم عينهم؛ ومع ذلك فهو لا يؤكد يكون شيطاً إلا بالأول، وإلا بقي اجتهادا محاذا تمس الحقائق فيه أو تجاً على قدر حظ المؤرخ والناقد من حسن النظر ونفاد البصيرة، ومساءً في أسرار البيان متجها بمع الدلالة مقبلا مذبباً، متوقعاً عطرة تكثُّبه على وجهه، متبعاً مدرجة الطبقات الإنسانية على تبانيها واختلافها حتى يشرف على حيّ يملك البصر والتعزز ورؤية الحافى وتوماه البعيد، وبكون عمل المؤرخ يومدّ تأكّسة يعود بها إلى تومه أخبار كانت وأحداث يعتقلها وقت، ويجده في ذلك جهدًا لقد غنى عنه لوق الأتمتة إليه أخبار حياة الشاعر أو الكاتب واجتمع لديه وألقى إليه كما كانت أو كما شاهدها من ثقيبه واتصل به ونفد إلى بعض ما ينفرد إليه الإنسان من حال أخيه الإنسان.
كمساءً، فإن أكثر ما يعرفه من أدب وشعر في عصور الإسلام الذي تُمَنَّى
بها العربة يكاد يكون تلقائياً ظاهراً على البيان والتاريخ معاً، حتى ليضن النافذ
ضلال السلك في نفق متدد قد ذهب شاباً متعلقاته متانة في جوهر الأرض.
ثم جاء العصر الذي نحن فيه فأبطلت عمايتها البيان في الأدب والشعر من ناحية،
ودلهما ما أعرى به الكثير من استعارة العاطفة واكتراض الإحساس من
ناحية أخرى؛ فإن لآقوى للكاتب أو الشاعر وأنذر وأرفع وأرقف... وإذا هو
غيبة ممثلة قد أشارت على المعان والعواطف فعل قطع الخيط الذي يشدها
لانتقاب كل شاردة نافرة إلى وطنها هاربة تنتمي؛ ويمتل هذا هدوء المورخ
في ركعة مستوحاة يتزلج فيها هما وثمن، وينقطع في الرأي وتنهال الحقائق
بين يديه حتى يصير الشاعر وشُهر الأدب وأدبه أسمالاً متخرجة بالية يسح
بهما المؤثر خن نفسه آثار ماهيل فيه!
وقد أثبت الأدب العربي في هذا العصر بؤساء الذين أوجنتهم بمطابا
الفرور في طلب الشهرة والصيت والسباع، خفطوا وتوزعوا ظلماً سالكاًها
معتر، وقد كان احتباسهم وإنساكهم عمما نصبوا وقوهم له، واصطبارهم على
ذل الطلبة، ومارستهم معسولاً ما أرادوه، وتألمهم في النية والبصر والعزم
عى أن يحملهم على استثارة ما ركبه الإهمال من العواطف التي تعمل وحدها
إذا تسنت روح الحياة، واستباط النع القديم الذي ورثه الإنسانية من
 حياتها الطبيعية الأولى ثم طالت عليه أدنان المدنى المتعاقبة.
والشعر والأدب كلهما عاطفة وإحساس بنوع من أصل القلب الإنساني;
هذا القلب الذي أُثبت من داخل بين الحنانيا والضابو ليكون أصى، وأظهر.
شي، وأخني شيء، وليس كل عمل من قريب ليصفه ويظهره ويبدل عليه من روحه شفَقًا رقيقًا لا يستر بل يصف ما وراءه صفة باقية بقاء الروح، ويبنها من دنس الوحشة التي تطوى في كفمن من بضائع الموتى؛ فبما شاعر أو أديب قال فإنما يقبل وجب أن يقول ومن داخله كتب عليه أن يتكلم، وإنما اللسان آلة تنقل مافي داخل إلى خارج حسب؛ فإن كلها أحد أن تنقل على غير طبيعتها في الأداء - وهي الصلة التي انعقدت بينها وبين القلب على هذا القانون - فقد أرقل الحال فيها ووقع الفساد والالتباس والإجابة والبطلان فيا تؤدي أو تنقله.

وقد نشأ الرافيق من أوليته أديبأ يريد أن يشعر وكتب ويتاذب، وسلخ شبابه يعمل حتى أكتبه اللغة من قيادها وألقت إليه أسرارها فكان عالماً في العربية يقول الشعر، ولو وقف الرافيق عند ذلك لدج في درج من الشعراء والكتاب والعلماء الذين عاصرتهم، وللو أنه استنار إلى بعض الصبر الذي أدرك وحازه واحتمله في أمره النور أن خلف من بعده في ميزة الإدب حتى يرجح به من بعد من على أن يكون أخف منه، ولكن الرافيق خرج من هذه الفتن التي لفت كثرة الشعراء والأدباء والتقدير، ففضحته فلم يظلمهم - وقد وجد نفسه واهلدي إليها، وعرف حقيقة أديبه وما ينبغي له وما يجب عليه، فأمر ما أفاد من علم وأدبي على قلب لؤذى عنه، وبري أن يكون كبعض مشاهير الكتاب والشعراء من يطح بالقول من أعلى رأسه إلى أسفل الفرات والقارئ من قابلته بعد ذلك ما يمشيلي في وجهه وما يطرار؛ لهذا كان الرافيق من الكتاب والأدباء والشعراء الذين يتخذ حياءهم ميزانياً لعمالهم وأئهم، والذين كان كتاب دعاء عن حياته من الجلاءة بوضع الذي يسمى إليه كل مصر، ومن الضرورة بالمكان الذي يلتجأ إليه كل طالب.
عرفت الراقي معرفة الرأي أول ما عرفته، ثم أعرّفته معرفة الصحة.
فباه، وعُرضت هذا على ذلك فينا وبيننا وبين نفسي فلم أجد إلا خيراً ماماً كنت أرى، وتبتَت إلى إنسانية هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر، ظفرت بحبك يُغيب واحده، لان القلب هو الذي كان يعمل بيني وبينه وكان في أديبه مث هذاء القلب؛ ففي هنا كنت أتألقي كلبه فأفهم عنه ما يقاد يغبني من هو ألم من الأدب وأقوم على العلم وأقوم بأفضل
بمواضع الرأى.

وامتنع الراقي بقبله هو سر البيان في نداء من معاني الشعر والأدب:
وهو سر حفاظته بال置いて ومذاهب الأرأاء، وسر إحساسه في مهنته وتزيهها وسياسته كإحساس أحسن مهنة الناس ورتبة وأعماله عليه؛ وهو سر علوه عليه من يتشن في الأدب كالعظماء الجاسية تتشن في حلقة مطاطية، لا تبق عليه من هوادة ولا رفق، وحائص حين يكون هذا الناشب من تساع على حين غفلة يوم مرج الأمر الناس واختلط، أو كان مرّقاً في إيمانه متهماً في دينه:
إذا كان الإيمان في قلب الراقي دماً يجري في دمه، ونوراً يرضي له في ماجد الفكر والعاطفة ويستّي له ما أعزر إذا تعاونت الأرأاء واختلت وتعارضت وأكذب بعضها بعضًا.

وذاه، وقد أرهخ اللقائة حتى بلغني، وكنت حقيقة أن أُغرى إلى سر البيان
وافلاقة من العاطفة والهوى في قول الشاعر والكاتب والأدب لأسد الرأى إلى مарамه، وقد يطول ذلك حتى لا تكون له قلقة كتاب أو كتاب
مفرد، فإن البيان هو سر النفس الشاعرة مكفوًا وراء لفظ، وما كان ذلك سبيله لا يتأتى إلا بالتفاصيل والتقيّد والشرح، ولا تغني فيه جملة القول شيئاً من نغمه. وحقيقً بين يقرأ هذا الكتاب أن يعود إلى كتب الراقي بالمراجعه.
فيستنبثها التفصيل والشرح، وبذلك يقع على مادة تقدمها في دراسة فنون
الأسلوب، وكيف يتوجه بفني الكاتب، وكيف يتصرف فيه الكاتب بحسن
من قلبه لا Tigتع أن يجعل المعنى واللفظ سابقين إلى غرض متواظتين على معنى
لا يجوز أن فيجاوزان أو يقعان دونه.
رحتة لله عليه، لقد شارك الأوائل عقولهم بفكرهم، ونزع إليهم بحنينه,
وفلج أهل عصره بالبيان حين استعجتم قلوبهم وارتضخت عربتهم لنكهة
غير عربية، ثم صار إلى أن أصبح ميراثاً توارثه، وأدباً تدارسه، وحناناً
تأوى إليه.
رحتة لله عليه.

محمود شاكر
تمهيد

سمعت اسم الرافعى لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، و كنت يومئذ غلاماً. حدثنا لا يكاد يفهم ما يلقى إليه ; فسمعت اسمها له جرسة و رنين ، وله نشيد تجاوب أصداوه في جوانب نسيى ; ف حسب إلى من ذلك اليوم أن ألقاه ... ورأيته لأول مرة بعد ذلك بأشهر ، فرأيت رجلاً كبعض من أعرف من الناس ، وكان جالساً وقذف في فورة على الطريق وبين يده صحن يقرؤها ;وقفت هيئة أنظري إليه ، لا أكاد أصدق أن هذا الشخص المتألق أمامى هو الشخص الذي أعرفه في نفسي ... وقرأت له أول ماقرأت ، نشيده المشهور "اسلمى يا مصر ..." ثم دفع إلى صديق من أصدقائي كتاب "رسائل الأحزان" .

كانت يومئذ في بكرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتي إلى الحياة بعينين مغمضتين وفكر حالم ورأس يزدحم بالأمانى وقلب ملوء بالثقة، ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود حتى يعرف أن أمانيه ليست في الدنيا الناس ، وجد الفرق بين عالم قلبه وعالم حسه ، وتسره منده سخريتها الالتماسية فيلجأ إلى وحدته الصامتة مطولاً على آلامه !

واستهرنا عنوان الكتاب الذي دفعه إلى صاحبه ، فتناولته أغلب صفحاته لا أكاد أفهم جملة إلى جملة ، حتى انتهيت إلى قصيدته "حيلة مرآتها" (1) ؛ فإذا شعر بذب يخالط النفس وينفد في رفق إلى القلب ; فأخذت أعدها مرة

(1) رسائل الأحزان .
مرة 1: فلم أدع الكتاب حتى استظهرت القصيدة. ونَجَب إلى هذا الشعر الساحر. أن أعود إلى الكتاب فأقرأه على مهل وروية؛ لعل أستدرك مفاهيمنا من معانيه وأذكر لفصي قوة من حرف يانه. وصدق عاطفته. وعدت إليه أقرأه قراءة الشعر: أفهمه بفكري ووجدان، وأنظر فيه بعيني وقلبي؛ فإذا الكتاب يكشف لي عن معناه...

وأخبرت الرافض من يومد؛ فرحت أتنبأ آثاره في الصحافة والكتب.

لا يكاد يفوتي منها شيء، وعرفته، ولم أزل كل يوم أزداد عرفاً به؛ ولكن لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد ذلك بعشر سنين...

كان ذلك في خريف سنة 1933، وقد قصدت إليه في داره، مع وفد ثلاثة نساؤه الرأي والمعرفة في شأن من شؤون الأدب، فقلبنا مرحبًا مبتسما وقادنا إلى مكتبه، ثم جلس وجلسنا؛ وفي تلك الغرفة التي تنزل فيها عليه الحركة ويلدح الوحي جلسنا إليه ساعة ياذبينا ونجلذبه الحديث لا نكاد نشعر أن الزمن يمر...

كان جالساً خلف مكتب نكاد الكتاب فوقه تجمعه عن عيني محدثته، وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدادت عليها الكتاب في غير ترتيب ولا نظام، تطل من بين صفحاتها قصصاً، تثبت أن قارئها لم يفرغ منها بعد، أو أن له عند بعض موضوعاتها وفقات سعيد إلى إياه، وعلى حيطرة الغرفة أصوت الكتاب المتراصة لا يبدو من خلفها لون الجدار...

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم، وحديث الأب، وحديث الصديق؛ فما شئت من حكمة، وما أكبرت من عطف، وما استعذبت من فكاهة. وطال بنا الجلس حتى خشينا أن نكون قد أتقنا عليه فهمنا بالانضمام، فإذا
هو يطلب إلينا البقاء، ويرجونا ألا نغب مجلسه؛ وعرفت الراقي عرفناً
تاماً من يومئذ فلمته، وعرفني هو أيضاً فأصابني عطفه ومودته.
وجلست إليه في الزورة الثانية وبين يديه عطبه، فدفع إلى محبة من كان
منشورا فيها يومئذ قصيدة للشاعر خليل مطران بك، فطلب إلى رأي في
القصيدة؛ ولم أتبسه سعته إلى غرضه وحسبه يقصد إلى أن يشاركني في لذة
عقلية وجدها في هذا الشعر، فتناولت الصحفية، وقرأت القصيدة، ثم دفعتها إليه
وقد أشارت بالقليل إلى عيون أيتها، وتداولت الصحفية من ليرة اختياري ورأي
ما يعرف إلا وقتين أنه كان يكتبني، ولكنني - الحمد لله - نجحت في الامتنان
قدراً من النجاح!

وتذكر هذا الاختبار وهو لا يحسين أدرك ما يعني ؛ على أن إدراك هذا
قد جعلني من بعد أكثر تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ. وأولى ثقته على
الآيات، فكان على أن أقرأ أكثر مما يحتمل إليه من الكتب، لأنني له إلى
المواعظ التي يعني أن يقرأ منها وأدع مالاً جدوى عليه من قراءته ضعية وقته
وكنت أنا أكثر رجاءً بذلك!

إلى لاحض حين أذكره الساعة كأتي لست وحيد، وكان روحًا حبيبة
تطفف في وترف حولي تحتين من نور، وكان صوتاً ندياً يفع النبرات
يتحدث إلى من وراء الغيب حديثاً أعرف جرّسه ونغمته؛ ولكنني لا أرى
ولكنني لا أسمع، ولكنني هنا وحيد، تنغشان الذكرى فتحيَّل إلى ماليس
في دنياى ...

لقد كان هنا صوت يجابب صداه بين أفكار العربية، لقد كان هنا إنسان
بُلِّا فراغًا من الزمن، لقد كان هذا قلم يصر صريراً فيه رائات الماضي وفيه أتات
الوجع، وفيه همسات الألم، وفيه صرخات الفزع، فيه نشج البكاء، وفيه موسيقى الفرح... اخفت الصوت، ومات الإنسان، وتحطم القلم، ولكن قلب الشاعر مازال حيا ينبض؛ لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء!

وجاءت نعى الراقي في جريدة البلاغ، بعد ظهر الاثنين 10 مايو سنة 1937، ففي نفسي غضبة من الرحم والألم، سلمت الفكر والإرادة وضفت النفس، فلم أكن أصدق فما بين وعين نفسي أن صادق الراقي، الذي ينعاه الناعم، هو الرجل الذي أعرف وعرف الناس. ودار رأسي دورة جمعت إلى المضايحة كله زمانه ومكانه في حفظ فكر، وتتابعه الصور أمام عيني تنقل إلى خيال هذا الماضي بألوانه وأشكاله وجماله وسمره وأحاديثه، من أول يوم لقيت فيه الراقي إلى آخر يوم جستت فيه إليه...

وعدت إلى النعى أقوه، وفي النفس حسرة والنباة، فما زادت قراءته شيئاً.

من العلم إلا أن مصطفى صادق الراقي قد مات!

حينئذ أحست كأن شيئاً ينصب انصاباً في نفسي، وأن صوتاً من الغيب يتناولني من جهتي الأربعة يخفف بي، وأن حياة من وراء الحياة تكتشفني ساعدت لتملي على شيخه أو تتحدد إلى شيخه، وكان عينين قطان على من وراء هذا العالم المنظر لتأمران أحراً، وتعتقال الفكر والبيان، هما عين الرجل الذي أحييته جبال فوق الحب، وأخلصت له وأخلص لي إخلاصاً ليس منه إخلاصاً في إخلاص الناس، ثم نزع الشيطان بيني وبينه ففقرته، وفي نفسي إليه نزوع وفي نفسه إلى، فلم ألقّ
من بعد إلا رسمًا في ورقة مجلة بالسود...!

وعرفت منذ الساعة أٍي واجب على هذا الراحل العزيز.

لقد عاش الراعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فنما أدرت له في حياته واجباً ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأيٍ؛ وكأنما اجتمع له هو وحده ثلاث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش معاشه بنبيها إلى حقات وجودها ومقومات قوميتها، على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد. ورضي هو مقامه منها غريباً معتزلاً عن الناس، لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يلفت من الكتب وينشر في الصحف، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الآخرون؛ وهو ماضٍ على سنته سائر على نهجه، لا يليائ أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعمرة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحماه، يدفع عنه أسباب الزيف والفتنة والضلال؛ وما كان رحمه الله - يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياة الدين والعربية، لا ينال منهما نائل إلا أنبره له، ولا يتقدم عليه منتقهم إلا وقف في وجهه؛ كأن ذلك فرضٌ عينٌ عليه وهو على المسلمين، فرضٌ كفاية، وأحسبه قال لمرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشراه صحفاً من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من

(1) كان بيننا معاصفة باعدت بيني وبينه بضعة أشهر، بعد فراعين من إخراج الطبعة الأولى للكتاب، ومدآ الفصل، آخر كتبه، وقد أنكر من رحمه الله - أن أجمله، وشكا إلى الصديقين الكريمين: أحمد حسن الزيات، و توفيق الحكمي، ثم لم يقدر لنا أن نلتقي بعد الخصام حتى بعثة الموت.
القرآن بسوء التأويل: "من تراه يأتى يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي؟"(1)

وكان هذا من اعتداده نفسه، ولكنه كان مذهب إله غايته، وكان القدرة التي هيئته وأنشأته بأسبابه هذا الزمان، قد فرض عليه وحده سداد هذا الشقر، وكان إلى ذلك لا يتفك بهائياً مدفقاً في بطن الكتب حيناً وفي أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر، ليستجل غامضة من غواضب هذا الدين، أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس، وأحسب بذلك قد أجد على الإسلام معانى لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء الصف، وأراو بذلك كان يمثل تطور الفكر الإسلامية في هذا العصر، فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعي، فإنها فقدت فيه السكاب، ولا الشاعر، ولا الأديب، ولكنها فقدت الرجل الذي كان ولن يكون له مثله في الدفاع عن دينها ولغتها.

وفي النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدة في هذا العصر، ولقد يكون في العربية اليوم كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت الدائم، والذكر الدائم، والصوت المسموع، ولكن أين منهم الرجل الذي يقوم لماكان يقوم له الرافعي: لا يترخص في دينه ولا يتهاون في لغته، ولا يتساك لقاتل أن يقول في هذا الدين أو في هذه اللغة حتى يرده من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت؟

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحذروا عن الرافعي في حياته، فقالوا شاعر، وقالوا كاتب، وقالوا أديب، وقالوا عالم، وثناه مؤرخ، ولكنهم:

(1) كان الذي كتب إليه في ذلك صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر، وكانت كتب المقال الذي يعنيه بالردم، هو السيد حسن القباني، وكان يعرّف وقتذ في جريدة "كوكب الشرق"، وستتناول موضوع هذا المقال بعد، وانظر فيها إلى الفصل الذي جعلنا عنوانه "فترة جام".
لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن تقال. لقد كان شاعراً، كتاباً وأديباً، وعالمًا، مؤرخاً؛ ولكنه بكل أولئك، وبنيء أولئك، كان شيخاً غير الشاعر والكاتب والأديب، وغير العلم والمورخ؛ كان مهبة الله إلى الأمة العربية المسلمة في هذا الزمان، لينبها إلى حقائق وجودها، وليبردها إلى مقوماتها، وليشخصها من شخصيتها التي تعشى باسمها ولا تعيش فيها، وليتعنز بها ولا تعمل لها.

يرحمه الله لقد عاش في خدمة العربية سبعين وثلاثين سنة من عمره القصير، وصل بها حاضراً المالك بمضارها البعيد؛ فهي على حساب الزمن سبع وثلاثون ولكنها على الحقيقة عصر بثامه من عصور الأدب، وفضل بعوانه في مجد الإسلام!

لقد عاش عراياً ومات غزيًّا، فكأنما كان رجلاً من التاريخ بعث في غير زمانه ليكون تاريخاً جبا ينطق بالعبرة ويجمع تجارب الأجيال، يذكر الأمة العربية الإسلامية بمضارها الجيدة ثم عاد إلى التاريخ بعد مابلغ رسالته.

لقد خفت الصوت، ولكن خلف صداه في أذن كل عربي وفي قلب كل مسلم، يدعو إلى الجهاد لمجد العرب ولعز الإسلام!

وبعد، فإذا يعرف الناس عن الراعي وماذا أعرف؟ هل يعرف الناس إلاديوان الراعي، وكتاب الراعي، ومقالات الراعي؛ ولكن الراعي الذي يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك، فإذا كتب عنه الكاتبون غداً إن أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذي تم تأليفه في تاريخ العربية؟ لقد عشت مع الراعي عرايا من عمري في كتبه ومقالاته، فأعرفه العقل الحق، وعشت معه بعد ذلك في مجلسه وفي خاصته، وخلطته بنفسه وخلطتي (2- حياة الراعي).
بنفسه; فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له في نفسى من قبل ومن بعد
أحتراني بذا أستطع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤذي به بعض ما على من
الذين للعربية والفقيد العزيز؟
إنني لأحس عنباً وقيلاً عاطقيق لاطاقية لبئن أجمله وليس على أحد غيري
أن يقوم به. ولقد كتبته منذ عامين - قبل منعاً - شيئاً عن الرافعي يسره إلى
قراء مجلة الرسالة، فما أحسنت لقيت في ذلك من الجهود إلا بمقدار
ما استحضرت الفكر وتناولت الاهتمام؛ على أن الرافعي كان يؤمن بأنها، وكتبت
أحذر أن يغضب أو ينالى منه عتب؛ فكيف في اليوم والرافعي بعيد في العالم
التاني، والكلمة، والتاريخ، ووسائل العالم من قربة، ورسائل الأدباء تترى
تستنفرو الوعد وتقتضي الحق الذي على الأدب والعربية، وصوت التقدير
العزيز يهتف بحبيبة توجهت. » إن لي عليك حقاً وإن للأدب عليك «؟
ولكن ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفن الشعور بالعجز، فأكد أوقن أنه
لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه، ولكن الرافعي قدمت
أيها الحبيب العزيز الذي مازال من كثرة ذكرك اكتفنت منه على ميعاد...
معذرة إليك!
وهناذا أحاول أن أكتب عن الرافعي; فلا ينتظر أحد مني - في هذا
الكتاب - أن أتكلم عن الرافعي الشاعر، أو الرافعي الكاتب، أو الرافعي
الأديب، أو الرافعي الفيلسوف؛ فما يشعر له يومى، وما يرضين عن نفسى
ولا ينفعي بالوفاء أن أكتب عن هذه الجهود الكثيرة التي اجتمعت في حياة
إنسان؛ ولكنني سأكتب - هنا - عن الرافعي الرجل الذي عاشره زمناً، ولعنته.
 обслужته، وخلطته بنفسه، وتحدث قلب إلى قلب، وتتكشفت روحا وروحية؛ سأكتب عن الراوي الذي عاش على هذه الأرض سبعا وخمسين سنة ثم طوال الموت:حاول أن أجمع شتات حياة تفرقت أخبارا وأفاصيل ونواحي على لسان معاصره؛ أو غابت سرا في صدور أمه وقصصه؛ أما الراوي الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف: فللحديث عنه كتاب غير هذا الكتاب، ويوجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه، ومع ذلك أن أوفق في البلوغ إلى ما قدصت. وإذن لاجتنب نسيم من كثرة ما أحب الراوي إلى أن خيف الآدب لو بدأ في هذا التاريخ أن أقول: هذا رأي. ولكنما أقول: هذا مارأي. فلنكن له عين بصيرة تنظر إلى ماوراء المرتبات وترتب الأسباب بالسبيل، فسيبلغ جهده ويري رأيه.

ولقد كان الراوي من قرب إنسان حيا بعواطفه وأمياله ووجه وبغضه وشهواته النفسية، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفونه؛ فلا على اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خبرًا وشراً: فإما أكتب للتاريخ، والتاريخ لا يعجب ولا يحب، ولا ينسح، ويستمر في تاريخ الراوي حوادث وأسماء ساكنها وأعرف عنها بقدر ما، كما سمعتها أو عرفتها منها؛ فإما كانت أو أدبي أو رجل أو امرأة أو ذي شأن أحس فيها أكتب شيئا ناله بما يوجب المدح أو المنفعة، فلا يذكر ولا ينتمي؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن جمعه... وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه، وليما له ما هو آخر؛ وما أحب أن يقول لي أحد صدقته أو كذبته: ففما هذا الذكر الذي أكتب رأى أراه، ولكنه رؤية رأيتها أو رواية رويتها فأثبتها مسندة إلى راويها وعليه تبعته.
إن التاريخ الأدبي للرافعي يبدأ من سنة 1900، وتاريخ ميلاده قبل ذلك
بعشرين سنة؛ أما ما بدأت صلتي بالرافعي إلا سنة 1932؛ فهما كان من هذا
التاريخ فسأ رويه من غيب صدرى أو مذكراتى وعلى تبعته، وما كان من قبل.
فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدئين وخلطاته منذ صباه، أو كان مما قصه
على أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة رسالته إلى صحبه ورسائل صحبه إليه.
فهذه مصادر على أقدمها بين يدي هذا الحدث، لعرف قارئه أن مكانه من
الصدق ومنزلته من الحق؛ على أن الذاكرة خنوت، وما يميز على فكر
الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسى أو يلته أو يخلط
في معلوماته شيئاً بشيء؛ فهنا كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أن
تصرفت فيه بالقص أو تغيير أو تبديل، فليجعله عنده بمنزلة من حسن الظن.
وأله أسام أن ينجني الخطأ، وأن يوفقني فيما أنا بسبيله.

قاهره في ربيع الأول سنة 1357
مُكرَّم سمير العريان
 القاهرة في ماي سنة 1938
صورة

كان الراقي رجلاً كبعض من ترى من الناس؛ فلم يكن الناظر حين ينظر إليه ليبلغ له امتيازاً في الخلق يدل على نفسه أو عقله أو عبقرية. بل لقد يشك الناظر إلى وجهه في أن يكون وراء هذه السحنة وهذه الملاح نبوغ أو عبقري أو فكر سام!

وجه تسوم مستطيل، أقرب إلى بياض أهل الشام منه إلى سمرة أهل مصر، في وجنتيه احمرار دائم قد ترى مثله في شفتيه؛ وله عينان كأنما ينظر بهما إلى نفسه لا إلى الناس، فتأري لها بريقاً في عينيك ولا تسمع لها همساً في نفسك؛ وجهة عريضة تبدأ فوق الحاجبين غازرة نوعاً ما، ثم تبرز مقوسة قليلاً إذا اقتربت من فروة الرأس؛ وأذانان فيها كبر، ولكنها لا تؤديان عملاً ولا تنقلان إليه معنًى، ومن ذلك كان قليل انتقلت في مجدها؛ وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله. كأنما صنعت له شفتيه اتسامته الدامية، فلا ترى منه مغلقاً أبداً إلا رأيته كأنما بث احساسة هاربة، وتحمل شفته شارباً كثيفاً أشظاط، شبهه الأيام من أطرافه صغائر طرفها بعد استعلاء وكبيرة...

وصوت عال رفع النبرات ليس له لون ولا معنى، تسمعه على أي أحواله كما تسمع صراخ طفل يلعن والته، وترسيه؛ وفي جبهته الخضر ونحمة الفرح عندد سوأة! وقامة رياضية متناسبة ببرحتين من الفصوص، لا يغدين طول ولا قصر، ولا شيء ولا ничего.
كان أعط خفيف شعر الرأس حليق اللحية دقيق الحاجبين عريض الملكيين
غليظ العنق قوى الكف والساعد؛ مما كان يعالج من ترنيات الرياضة.
تلقاه في الطريق في يده عصا لا يعتمد عليها ولكن يهرها في يمينه إلى أمام ووراء، ويتناول بسراً عدداً من الصحف والمجلات والكتب، مثبتاً على
خيد الطريق لا يميل، وأسعى الخطوة لا يتهمل، ناظراً إلى الأمام لا ينفلت إلأحين
يهب باجتياز الطريق.
تلك صفاته الجسمية التي واراها التراب كما انزول في ذا كرتى، أما صورته
العقلية، أما حياته، أما أيامه على هذه الأرض منذ كان إلى أن زال؛ فذلك
ما سأجلوه في الفصول التالية إن شاء الله.
نسب ومولد

الرافعى سوري الأصل، مصري المولد، إسلامي الوطن؛ فأسرته من «طرابلس الشام» يعيش على أرضها إلى اليوم أهلها وبنو عمهم؛ ولكن مولده ببريق؛ وعلى ضفاف البتل عاش أبوه وجده والآخرون من بي عمه وخولته منذ أكثر من قرن وهو في وطنه «مسلم»، لا يعرف له أرضًا من أرض الإسلام، ينسب إليها حين يقول: وطني؛ فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم؛ فأنت لم تسمعه يقول: 'الوطنية المصرية'... أو 'الوطنية السورية'... أو 'الوطنية العراقية'... إلا كما تسمع أحدًا يقول: هذه داري من هذا البلد، أو هذه مدينة من هذا الوطن الكبير الذي يضم أشتاناً من البلاد والمدن. وإنها الوطن فيها كان يراه لنفسه ولفعل كل مسلم: هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية؛ ومصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامي الأكبر، ينظمها جميعًا كما تنظم الدولة شتى الأقاليم وعدداً من البلاد.

وكتيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الآدباء في مصر (1)، فما يجدون مغرماً يتلون به منه عند القراء إلا أن يتهموه في وطنه، أعني مصريته؟ وكان الرافعى يستمع إلى ما يقولون عنه في ذلك مغنياً حبباً وساعراً حباً آخر؛ ثم يقول: أفؤ الهم يهمني في مصريي لأنني في زعم غير مصري في مصر مولدي، وفي أرضها رفات أبي وأم وجدتي، آم كل عبيع من عدهم في الوطنية أنسى صريح النسب؟... وإلا فلن أبي فلان ولفلان؟ ومن أين مقدمة؟ وفي استوطن هذا الوطن...؟

(1) هو الكاتب سلامة موسى.
ورأس أسرة الرافعية هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتنوفي سنة 1320 ه بطرابلس الشام، ويتصل نسبه بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه، فنسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين.

وأول وأقدر إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي، قدمه في سنة 1343 ه ( قريب من سنة 1827 م ) ليكون قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان العظيم في الأسطنة: وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الإمام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر. ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير قفاة وغلام، انتهت بمؤتاهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده; ولكنه كان كرائدا الطريق لهذه الأسرة(1)، فنوفاد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء. ولعلّهم مذهب أبي حنيفة، حتى آل الأسر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون فاضيا في مختلف المحاكم المصرية، وأوحشت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي وففندب اللورد كرومو إلى هذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الإنجليزية.

وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخوه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر، ومن تلاميذهم الأددين المرحومان: الشيخ محمد البخراوي الكبير والشيخ محمد بخت مفتى الدولة السابق.

(1) العجب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر أحد، ولذا ومع ذلك تستطيع أن تحتوي من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستة. وأسرة الرافعية كثيرة الولد فهم إلا من له من أبناء أولاد أو عشرة أو أثنا عشر أو أكثر من ذلك، وحسب أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الصمد الرافعي (والد المرجح) يبلغون الآن واحدا وسبعين ولدا وبنانا، وقد مات المرجح وعمار ومحمد بعدهم سنة ولم يزوج إلا واحدة، ولد له منها أحد عشر ولدا وفتاة، افترض منهم واحدة في ستينها الأولى وخلف عشرة!
ولما توفي المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده، كان الشيخ الحنفي في مصر.

يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الإفادة، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تخريج وخشية، فلم يجد في نفسه القدرة على قبول هذا المنصب، ترعرع من فنون الحكم وغزالة الهرى في شأن الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه هم، وهو يدعو الله ألا يلزمه هذا الأمر، وتناولت وقته ومرورته وتمت مراسم التولى وقامت الأمر من صاحب العرش.

ثم نزل إلى عربته فركبها عائداً إلى داره وهو ينتمي ويدعو؛ فلما بلغ الدار نزل الخوذي ليفتح له العربية ويساعده على النزول. فإذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضي في شؤون العباب... واستجاب الله دعاه...!

وأبو الاستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد الرزاق الرافعي، كان رئيساً للمحكمة الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحد من أحد عشر أخًا استغلوا كلهما بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ عبد الرافعي. وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية؛ وفي طنطا كانت إقامته إلى آخر أيامه، وفيها مات ودفن، ونها أقام الترجم وإخوته من بعد في بيته، فاتخذوا طنطا وطنا ومقااماً، لا يعرفون لهم وطنا غيراً ولا يبغون عنها حولاً. وقد حاولت وزارة العدل (الحقانية) أكثر من مرة أن تقبله إلى غير طنطا، فكان يسعى سعيه لإلقاء هذا النقل، حتى لا يفارق البلد الذي فيه رفاته أبيه وأمه، وفية مسجد السيد البدوي (1).

(1) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوي ترتفع عن الحجل والمنافحة، ولله في مداخل وتوصيات شعرية كثيرة، وكان الرافعي إذا أتم مسجد السيد البدوي للصلاة اتخاذ...
وكان الشيخ عبد الرزاق رجلاً ورجاءً للصلابة في الدين وشدة في الحق.

ما برح يذكرها معاصروه من شيوخ طنطا.

حديثي نسب قال: كنت علما حديثاً، وكان الشيخ عبد الرزاق الرافعي من جيّارتنا وأجانبنا الأجلاء، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً في ميتجر جاره وصديقه المرحوم حسن بدو الفطاطري في شارع درب الأثر، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أماكن التجارة في عصر يوم من رمضان.

كان الشيخ عبد الرزاق مجلس مجلسه من متيجر صديقه، فرّ به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصابعه دخينة، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرزاق، حتى اندفع إليه، فانقض عليه، فأمسك بثوبه، فدعا الشرطي أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره في رمضان في شارع عام. وما أجد رجاء الرجل ولا شفاعة الشفاعاء، فسبق الرجل إلى القسم في (زقة) من الصبان، ليتوالى الشيخ حده بنفسه على إفطاره. وما كان القانون يأمر بذلك، وحكم الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قضى المدينة، وما كانوا يغرمون له عنهم إلا الطاعة والاحترام.

وجهود الشيخ عبد الرزاق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير.

واسم (الرافعي) معروف في تاريخ الفقه الإسلامي منذ قرون، وأحسب أن هناك صلة ما بين أسرة الرافعي في طرابلس الشام وبين الإمام الرافعي المشهور صاحب

= مجلسه تحت (القمة) فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو ويعيين مسئلتان، فإذا فرغ من دعاة وفلانة ورفع رأسه ومسح يده على صدره، ثم يمسى ومازال شفاته تتحركان بكلمات... وكان يبيت آل الرافعي القديم في طنطا قرية من مسجد السيد البدوى، في محلة سيد سالم، وهي حارة قديمة ضيقة مغطاة يقال إن السيد البدوى أوى إليها أول ما هبط إلى طنطا منذ بضع مئات من السنين، وكانت إلى عهد قريب هي مجمع دور الأعيان والسرود من أحباب السيد البدوى واللامدين به.
الشافعي؛ وقد سألت الرافعي مرة عن هذه الصلة، فقال: لا أدرى، ولكنني سمعت من بعض أهلي أن أول ماعرف منه هذا الاسم شيخ من آبائي كان من أهل الفقه وله حظ من الاشتباك والنظر في مسألة، فلقبه أهل عصره بالرافعي تشبهاً له بالإمام الكبير الشيخ محمد الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية، والله أعلم.

والإستاذ الرافعي حنفي المذهب كسائر أسرته، ولكنه درس مذهب الشافعي وكان يعتمد به ويتخذ إياه في كثير من مسائل العلم. وأم الرافعي كأنه سورة الأصل، وكان أبوها الشيخ الطوخي تاجراً تسير قواقله بالتجارة بين مصر والشام، وأصله من حلب، وأحسب أن أسرة الطوخي ماتزال معروفة هناك، على أنه كان قد اتخذ مصروطاً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي، وكانت إقامته في بئسهم من قرى مديرية القيروانية، وكان له فيها ضيافة، وفيها ولد الديست مصطفى صادق الرافعي في يناير سنة 1880 (1)، إذ آثرت أنه أن تكون ولادته في دار أبيها.

وكان أم الرافعي تامة وتوثيرة، وكان يطيعها ويربها، وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغمرت عيناه كأنه فقدها بالآمس، وكان دائماً يجب أن يسند إليها الفضل فيا آل إليه أمره، وقد توفيت في أسيوط ودفنت بها، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطاندا.

(1) لا يعرف للرافعي (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط. وشهادة الميلاد التي يعاهدخدمته في وزارة العدل (الرقابة) هي لأبيه المرحوم محمد كامل الرافعي، وقد كانت أصح مولده في سنة 1881 أو 1882 ثم وقعت لي بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة تذكر فيها أن تاريخ ميلاده في يناير سنة 1880 فها أخذت هنا.
لأسرة رافع الثقافة يصح أن نسميها (ثقافة تقليدية)، فلا ينشأ الناشئون منهن حتى يتناولوه بألوان من التذيب تطبعه من لدن شنتيه على الطاعة واحترام الحرير والتقدير الدين، وجعل منه خلقاً سلوف يسير على نهجه ويتآثر خطاهم. والقرآن والدين هما المادة الأولى في هذه المدرسة العربية التي تسير هذه الأسرة على مساجها منذ أخدر أو أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (1).
وعلى هذه النشأة نشأ مصطفى صادق، فاستمر إلى أبيه أول ماسمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن، ووعي كثيراً من أخبار السلف، فلم يدخل المدرسة إلا بعد ماجوزاً الشيخة بسنة أواخركن. فقضى سنة في مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المصورة فانتقل معه إلى المدرسة المصورة الأميرية، فسالم منها الشهادة الابتدائية وسنه يمتنع عشرة سنة أورون ذلك بقليل.
ومن أساتذته في المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتي في مدرسة المعارف (2)، وكان يدرس له العربية، وكان الرافعي رديداً الخط لا يكاد يقرأ أخطه إلا بعد علاج ومعاناة، فكان الأستاذ مهدى يسرح منه قائلاً: يا مصطفى، لا أحسب أحداً غيري وغير الله يقرأ أخطه، وقدظل خط الرافعي رديداً إلى آخر أيامه.

(1) كان الرافعي يتخذ في بيته أمانة قارية حافظة، فقرأ كل يوم ما تيسر من القرآن، وتعلم بناته من القرآن في وقت فراغهم من المدرسة وتعليم أبنائهم في تلاوته.
(2) توفي سنة 1944 فيها أذكر.
وهنا أذكر حكاية طويلة تدل على مبلغ وفاء الرافعي وتكشف عن شيء
من خلقه: فقد صحبي مرة منذ عامين إلى نادي دار العلوم - وما أكثر ما كان
يصحبي إليه إذا هبط القاهرة - وجلس وجلس معه في جمع كبير من المفتنيين
ومدرسيه ورجال التعليم، وكان المرحوم الاستاذ أبو الفتح الفقي نجيب المعليين
السابق جلساً إلى جانب الاستاذ الرافعي يتحدثان، وأنا بينهما أترجم للرافعي
حديث محدثه كتابة في ورقة، وإنما لكي يذكروا الحديث يتشعب شبه وينصرف
في مساربه، وأجمع حولنا مرهف الآذان يسمع إلى حد أن رجلين، إذ تهدى
الرافعي واقفاً، فانتبهت، فإذا القياد الاستاذ مهدي خليل، يبدو من طوله
وجسامته واكمال عضله كما يطل علينا من نافذة... وإذا الرافعي يبطأ في
له وينحن عنه يهم أن يقبل يده، ثم عاد إلى مجلسه فآل على يقظ في همس...،
هذا أستاذ مهدي خليل...، وكان في صوته رنة هي أقرب إلى صوت الطفل
لا يبغي حين يمر بمها معلم الغلام فشمل إلى أيه يسر إليه...، ومضى الرافعي
مهدي غرابي ولا ملبست... بما فيه من طبيعة المرح وعادة الإغضاء، وأحسه
لم يعنى بالسؤال عن هذا الزائر الذي تمس له، أو بالنظر إلى وجهه، على حين
ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم.

وفي السنة التي نال فيها الرافعي الشهادة الإبتدائية - وهي كل ما نال من
الشهادات الدراسية - أصابه مرض مُشَف أثبتته في فراشه أشهرًا...، وأحسه
كان التفيد فما نجا منه إلا وقد ترك في أصابه أثراً كان حبساً في صوته
وقراً في أذنيه من بعد...، وأحس الرافعي آثار هذا الداء، نوفر أذنيه، فأهله ذلك هما كبيراً، ومضى
يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب، ولكن العلة كانت في أصابعه فا أجرى العلاج عليه شيئاً، وأخذت الأصوات تنداش في مسمعه عامةً بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد، أو كان مما تحتم התحدث وهو منطلق يبدو ... فإن صوته ليتضايقل شيئاً بعد شيء، حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعتها الأخرى، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئاً مما حوله، وانتقل من عن دنيا الناس.

وانتقل الهدوء إلى صدره فعقد عقدة في جبال الصوت كا تذهب بقدرته على الكلام، ولكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والكلام في وقت معا، فوقف الهدوء عند ذلك، ولكن ظن في حلقة حبسة تجعل في صوته رنيناً. أشبه بصراً الطفل، فيه عذوبة الضحكة الخجولة استحث أن تكون نقاهة...

وكانوا يناري هذه العلة التي أصابت أذنيه هي السبب الذي قطعه عن التعليم في المدارس بعد الشهادة الابتدائية، لينقتل لمدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد برامجه بنفسه وكان هو فيها المعلم والتعليم.

وحظ الراحفي من الشهادات العليا مثل حظ أبيه، فإن الشيخ عبد الرزاق الراحفي على عله وفضله ومكانته، وعلى أنه كان رئيسًا للجامعة الشرعية في كثير من الأقاليم - لم تكن معه شهادة (العليقة) حتى جاء إلى طنطا. ولأمر مانشب خلاف عليه وبين بعض علماء طنطا حفروه وهو شيخ كبير إلى طاب الشهادة، فتقد到了 ابتعادها وناطقها، الذي غضب تسعى إليه إلا أن يستعمل براهينه في مجال بعض العلماء.

وكان لابن الراحفي مكتبة حافلة تجمع أشياط من نوادر كتب الفقه والمدن
والعربية: فأكتب عناها إكباب النهم على الطعام الذي يشربها: فما مسي إلا قليل
حتى استوعبت وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد... وكان له من علته
سبب ياعد بينه وبين الناس فما يحدث لذة ولا راحة في جملته أحد... وكان
ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه... وكان ينس في نفسه نقصاً في ناحية يجد
جهد ليدياره بمحاولة الكمال في ناحية... وكان يعجز أن يسمع فرح يلمد
أسباب القدرة على أن يتحدث... وكان مشتقاً إلى السمع يعرف ماذا في
دنيا الناس، فمسي يلمدعرفة في قراءة أخبار الناس... وفاته لذة السامع
حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجذب لذة المتحدث حين يتحدث...
وقال لنفسه: إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعون فاليسعموا مني... 
وبذلك اجتمعت للرافعي كل أسباب المعرفة والإطلاع، وكانت علته خيرًا
عليه وبركة. وعرف العلم سهله من نافذة واحدة من نواخذ العقل إلى رأس هذا
الفقي النحيل الضاوي الجسد الذي ينثأه القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون
أدياناً من أدباء العربية في عد...!

كانت مكتبة الرافعي في هذه الحقبة من تاريخها هي دنياه التي يعيش فيها:
نافذة ناسه، وجودها جرحة، وأهلها صحبته وخلانه، وعلماؤها رؤاه، وأدباؤها
سماره: فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء
والرواة فاً لفم: فنشأ بذلك نشأة السلف: نرى رأيتهم، ويفكر معهم،
ويتحدث بلهتهم، وتستخفه أفراحهم، وتتراهي له أحلامهم ومناهج.
وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يم تسامه سيكون أهلا لتشابه المجالس
يتحدث إلى الناس ويتمتع إلى حديثهم... فإن حظه من العالم المصرية
كان قليلاً، وكان عليه أن يسألني أحياناً أو يسأل غيري من خاصته، عن كلمة أو عبارة أو مثال ما يبتغي له من أمثال العامة حين تلجه الحاجة الأدبية إلى شيء من ذلك، وكان يمزح معي أحياناً ويقول: فلتنكن أنت لي قاموس العامة....

وإذكان أبوه وأمه قريب عهد ببنبتهما في سورية، وكان لم يسمع أكثر ماجمع في طفولته إلا منهم، وإن لهجته في الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر اياها، على حين تسمع إلى كل أمرته وإخوته وبنبتهما بهدوء باللهجة المصرية فما ين صوت أو وكلة على أن أصلهم سوري، ولكنها كان بلغته لهجة حديثه.

وهويه الفقها على هذا الاصله وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب ولم يجد على الرافع معرفته الفرنسية إلا قليلاً أو أقل من القليل (1)، فمنذ ابتها من المدرسة لم يجد في نفسه إليها نزوعاً قوياً، فلمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار في العلم والادب، ثم هجرها إلى غير لقاء، على أنه كان يأسف أحياناً على هجرها ويعن نفسه بالعودة إليها في وقت فراش، وهيهات أن يجد مثل الرافع فرغانً من وقته!

هذه نفعقة الرافع وتلك وساتله إلى المعرفة، وقد ظل على هذا الدأب في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره، يقرأ كل يوم ثمانية ساعات متواصلة لا يلي ولا ينتش الراحة لجسد وآصابه، لأنه من التعليم في أوله لا يدري أنه وصل منه إلى غاية.

(1) كانت اللغة الأجنبة في مدارس الحكومة إلى ما بعد الاحتلال بقليل هي الفرنسية، ولم تدخلها الإنجليزية إلا بعد أن قويت شركة المؤجلة حتى نفتت إلى برامج التعليم.
وكان إذا زاره زائر في مكتبه جلس قليلا يحبه ويستمع لما يقوله، ثم لا يلث أن يتناول كتاباً ما بين يديه ويقول لحذله: "تعال نقرأ...، وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعي ويستمع الضيف، فلا يكفر عن القراءة حتى يرى في عيني حذله معنى ليس منه أن يستمر في القراءة...
وفي القهوة، وفي القطار، وفي الديوان، لاتجد الرافعي وحده إلا وفي يده كتاب. وكان في أول عهده بالوظيفة كابتاً بمحكمة طلخا، فكان يسافر من طنطا كل يوم ويعود، فأخذ معه في الذهاب وفي الاياب (ملازم) من كتاب أي كتاب يقرأها في الطريق، وفي القطار بين طنطا وطلخا (والعكس) استظهر كاب نهج البلاغة في خطاب الإمام علي، وكان مبلغ العشرين بعد...
في الوظيفة:

في أبريل سنة 1899 عُين الرافعي كاتبةً بمحكمة طلخا الشرعية، بموجب شهري أربعة جنيهات، وأغناه على الظاهر بصرف هذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية، وما كان الرافعي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم، وما كان منكراً لديه أن لههم مداً على كل قاضٍ في القضاء الشرعي، فنشأ بذلك نشأة الدلائل في وظيفته، لازالها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمِّيل أو لم يعمل، لمكانة أسرته من النفوذ والرأي، ولمكانه هو أيضاً، لم يكن يشْتَر نفسه ليكون أديب هذه الأمة؟! هكذا كان يرى نفسه من أول يوم، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم.

وكانت إقامته بطانتها في هذه الحقيقة، فإنها مغشة وإليها مراحيم في كل يوم، يتأبط حقيقة فيها غداً و vinden كتابه، وما كان أحد يستطيع أن يلتفت إلى ضرورة التبشير إن جاه في الضاحي، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله.

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً، يعيدها على العيش، يفرغ لنفسه ويعدها لما تهافت له، فما انقطعت عن المطالعة والدرس يوماً واحداً، وما أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته.

وقضى الرافعي في طلخا زمناً ما، ثم نقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية، ثم إلى طلطاً؛ وفي طلطاً انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب، والأعمال فيها أيسر جدًا.
وأكثراً أجراؤاً، وظل في محكمة طنطا الاهلية إلى يومه الأخير.

وحياة الرافعي في طنطا وإيتاء البارود وطنطا لا تخلو من طرائف، وتاريخه في الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته الأدبية. فتوصل أitics اعرف الكاظمي شاعر العراق الكبير، فأصل له العقود بينهما أواصر الود على ما سألى تفصيله؛ وعلي إيتاء البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته، وعلى جسر كفر الليث، فيها بين إيتاء البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه الغطاء مبجوب ويحش ويشع ويكون "شاعر الحسن"، من بعد؛ وفي طنطا كان نضجه وتمامه وليلاح بهم.

وما استطع أن أصف بتفاصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك الأيام البعيدة، ولا كيف كانت صنته بالناس؛ ولكنني أعرف أن روحه رفقة كنُصِفْ يُصِفْ في تلك الأيام نشأته من وجوده الذي يعيش فيه لحقل به في أجوائه بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرف بها، فتوحى إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والإحساس بالوحدة، فلا يجد منفاساً ينقص به عن نفسه غير الشعر، وكان ذلك أول أمره في الأدب، وإليه كان آخر ما يمتلكه أمه، فأما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً، شاعراً وحسب.

وعرف حبيته الأولى، عصفوراً، فتعليم الحب، ولكنه لم يتعله مما يسمع في مجالس الشباب كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب المنسى التي بدأوا لأنها في مجالسهم يتعلمون الحب منها فنناً له قواعد مرسومة وغايهة محتمة... لكنه استمع إلى وحي الحب أولما استمع في همسات روحه، وخلوات وجدانه،
وخفقات قلبه، وانفعال أعصابه: إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار العذرين من شباب العرب; فأحس كان شيئاً ينقصه فراح يفتقده، وشعر كان إنسانة من وراء الغيب تناديه وتخفف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطرد تقول: هنا أنا ذي... فهان بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذي يدور عليه، وطاعر على وجهه كالفراشة الحمامة تقول لك لكل زهرة: أنت التي... فلا تستمع إلى جواب، والصوت البعيد دافع ينتف في أذني: إنني هنا، إنني يا حبيبي فأقصد إلى...

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها، بل كانت محبوته شيئاً في نفسه وصورةً من صنع أحلامه، يرى في كل وجه فانت لنا من جمالها، وفي كل طالعة مشرقة بريقاً من فتنها، وفي كل نظرة أو إبسامة معبأ من معانى الحبيبة النائمة في قلبه وفي أمانيه... ففضى يتنقل من زهرة إلى زهرة، عفيف النظر والشفقة واللسان، حتى إنتهى أمره إلى أمر...

لم ينس الرافاعي إلى آخر أيامه ما كان من شأنه وإن كان قلبه في صدر حياته، فكان دائما الحديث عن هذا العهد كأنه رقصته ساحة من سواح الماضي، تذكره ما كان من أمره وما آلم إليه أمره.

ليس قصدى الآن أن أتحدث عن الحب في تاريخ الرافاعي، فإن للحب في تاريخه فصلاً ضاناً للكثير الألوان متعدد الصور له مكانه المفرد في غير هذا الباب; ولكن أتحدث عن الرافاعي في بكرة الشباب، فما لي مندوبة عن الإسلام بما كان يصرع في نفس الرافعي في بكرة الشباب.
عاش الرافعي نفسه ولنفسه من أول يوم، فعاشه الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون. على أنه كان إليه أنه بغض وعنايته بسما يتعلقه، وعلى أنه كان لا يرضي أن تتعبد قوانين الوظيفة وتقيده أغلب النظام الحكومي - كان إلى ذلك دقيقاً في عمله الرسمي دقته تبلغ الغاية. وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود وغيرها مما يتصل بعمل المحكمة؛ فكان كابياً حاسبًا لا يغفوه شيء. ما يُسنده إليه، حتى أن أمره إلى أن يكون المرجع في هذا العمل لكتاب المحكمة جميعاً يستطيعنه فيما أشكل عليهم من الأمر في تقدير الرسوم؛ ثم لكونه من كتاب المحاكم في مختلف البلاد، ثم لوزارة العدل نفسها وهي المرجع الأخير، تكتب إليه في زاوية مكتب من محكمة طنطا تسأله الرأي في حسبة أو إشكال أو شيء مما يصل بذلك، فيكتب إليها بالرأي لتبثه في منشور عام إلى كل المحاكم الآهلة.

وكان عليه كل العبء من هذه الناحية في محكمة طنطا، وقد طلب أكثر من مرة أن (يجال إلى المعاش) ليتفرغ للفناء، فما كان يمنعه من المضي في طلبه إلا رجا موظف المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى ليتحاول موضعه. وكان في صلته بموظف المحكمة الذين يشكلون في عمله نيبلة كريم الخلق إلى حد بعيد، فكان يتطلع لتحمل عنهم تقيده كل خطأ يقع فيه واحد منهم مما كان الخطأ وتبتجرته. وقد رأى مرة في صيف سنة 1934 وقد لزمه مفتش من مفتش وزارة العدل ثلاثة أشهر أو أكثر، يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم لأكثر من مائة وأعشرين قضية، بلغ النقص في الرسوم المنحلة عنها بضعة وتسعين جنيهًا؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأي. ويدافع، والمفتش دা�ب على الحضور كل يوم يبحث ويتفتش ويستقصى وما ضاقت به.
أخلاق الرافعي: على حين لم يكن على الرافعي في هذه القضايا المسأة والعشرين خطأ واحد، وما كانت إلا من أخطاء زملائه في المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يعترفونا الشر هو أقدر منهم على الخلاص منه.

وكان من اعتدائه بنفسه وحفظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيسهما علاء منصبه وارتفع مكانة أن يجد منزلته أو ينال منه أي نبل؛ وكان يسرف في ذلك إسراً يدعو إلى الشك أحياناً في توافر الرافعي وكرمه خلقه وحسن تقフレه.

من ذلك أنه لما كان هذا المفتتش يؤدى عمله في المحكمة - وعمله أن يحقق أخطاء الرافعي - كان الرافعي يلزم المفتتش أحياناً أن يحضر هو نفسه إلى مكتبه في حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتتش واقف أو جالس على كرسيه إلى الطرف الثاني من المكتب. وكن في إحدى هذه المرات جالساً إلى جانب الرافعي - وكان يستندن إليه ويشيرني إلى عمله حين أذهب لزيارته في الديوان - فلما جاء المفتتش همته بالانصرف، فشتد الرافعي ذراعه عنف وهو يقول: أجلس يا أخي، ووجهه إليه المفتتش سؤالاً، فانتهى الرافعي إلى قالاً: «من فضلك، تولى عن جوابه فإنه في حاجة إلى معلم مثلك!».

لم يكن اعداد الرافعي بنفسه يبلغ به مثل هذا الشذوذ في كل أحواله، وإذًا كان كذلك مع هذا المفتتش بخاصته، لأسباب يأتي تفصيلها.

وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قضى أو نائب جديد، أن يسرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يشتكونه ويتمنون له؛ ولكن الرافعي كان يتخلف عن وفد الموظفين ويظل وحده في مكتبه، فإذا فرغ القاضي أو النائب من استقبالهم مضى إلى مكتب الرافعي في حجرته، فيقفان حظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا.
الاتفاق الذي هيا له هذا التعارف... ثم يذهب إليه الرافعي بعد ذلك في مكتبته ليشكر له ويكذب الهمه.

حتى مدير المديرية - محكمة طنطا هي جزء من ديوان المديري - لم تكن صلته بالرافعي صلة المدير الحاكم بموقف صغير، فكانت بين الرافعي وكثير من المديريين صلات من الود والصداقه فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين؛ ولكن منهم رجل واحدا كان أقرب قرابة إلى الرافعي من أهله ومن داخله ومن تلامذته... هو المرحوم (محمود بنايا) أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية؛ وكان للصلة بين الرافعي وحب بنايا أثر كبير في أدبه ستحدث عنه فيما بعد.

لم يكن للرافعي مياء حدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره، فأحياناً كان يذهب في السابعة أو في العاشرة، أو فيها بين ذلك، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه، ثم يخرج فيدور على حاجته، فيجلس في هذا المنجر وقتاً ما، وعند هذا الصدق وقتاً آخر، ثم يعود إلى مكتبه قبل مياء الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيابه، وقد لا يعود...

وكان هذا منه يغضب زملاءه في العمل، فكانوا ينسون عليه ويأكلون خمه، ويلبغه ما يتحدثون به فيرته كتبه ويسكت، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بددن عند الأزمة؛ وكان كيئة المحامين وأصحاب المصلح في المحكمة يسمونه بذلك عبدا المحكمة! ... 

وجدت ذات مرة والرافعي في صدر شبابه، أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحال، فلذا صعد إليه موظف المحكمة للتهيئة، لم يجد بينهم الرافعي، فلما
سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا؛ فاستدعى الرئيس وأرسل يدعوه إليه، فلم يجد الرسول في مكتبه، فغضب الرئيس وثارت ثائرته، وأمر باستجوابه عن الاستفادة بنظام المحكمة ومواد العمل الرسمي؛ وجلاء الرافعي. فيبلغ ما كان، فهرب من كابته إلى مكتبه يفرح ويتحدث على عادته كان لم يحدث شيء. ورفع الرئيس كتاباً إلى وزارة العدل يبلغها أن في محكمة طنطا كابته أطرش لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصلحة، على شدة أتصال عمله بالجمهور، وهو مع ذلك كثير التهان بنظام المحكمة ومواد العمل ولا يخضع للرأي ...

وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة!

وأرسلت وزارة العدل مفتتشها لتحقيق هذه الشكوى، وليرى رأيه فيها طلبه محكمة طنطا، وكان المفتتش المندوب لذلك هو الشاعر المبكر الرازي المرموح حفظة ناصف بك. ولم يكن بين الرافعي وحفل ناصف صلة مائلاً إلى هذا الوقت، إلا ذلك النسب البعيد الذي يجمع بينهما في أسرة أبولون... وإلا فإن كلة قاسية كان الرافعي كتبها بأسلوبه اللاذع عن "شعراء العصر" في سنة 1905، ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفظة ناصف ذيل الشعراء...

وجاء حفظة ناصف إلى الرافعي فيها وجلس، وبسط أوراقه ليحقق...

وقال الرافعي: "قل لهم في الوزارة: إن كانت وظيفتي هنا للعمل، فليؤخذون بالتقدير وagina في يسبر إلى من عمل; وإن كانت الوظيفة: تعال في الساعة الثامنة، واجلس على الكرسي، فإنك مشهد إلي، حسب حتى يعين موضوع اللانصراف؛ فلا على إن ترمدت على هذا التعب. بل لهم في الوزارة: إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هاتين الإصبعين ساعات من النهر... "

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر، ثم طوي أوراقه وحياً
صاحب ومضى: فلما كان في خلوته، كتب تقريره إلى وزارة العدل يقول:
إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعينهم الوزارة بهذه القيود...
إن للرافعي حقا على الامة أن يعيش في أمن وعودة وحرية. إن فيه قاعة
ورضى، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه، دعوه يعيش كا
يشتكي أنه يعيش، وتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الامة في آدابها ما يشأ
أن يبدع، وإلا فا كفلوا له العيش الرخيص في غير هذا المكان...
وبلغ التقرير وزارة العدل، وانطفت القضية، وصار تقليداً من تقاليد
المحكمة من بعد أن يغدو الرافعي ويروح لاسلطان لأداه عليه ولله الخيرة في
أمه؛ ولكنه مع ذلك لم يهل في واجبه قط، ولم ينس يوماً واحداً أنه في
موضعه ذلك بحاجة يرتبط به كثير من مصلحة الجمهور.
قلت: إن الرافعي لم تكن بينه وبين حفني نصف صلة ما. ولكن حفني
توالي القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين في محكمة طنطا، فتأقلا وتوقف قبلما
أوامر الوذمة؛ وكانت طنطا في ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب؛
فلا يمضي أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين: حفني
والرافعي، يقوم للشعر سوق ومهرجان. وكان بين الرافعي وحفني من
التقارب في الصفات ما يؤكده هذه الصلة ويوثق هذا الوذمة فكلاهما شاعر
وكلاهما من دعاة القدام، وكلاهما أدب مرح يجيد الدعاية ويستعيد النكهة
البكر، وإن كانت فكاهة حفني أظهر وأبعث على الضحك وتتكشف عن فراح
القلب، وفكاهة الرافعي أعمق وأدخل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس.
ولعل روح الفكاهة في الرافعي كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم
حافظ إبراهيم من صلة الود والإخاء.
حذف عن المرحوم جورج إبراهيم صديق الراقي وصفيه منذ حداثته، قال:
لقد كانت الصلة بين الراقي ومصطفى أكثر مما يكون بين الأصدقاء، وكانا يتزاوران كثيرًا، أو يجتمعان في قهوة (اللوفر) ببدان الساعة، وكانا أشجع مجلسهما أحيانًا. فكانت أرى حفني يتوأضع للراقي ويتصاغر في مجلسه، على مقدار ما يشتقى الراقي ويتكرر ويدعى الاستاذية، حتى ليبره للرأي.
في القضايا التي لم يدرسها حفني بعد، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الراقي!
ظل الراقي في وظيفته تلك، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الادبية، وما تقتضيه شؤون الأدب وشئون ربو الدار، على المورد المحدود والبساط المحدود. وما زاد مرتب الراقي الشاعر الكاتب الأديب النافع الصيد في الشرق والغرب، الموظف الصغير في محكمة طنطا الكلية الأهلية، على بضعة وعشرين جنیًا في الدرجة السادسة، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة.
على أن الراقي كان له مرتب آخر من عمله في المحكمة، هو ثمين ما كان بيع من كتب الموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصرون إليه في مكتبته لعمل رسمي، وكانت ضريبة فرضها الراقي من طريقة الحق الذي يدفعه لكل شاعر على الناس، أو فرضها أصحاب الحاجات على أنفسهم الناساً لرضاه!
ليت شعراً! أكان على الراقي ملام أو معينة أن يفعل ذلك...؟
ناعر الحسن

كالف الرافع بالشعر من أول نشأته، فكان له هو إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية، أو خيراً من يعرف من شعراء العربية... وكان واسع الأمل، كبير الثقة، عظيم الطموح، كثير الاعتداد بالنفس؛ فهنك نشأ جباراً. عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم... وهذه الكبرياء الأدبية الطاغية، وما فيها من الاستعداد الداخلي الكبير، وما في أعضائه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعه - بكل أولئك تنفعه لأن يكون كاً أراد، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية.

وإذا كان الرافع قد بدأ شاعراً كأراد، فإنا كانت له خيرة في المذهب الذي ينال إليه من بعد، ولكنها نوزع الوراثة، وعوارم البيئة، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذاهباً.

لم يكن الرافع يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سيتنى من الأدب إلى هذه النهاية، وأن الحياة ستسرده من الهدف الذي يسعى إليه في إمارة الشعر إلى هذا الهدف الذي ينتهي إليه في ديوان الأدب والإنشاء. وما كان أحد من خاصته وأصدقاءه ليعرف أن الرافع الشاعر الشاب الذي توزعته الصبابة، وشفته الحياة، وتقاصمه لذات الصبا، واتباع الهوى، وصدب الحب والشعر والشباب، سيكون مكانه في غد هذا المكان في الدفاع عن الدين والذواد عن العربية والصياح في سبيل الله؛ وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تصر حاليه في إمارة الشعر منزلة تعتمذ ذكر فلان وفلان من شعراء عصره.
ومضي الراقي يسعى إلى غايةه في الشعر وقد تزود زاده من الأدب القديم، ووعي ما وعى من ترات شعراء العربة. وكان آلهة مئات من شعراء عصره يبتعد إليها ماتراها ويغلق بها أمله: هما البارودي وحافظ ؛ أما ألوها فكان له زعامة الشعر، على مفرقة تاجه وفي يده ضوجانه، قد قوي واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد السنين ومكايدة الأيام؛ وأما الثاني فكان في الشباب والحداثة، وكان جديدا في السوق، قد فتحته الشهرة وفننته به من حوله؛ أخذ الراقي ينظر إليه وإلى نفسه، ويبرزان بين حال وحال، ويقابله بين شعر وشعر: فقرر في نفسه أنه هو وهو... وأنهما في منزلة سواء، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد: فسار على سنته وجري في ميدانه، لا يكاد حافظ يقول: أنا أنا... حتى يقول الراقي: أنا وأنت... وما فاته أن حافظا يغلبه بالشهرة السابقة، ويطارله بالناج والانصار، ويفاخره بمكانه من الأشخاص الإمام ومنازله عند البارودي زعيم الشعراء، ويجعلهم عند الشعب، فراح الراقي يستعمل أسباب الكفاح ويستم التقص؛ فأكد صلته بالبارودي، وعقد آصرة بينه وبين الأشخاص الإمام، ومضى يحدث في المجالس، وينثر في الصحف، ويذيع اسمه بين الناس، وأنتهز نزهة فذهب يستنبل بأنه "شاعر الحسن"، وأن حافظا لا يقال في العزل والنسيب...!

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدة كريمة، لم تعكر ما بينهما من صفوت الموهود، ولم تجني على صداقتهما القوية، فظل الراقي حافظ صديقين حميين، منذ تعاونا في سنة 1900 إلى أن قضى حافظ رحمة الله في سنة 1932.

ليس من همى أن أتحدث عن شعر الشعراء، أو أقائيس بين فن وفن،
وشاعرية وشاعرية: فقد يبدو لي هنا بعد ما بين المرئتين في المواجهة بين الرافعٍ وحافظ في الشعر؛ وما يمكن في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين، فن أراد شيئًا وراء هذا فسيجد في أثابه هنا مقدمات البحث وهيكل البناية.

في إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافع وحافظ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافع يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد الناصر الكاظمي، ونشرت له الصحف غداً مقديمة قصيدة عينية من بحر الطويل، قرأها الرافع فاستجدها ورأى فيها فنا ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم، فلقت نفسه وبلغت منه مبلغًا، وقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به ليصل به جمله وقبس من أدبه. وكان الرافع يومئذ كتاباً محبكة طالخًا، ففرق عمله بغير إجازة، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة وهو يعتني نفسه بأن يكون بينهما من الوعد ما يرفع من شأن الرافع ويجدي على أدبه. وكان في الكاظمي ارتقاء الله IMAGE A, وفكرة، فأصل على الرافع أن يلقاه وردة وردًا غير جميل، إذ كان الرافع يومئذنكره في الأدب، وكان الكاظمي ما كان في علبه وأدبه وشهرته وكبريائه، مع خلقته وفقره. واصطدمت كبرياءً بكبرياءً، وثار دم الرافع وعلي غليانه، فذهب من فوره فأنتشأ مقالة (أو قصيدة). لأذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال به وإلى الزوايا عليه والهرس من مكانه؛ وما كان الرافع مؤمناً بما كتب، ولكن قد أدى أن بلغ الشعراء إليه بالإنذار والتحذير، بعد ماجز أن يبلغ إليه بالزولى والكرامة.

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقرب بين الأديبين، فاتصل الرافعٍ
بالكاتفي وصفاً ما بيتهم وأخضعا في الرواد وألح الباحتب لم يكن بينهما حجاب،
وحتى حضرا الفاعلي أن شفيت الكاتفي، وصار الكاتفي أشر الشعراء
المعاصرين عند الراقي، ثم رفعت الفعلة بينهما عما يكون بين التلميذ والاستاذ،
وتضافا صداقة النظراء، حتى إنه لما هم الكاتفي أن يسافر إلى الأنداس
في سنة 1905 كتب كتاباً إلى الراقي يقول فيه: «... نقل أني أصافر مطمأناً
وأتت بقيت في مصر.

هؤلاء الثلاثة: البارودي، وحافظ، والكاتفي، هم كل من أعرف من
تأثر بهم الراقي من شعراء عصره. أما شرقى، وصبري، ومطران، وغيرهم
من نشوا مع الراقي في جبل واحد، فلا أعرف بينيه وبين أحد منهم صلة
تمتد إلى أيامه الأولى، وما سمعت منه - رحمه الله - حديثًا يشعر بصلة خاصة
كانت ترتبط بها أحد منهم في حداثته، فلعل عند غيري من أهل الأدب علماً
من العلم يكمّل هذا النقص ويسدّ هذه الإلخة.

بدأ الراقي يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره، ينشره في الصحف
وفي مجلات السوريين التي تصدر في مصر، وكانت المجلات الأدبية كله كه إلى
ذلك الوقت في أديهم، فجلة الشعب، والبيان، والنشر، والنشر، والنشر، والنشر،
وسكرك، والنشر، وغيرها - كان يقوم عليها كله جماعة من أدباء سوريا:
كالسنيكر، والبيان، والنشر، وجورج ديفان، وسلام سكرك، وغيرهم;
وكانت منهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الزمن والتاريخ. أما أدب
الأئتمة فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر.
والآن أدع لصديقي الأديب المرحوم جورج إبراهيم حنا، أن يتحدث عن
الرافعي في أول عهده بالشعر: قال:

"بدأت صلاتي بالرحوم الرافعي قريبا من سنة 1900: كنت يومئذ أقول الشعر، وكان اسمه معروفا لقراء مجلة النهضة، ولم أكن أعرف الرافعي أو أسمع به: وكان لأخيه الوجه سعيد الرافعي متجر في شارع الخان بطنطا، يستورد إليه النقل والفواكة الجافة من الشام، وكنت زبونه، فذهبت يوما أشترى شيئا من فاكهة الشام، إذ كان له بها شهرة: فلما صرت إليه، لقيت هناك في حيلا في العشرين من عمره، يلبس جلبابا، جلسنا إلى مكتب في المتجر قرب من الباب، فما رأيني الفقق حتى ناداني فدعاني إلى الجلوس، ثم قال لي: أتعرف أن شاعر؟ قلت: لا، لم تعرف. قال: أنا مصطفى صادق الرافعي، وهذه الكراسات كلها من شعرى. وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب، ثم استألف قائلا: ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني; أختار أجودته وأمرق الباقى، وأطاع ديواني بعد قليل فنظرتني ...!

قال: وعرفت الرافعي من يومئذ، وقويت بيننا الساوة حتى صرت أدنى أصدقائه إليه: يقرأ على شعره، ويستمع إلى رأي فيه، ويستشيرني في أمره. وقد كان أوله كآخره، فما لبثت حتى أعجبته به وأحلته من نفسى أرفع محل من الحب والتقدير."

***

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه، أو ينشر منه في المجلات الأدبية، أو يقرأه على أصدقائه، وأصدقاؤه يهود بعد صفة من شباب السوريين في منطقا: منهم الأديب جورج إبراهيم، والصيدليان: نabil Yarad، وإلياس بخان،
والطيب تودري؛ وكانوا يتخذون مجلهم عادة في وقت الفراح في صيدلية كوكب الشرق بطنطا.

فلما كانت سنة 1903، وعمر الراقي يومئذ ثلاث وعشرون سنة، نشر حافظ إبراهيم ديوانه، وقدم له بمقدمة بلغة كانت حديث الأدباء في حينها، وطال حوصلة الجدل حتى نسبها بعضهم إلى الميول الحكيمة. واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالًا رائعا، وعقدوا له أكليل الثناء. والراقي غيور شوسر، فما هو إلا أن رأى ما رأى حتى عقد العزم على إصدار ديوانه، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التي أحدثت كل هذا الدوّى، فإن على الراقي أن يحاول جهده ليلبج ديوانه مابلغ حافظ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمة ديوان حافظ.

وصدر الجزء الأول من ديوان الراقي في الموعد الذي أراد بِعيد ديوان حافظ بقليل، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوائته؛ وهي، وإن كانت أول مانعرف مماكتب الراقي، تدل بمعناها ومنباهة على أن ذلك النحات النحيل الضاوا الجسد، كان يعرف أين موقفه بين أدباء العصر في غد. وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد نثار حولها من الجدل ماحمل بعض الأدباء على نسبتها إلى الميول الحكيمة، فقد حملت هذه المقدمة الأديب النافذ الكبير الشيخ إبراهيم الباجي على الشك في أن يكون كاتبه من ذلك العصر، مما يضاف نفسه في قدرة الراقي على كتابتها.

قال الامام جورج إبراهيم:

لما هم الراقي أن يكتب مقدمة ديوانه، جاء إلى جبلابه والحر شديد، فرحتني من حديثه، ثم سألت أن أهدي له مكانا رطاً يجلس فيه ليكتب المقدمة،
جلس في غرفة من الدار، ثم تخفيفت من لباسه ... وافتقد البلاط بلا فرش، وبنبت أوراقه على الأرض وتهيئة للكتابة: فذكرني أن تناول منه رطوبة البلاط في مجلسه الطويل. فقال: لا عليك يا игورج، إن لاحظ أن أحس الرطوبة من تحتي ... فنشت رأسني ... ثم استمر في مجلسه يكتب وليس معه ولا حوايله من وسائل العلم إلا قليله وأوراقه، حتى فرغ من المقدمة في ساعات... قال: فلما تم طبع الديوان أهدي نسخة منه فها أهدي إلى العلامة الشيخ إبراهيم البازجى، والشيخ البازجى يمتنع رأي العصر وأبلغ منشئ في العالم العربي، وكان الراقي حريصا على أن يسمع رأي البازجى في شعره وأدبته ومضى زمان ولم يكتب البازجى، على حين تداول كل الصحف والمجلات ديوان الراقي ومقدمة بالند أو التقرير، واحتفظ بها، واحتفلها، احتفالا كبيرا فنشر مقدمة في صدره، والمؤدي يوشد جريدة العالم العربي كلها.

قال: واعتقد أن يحمل أستاذنا البازجى هذا الديوان فلا يكتب عنه، واعتم الراقي لذلك غاما شديداً، إذ كان كل ما يكتب الأدباء في النقد لا يغلي عن كله يقوله البازجى، فذهبت أسلبه، فقال له: أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الراقي؟ قلت: هو كتبها بعيد، فها أشك في ذلك. قال البازجى: وأنا ما أبطأت في الكتابة عن الديوان إلا من الشك في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة، فأتى منذ أسبوعين، أبحث عنها في مظاتها من كتب العربية ... قلت: ياسيد، إنه ليس الشيخ، إنه في لم يبلغ الثالثة والعشرين ...!

كتب البازجى بعد ذلك في عدد يونو سنة 1903 من مجلة الضياء في تقرير الجزء الأول من ديوان الراقي ماأتى:

(4 - حياة الراقي)
وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر، ذهب فيها مذهباً عريزاً في البلاغة، وتبسّط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمته ويابان مزريته، في كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيل ما إذا تدرّب وجدته هو الشعر بعينه.

ثم انتقد اليازجي بعض ألفاظ في الديوان، وعقب عليها بقوله:

«... على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه، لآنَّ المرآة النبوية لا تستر أدنى غبار، ومن كلما مهسته ظهر في جنبها أقل العيب؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا عنا بفضل هذا النظام أن تتعلق به هذه الشوائب، ورجاء أن يتبنيه إلى مثلها في المتنزّر، فإن الناظم كما بعثنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنّه، ولا أرى أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن، سيكون من الأفراد المجلّين في هذا العصر، ومن سيحَّلون جيد البلاغة بقلائد النظام والثراء.»

بلغ الراضع بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذي أراد، واستطاع بذراع كبير أن يقلب إليه أنظار أدباء عصره. ثم استمر على دأبه، فأصدر في سنة 1904 الجزء الثاني من الديوان، وفي سنة 1906 أخرج الجزء الثالث، وفي سنة 1908 الجزء الأول من ديوان النظائر، ومضى على سنته، صنعت بالشعر، متصرفًا في فنونه، ذاهباً في مذاهبها، لا يرى له هدفًا إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العرب.

وتلقّى نجم الراضع الشاعر، وبرز اسمه بين عشرات الاسماء من شعراء عصره.

(1) لا ينبغي أن أنقل هنا ما كتب أهل الأدب في الراضع، وإنما أثبت هذه الفئة بكل ما كان لها في نفسه من تأثير بلغ.
براقا تتمتع أضواء وترى أشعتها إلى بعيد، ولقي من حفاضة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة، فكتب إليه الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول:

"...أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يحقق به الباطل، وأن يقيك في الأواخر مقام حسان في الأعوام.

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول:

"...وسيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مصورة في أجمل قالب من البيان.

وكتب حافظ، وقال البارودي، ونظم الكاظم، وتحتث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعي الشاعر. وظل هو على مذهب ذاك حتى سنة 1911، ثم تطورت به الحياة، وألفت أصبه بأحداث الأيام، فافترض عن الهدف الذي كان يرى إليه من الشعر، وتوجه وجهة جديدة في الأدب ستتحدث عنها بعد.

ليس كل شعر الرافعي في دواوينه، وليس كل ما في دواوينه يدل على فنه وشاعرته. فالرافي الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشره، وقد كان في نية الرافي لو أظهره لله من أن يتبع شعراء اليوم بأكثر مما في دواوينه، ثم يخرج منها وما لم ينشر دواوينه، وأحدها مهما صمداً، ليценده هدية منتقاة إلى الأدباء والمنتفعين، ولكن الموت عالله فبطل أمله وبيع عمله ترانا باقياً لم يشاهد أن يسدي بدأ إلى العربية تجربته صنع الرافي.

لم يقطع الرافي عن الشعر بعد تلك الفترة، ولكنه لم يقصر عليه، وستحدث عن ديوان الرافي الذي لم ينشر حين تمة الفرصة للحديث عن أعماله النائمة.
شعراء عصره

قامت الحديث عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو أتقن
آثارهم أو جرى معيهم على سنتين، وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المناصفة،
وما كان يتمتع به حافظ يومذا من الشهرة والجاهة والخطوة عند الشعب، تلك
الشهرة التي أهلت غيره الرافعي وحفزته إلى الكفاية وحمسته إلى استكمال
أسباب الجلية، بعدد الآواص وإنشاء المودات والدعاه لنفسه؛ ثم بين ما كان
بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير؛ وتساءلته في آخره القول:
هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل؟ هل كان لغير
البارودي حافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي؛ وما مبلغ
هذا الأثر؟ وما نبتجهه؟ على أن الباحث لا يكتبه هذه التساؤل، وليس كفته
من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة خمسة؛ ولقد نشأ
الرافعي الشاعر في أول هذا القرن وأولله حافل بثقة من الشعراء لم يسمع منهم
في زمان في بلد، فما بلغ تأثر الرافعي بكل وأولى الشعراء المعاصرين؟
هنا أدع الرافعي نفسه أن يتحدث عن شعراء عصره، وما حدثه هذا إلا
طرف من الدعاهة التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليلبج المنزل
الذي يطمبه إليه؛ ولنهي شخص عن شيء من خلق الرافعي وكرياته واعتداده
بنفسه، ويبقى على قوة الرافعي وعنوانه وشدة فهنه في النقد، إذ كان هذا الحديث
أول ما كتب الرافعي في النقد.

إن أدلة العربية عاطفة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرةً من
الخصومة بين الرازي وآداب عصره؛ فالخصومة بين الرافعي وطه، وبين الرافعي.
والعقيد، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي، وبينه وبين غير هؤلاء، هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل. مشهورة مذكورة في موضعها في تاريخ النقد في العربية.
وإن قراء العربية عامة يعرفون الرافعي النادر معرفة بصرية، يعرفون شدته وعنفوانه في النقد، شدة حبته إلى الكاتب، وألتبست عليه الكثير: على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي "شعراء العصر في سنة 1905".

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة 1905 من مجلة الأثيرا بتوقع (5) وأحسب أن هذه النبرة هذا الزمن حذر النهمة، وليبلغ به مبلغه من الدعابة لنفسه فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاثة تنتظم كل تُعرف بالرافعي من شعراء عصره. جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب:

الكاظمي، والبارودي، وحافظ، والرافعي ... 

والطبقة الثانية على الترتيب:
صرى، وشوقى (1)، ومطران، وداود عمون، والبكرى، ونقولا رزق الله، وأمين الحداد، ومحمد واصف، وشكيك أرسلان، ومحمد هلال إبراهيم، ثم ... حفي نصف!

وفي الطبقة الثالثة:
الكاشي، والمتفلوطي، ومحرم، وإمام العبد، والعربي، ونسم.

لم يثبت الرافعي طولا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره، وفيا كتب بعد ذلك من المقالات بتوقعه الصحيح، بجان رأيه في آخره.
ثم ألحق بقوله اثنين يعرفهما من شعراء العراق، هما: السيد إبراهيم، ومحمد النجفي.

وقد افتتح الراقي مقاله ما يأتى:

"قرأت في بعض أعداد "النور" مجلة عن "الأدب الفني والحديث" فقالت: كلة مأولة، ولم ألبث أن رأيت مقالة أخرى لأديب غمر على الشعراء، كان رأس الشعر بين أولهما وأخرى كانوا شيخين بين حجرين، فقلت: إن أنظم الشعر فأس، وأقرأ عنه فأسر، فلما لستي وأنا مُسلم، وأنا قامłem الذين قد أصبحوا يتوقفون في أسماه الشعراء كما يتوقفون في ألقاب الأعراء؛ وقد استورة في الزور، فلا أكثر أولئك شعراء ولا أكثر هؤلاء أمير.

ثم رأيت بعد أن عمرب الله، كتابه هذا المقال، أن أترك برجه توجيه، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خانته كألا كنا أميين لم يقرأوا فاقتته، فإن الحكمة كلها والمعرفة جميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسما، فإن ذكر: كتاب لفلان... فلينا: أي يبايع، وإن كان من سقط المنع، على أن اسمه قد لا يكون في غير بطاقته، وكتبه إلى أصحاب القائمين، وفي جمل بعض الجرافات والمجلات، فليلتي القارئ ما ضرب على رأسه الذن... وسأذكر في هذه الأستير كل من عرفته أو أقصى في اسمه من الشعراء، وأقطع عليه رأني، فإما وضعه فعال به، وأما أظهره، فإنه في نفسه، لا أنا هو عن نفسه، ولذلك فقد ضمته إلى ثلاث طبقات، وصارت في تسمية بعضهم بالشعراء عادة المأولة.

ثم كتب رأني بعد ذلك في كل شاعر من ذكرت مقتبسًا من شعره مستنداً به على ترتيبه في موضوعه من طبقته."
وكان مما قاله عن صديقه ومراهمه حافظ.

... وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة 1905) أضعف من قبل ... والذين لم تستثمر أفكاري ولم تزل أفكارهم على سهم يقولون: إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيل الشريف، ولا يرون للمعنى البكر إلا في اللفظ النبض، ولهذا يفظرون `شوق` عليه، وهياحات بعد أن استنوق الجهل ...!

وكتب عن نفسه:

"لوكان هذا الشاعر - يعني نفسه - كما أحسب عنه، فإن أكره قد غلبه إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأول)؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره (1)؛ ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره، سواء كان في أو كهلا: وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظمه في عامين، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء؛ ولم أثبت أن رأيت من أشهر في بعض أعداد مجلة `الجامعة` تقرؤها مهما جدا للجزء الثاني من ديوان هذا الشاعر.

فأكبرت ذلك، ولاشك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياسا على ما تقدم ...

وما استناث به هذا الشاعر وله الشديد بالزغول، وبلغة فيه أسمى ما بلغه النجم؛ ولله مرزية أخرى، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم يطرق، وكتب يكون عودونه بذلك الشعر مصر، وديوانه معروف، وشعره مشهور...الخ".

(1) مقتضى حساب السنين على هذا القول، أن يكون مولدته سنة 1881، وقد ذكرنا من قبل - نقلنا عن بعض ما كتب بخته - أنه ولد في سنة 1880.
وقال عن شوق:

"سأأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقى بك ثانى الطبقة الثانية وهو ملك شوقى بك شاعر الحضرة الفخيرة الحندوية، ولكننا نعم به أكثر من إذا رأينا الشوقى قد انتقل إلى شوكات؛ فأي ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الالفاظ النافرة من مثل: "فقيه أزكيجي القوة، وغيرها. ولا أدرى لهذا الانقلاب سبب إلا إذا صح ما يقال من أن صبري وسلمان كانا يهذبان شعر الرجل من قبل، وهو قول لا أجد به ولا أرفضه..."

وإذا اشتر قديما يوم كان الكاظمي في العراق، والبارودي في سيلان، وصبري من هذين في شعره على مايقال، وحافظ في السودان، والرافعى لم يقل الشعر بعد - على ما قيل لي! - وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الحندوية، على نحو ما يذكر النحاة في باب (الجز) بالجوارية..."

وختم المقال بقوله:

"وسرتي ما يكون من امتعاض الشعراء. بعد هذا المقال، ولكن أطلب إليهم أن يخففوا عن أنفسهم: فلا أنا من معية الأمير، ولا من حاشية السفیر، وليس ما كتب إلا رأي فليقيق كل من رأى وقد نفسه أشعار الشعراء.

وذلته مجلة "البراء" بما يأتي:

أهلي إلينا مكتب بريد الزيتون يوحا ملحا ضخما وارد من مصر، وداخله كتاب موخر ومعه المقالة المتقدمة للنشر. أما الكتاب فهذه صورته بعد الدبحة:

"وذلك مقالة بكرى لم ينسج على منوها الها بعد في العربية، حيطة بأن تصدر بها مجلتنا الغزاء، ولن يروني فأشردا هجتها، فكلها حقائق ثابتة، وإن آلمت البعض فإن الحق أكبر من الجمع، وله لالمصرد لكل من ينبرى للرذ على، وأنا كف.
للجميع؛ وما إخال أحداً يستطيع أب ينقض حرفهما ما كتبته، وإنهم الزموا الصمت فحسب من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأن أئذان كل شاعر في المنزلة التي يستحقها.

ولا يعنى معرفة اسمي، فأنا ابن جلال وخلقنا انتساً، فانظر إلى ما قبل وليس من قال، وبعد هذا فإن أعبدك مقالتي فانشرها وإلا فلا ضرب بها عرض الحائط. وإلى أقترح عليك أن تنشر جمع ما يرد من الرود في المعنى، سواء كان أو لم ينصرف، فإن الموضوع طال شبه، وفي إطلاقك الحرية للكتاب ما ينطط بهم حرية الجولان في هذا المضمار.

قالت التريا: وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة اللغة الكاتب، ونتا نققدم رجلاً ونؤخر أخرين في نشرها، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها؛ إن لم يكن الشيء، فلمكنه، ماهوته من رائق الأشعار لفصول الشعراء، وهم شارعاء مصر في هذا العصر، فأقدمنا على نشرها كما وردنا بالحرف الواحد، غير متحمسين تبعتها، وللكتاب الأدباء الحرية في الورد عليها، وأبواب التريا تحب بكل ما يردى من هذا القبيل، سواء من المشترين أو غيرهم.

ومن لم يبذ عن حوضه بسلاحه. يهدم، ومن لا يظلم الناس يظلم (1)

(1) كان هذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء في ذلك العصر. وقد تحدث عنه المرحوم الراقي مرة في بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلات عن حافظ) ووصف فيها أثره وما حدث من ضجة بين الشعراء فلم يرجع إليه من شاء، وانظر الجزء الثالث من وحي القلم.

على أن الراقي لم يصرح في ذلك العدد أنه كتب المقال، ولكن لم يستطع كذلك أن ينفوذ عن نفسه، وإن كان معروفاً لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه؛ وأسلوب الراقي لا ينبغي على أحد من قراءة.

وقد كتب الراقي في كتابه عن حافظ أن هذا المقال نشرته التريا سنة 1903 وهو سهم حققه ما ذكرته.
أحسب أن هذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعي دراسة أوسع، فالمقال على قواعد من العلم والتحليل النفسى؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح.

أولاً: إنه أول ما أنشأ الرافعي في النقد، فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التي نشبت بين الرافعي ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة، وبدلاً من يريد أن يتحدث عن الرافعي في النقد أن يبدأ من هنا.

ثانياً: إنه يتبع جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعي في جيل واحد، وقرأ لهم ونظر في شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتمى، فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعي في الشعر، وعن الشعراء الذين تأثر بهم، أو تأثروا به، أن يعرف هؤلاء الشعراء.

ثالثاً: إن في هذا المقال لوداً من آلوان الدعاية التي كان يقوم بها الرافعي لنفسه لبلغ الهدف الذي كان يرمى إليه بين أدباء العصر، فلا بد من يريد أن يدرس وسائل الرافعي إلى الشهرة وذبى الصيت أن يقرأ هذا المقال.

وبعد: فإن في شيء من أخلاق الرافعي المذهل بنفسه، المعتقد بعلمه، القوى بإيضانه، المتقن على مواطن الهلاك، الرافعي القزم الضعيف الذي وقف على السفح تعتمد خاصته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء الغالبة على القمة: انزلوا إلى أو أصعد إليكم فأرميمك إلى بطن الوادى أشلاء.

مرة ليس فيها عضو إلى عضو، ولا ينفع لكم صرخة ...!

لقد كان الرافعي طويل اللسان من أول يوم ...!
بين أقدام

إذا رأيت رجلاً موفقاً فما بالك يا جالساً، مصدود الخطى إلى الهدف التي بره إليه؟ فاعلم أن وراه استراحة بعدها وتحية !

إني لاأعرف - فيمن أعفر - أحداً تنتظري على هذه الحكمة انطباعتها على حياة الرافعي، فإن الواقع الذي يعرفه كل من خالط الرافعي وعرف طرفًا من حياته الخاصة، أنه ما كان ليبلغ مثله الذي بلغ لولا الحياة الهاضمة التي كان يحياها في بيتها، فليزاوجه يعود فضل كبير في نجاحه وتوافقه وهدوء نفسه، هذا الهدوء الذي هباه لدراسة نفسه ودراسة من حوله والنزاع لأدبه وفنه، لا يشغل عنهما شاغل ما يشغله الناس من شؤون الأهل والولد.

وقد تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من عمره، ولزواجه قصة فيها طرافة وفياً جمال الفكر والنظر في كل أطرافه، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعي، ولا أحسبني بذلك أن تجاوز ما ليس من الحق أو أفعوض لعبت أو ملاءمة، فقد خرج الرافعي من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ، والتاريخ حق واجب الوفاء.

وزوج الرافعي مصرية صريحة النسب، من أسرة البرقوق المعروفة في (منية جناح - دسوق)، وأخيها الاستاذ عبد الرحمن البرقوق صاحب "اليان" (1)

وقد كانت صلة الأدب بين الرافعي وعبد الرحمن البرقوق هي أول السبب في هذا الزواج.

(1) توفي سنة 1949.
حدثي المرحوم الراقي قال: كنت في الرابعة والعشرين، وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوق نوعًا من المعرفة التي تربط بين شابتين تآفقًا في الطبع، وانتفقا في الغاية; وكان عبد الرحمن طالباً أزهر يا ولوا بالذب، له حظوة ومكان عند الاستاذ الإمام، إذ كان من تلاميذه الأدنين، وكنا نلتقي أحياناً، فسُن من مسيره مني، وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزرحين; إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة... فنا تعارفنا حتى تضافنا، ثم اتصل بيننا الوعد، فكانت له، وكان لي أصاب ما يكون الصديق للصديق...
لم أكن أعرف له أخا أو أختا، ولم يجري في بالي قلت أن الصلة بيننا ستطاول ما بيننا، حتى كان يوم جلسنا فيه تأخذت إلى نفسي، فكأنني سمعت صوتاً من الغيب يتفق بي أن صديق عبد الرحمن هو صبري وأخو زوجي... وانتبهت وأنا أسأل نفسي: ألة أخت؟ باليتي... لو كان إلى إني إذا من السعداء...
وبني بأهله، وعاشا أهنتا ما يكون زوج وزوج، ثلاثاً وثلاثين سنة... ثم تقلت.
لم يدخل الشيطان بينهما، ولم يتخاصما لأمر، إلا مرة...

قال الاستاذ جورج إبراهيم: لقد حضرت عرس الرافعي، وصحبت طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس، وشهدت اضطرابه وهجمته، واستمتعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته وينفسه على حظه وتوفيقه، فما شكا إلى مرة واحدة همّها ناليه، ومنذ عام ونهاة ذلك اليوم، لجسنا نتحدث، وسرحنا في الحديث، ولكن وجه الرافعي كان بُنّ على سر بطيء، ثم لم يثبت أن أفنى قال: يا جورج، لقد عزمت على أمر، سأتلقى زوجي! وراعي هذا النبي ونكان من: قلت: تطلّقها! لماذا؟ قال: إن إخوتها يجدون حقها في تركها أباه لا يريدون أن تتمتعن منها بشيء، قلت: فهذا هو السبب؟ قال: نعم! قلت: وهل وهنك أن تأخذها بما أترقب أخوها؟... مصطفى، إنك جبار، أو لا، أذاكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبله أحد من أسرة الرافعي: أو لا هذا ولا ذلك، فأذاكر أن أهل طرابلس الشام، لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معتبرة وقعت مرة وإن تتكرر من بعد، فلك بعض أهلك يا صاحب...

قال: وأطرق الرافعي هندياً، ثم قال: أخطأتني أفعالها؟...! يقال: ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجهه... ومضت أثنا عشر وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة، كما يمضى شهر العسل، أو شهر الفوز، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام.

***

كان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الرافعي، وأباً كما ينبغي أن يكون الأب؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن
الرافعي ليس موظفًا كسائر الموظفين: عمله في الخارج وحسب: بل كانوا جميعًا يعانون ما عليهم هذا الرجل الكبير، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الآدبية، فيثبتون له أسباب الهدوء والراحة والإطمئنان. كان في بيته كملك من الحكومة الدستورية: يملك ولا يحكم، ويعيش في جو من الاحترام والرعاية والطاعة فوق الأحزاب وزعاق المنازعات. ففي ذلك لم يكن (سياسة) البيت تشغله أي شغل أو تشبث على هدوئه وفكر صفوه: فكان خالصًا لنفسه، منقطعًا لفنه وعمله الآدبي، فدار كتبه له هو وحده، وطاعته مهماً في موعده وعلى نظامه، وفواكهه مهد في موضعه لساعته، ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرجع مطلب.

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه نزوجه وأولاده، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء. وأنا معرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعي: إذ ينصب لهم ويناغيمهم ويبدؤهم ويهديهم جباً بحب، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالب أن يكون للأبا نفسي يكون على الآباء واجب التحية والرعاية والإرشاد.

تضحى برفع حين يحسن الرفق، مؤبأً يعنف حين لا يجد إلاألشادة والعبدوان.

وأما دمت بصدد الحديث عن الرافعي في أهله، فإن واجباً على أن أتحدث هنا عن شيء من حب الرافعي، أراه يتصل بهذا الموضوع:

في فترة ما من حياة الرافعي، سأأتي الحديث عنها بفصيل أخرى فيما بعد: كان للرافعي هو نوع غرام، ووقع عليه هو ما يخلق في منهجين من ضرورات الحب، ودافع نفسه مدافع ولم يجد له طاقة على المقاومة، واحتال على الخلاص لما أحدثه الحيلة إلا مكواً على هم، وكان حبه أقوى منه، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه.
وقال لنفسه: ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويتبنى علي إرادتي؟ إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني، والحب عند الرافع لا يأتي الشركة، وإن لها على حقا ليس منه أن يكون من لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تكون له ماذا يكون من أمر، وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه؟ أقول لها: نعم قد ضعيت حقك وأعطيت من قلبي الذي لا أمالك في لاتملك؟ ويلي! إنها الحياة والإثم والعار! وذهب إلى زوجته فقدها وحانتها، وألقي إليها خبرها وكشف لها عن نفسه، ثم قال: وأنت يا زوجتي، هل يهنى عليك مكان؟ ولكن استمعت إليه زوجته هادئة مطمنة، ثم إذ نستله كتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبته التي غلبت عليه قلبه، وقرأ زوجته الرسالة وطّرتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد. ووجه جواب صاحبته فقرته زوجته كما قرأ زوجته رسالته. وصار هذا دأبهما من بعد... لا ركيز زوجته لها حقا عليه إلا أن يعرف، ولا يرى على نفسه في ذلك ملاءمة ما دامت زوجته تعرف...!
وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف في الأدب العربي تم بها نقص العربية في فلسفة الحب والجمال، هي "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" و"أوراق الورد"، ولكن أحدنا لم يقرأ القصة الأخرى... قصة هذا الوفاء، وهذه التضحية، لأن الرافعي لم ينشرها في ألب من الكتب في فلسفة الجمال والحب...!
من الشعر إلى الألكتاتنة

ملكة الإنشاء. إنشاء الجامعة المصرية. تاريخ الآداب العربية. إبداع الفرقان. حديث الفن. شموخ في الآداب.

بلغ الرافاعي الشاعر مبلغه بعد سنة 1900، ونزل منزله بين شعراء العصر، وجرت ريطه رعّاء إلى الهدف المؤمن، فامتدّ نظره إلى جديد...

وأحدى برّوض قلبه على الإنشاء، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فنانة وملكت إخاها، فقاباً لأنّ يصدر كتاباً جديدًا في الإنشاء. السماء وملكة الإنشاء، يكون نموذجاً للناشئين وطلاب المدارس، يحذرون فئة وينسجون على منواله، وعند قراءته أن يشعرونها. وأحبتها كان جاذباً فيها وعد لولا أمور نشأت من بعد وصرفه عن وجه، فظل الولد قاماً بينه وبين قراءته حتى نسيه ونسوه.

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فت قراء الرافاعي بعدم نشر هذا الكتاب، وحسب الأدب والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرأوا من هذا الكتاب الذي لم ينشر، مقالات ثلاثاً نشرها الرافاعي في الجزءين الثاني والثالث من ديوانه، وفي الجزء الأول من ديوان النظرة، إعلاناً ومؤذناً بكتابه، فإن هذه المقالات الثلاث كل منها للباحث، تدل على أول مذهب الرافاعي في الأدب الإنمائي، وطريقته ونهجه (1).

(1) تقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص 67، وصف البحر، وفي الجزء الثالث ص 68، رسالة فكاهية، وفي ديوان النظرة ص 92، الحسن المصنوع.
إنشاء الجامعة المصرية

قلت: إن الرايعي كان جاذباً فيها وعد بإصدار كتابه "ملكة الإنشاء". لولا أمور
تشأت من بعد صرفها عن وجه. فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية في سنة 1907
كان قد مضى على الرايعي يوم منذ عشر سنين في مدربنها التي أنشأها لنفسه وكان
فيها المعلم والتعليم، يدرس ويطلع ويتعلم لابد أنه اتى من العلم إلى غاية
وما كان يدرس ليكون عالماً في الآداب، أو راوية في التاريخ، أو أستاذًا في
فروع فروع المعرفة، وإنما كان يدرس ليعتبر الشعر زاده، وليبلغ من العلم
ميلنا عينه على أن يقول وي]|[ئ. فلما أنشئت الجامعة المصرية، تطلع إلى
ما يقال هناك في دروس الآداب، لعله يجد فيه الجديد الذي يتشوف إليه
ويطلبه، فماذا وجد هناك؟

مضى على إنشاء الجامعة ستان ومساعدت تثبت فيها، وعندما تشتهر هنالك في الآداب يفتقر إليه
الرايعي، وما تحتشد أساتذتها حديثا في الآداب لا يعرفه الرايعي! ماذا? أهذا
كل ما هناك؟... وأين الرايعي من يومه؟ فكيف تبتغي... وطال أنتظار الرايعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فهي دروس
للآداب، وما استطاع الرايعي أن يصنع نفسه بأن في الجامعة أساتذة يدرسون
الأدب، فكتب مقالات في الجريدة جملة على الجامعة وعلى أساتذة الجامعة، وعلى
منهج الأدب في الجامعة، ورُفعت مقالات شارك وأحدهم، فتجمعت اللجنة الفنية
للمؤسسات، ونشرت دعوة إلى الكتابة وناتجها، وضمت أجلاً لتقديمها إلى سبعة أشهر
وقرأ الرايعي دعوة الجامعة، فلما رح ولا أهداء نفسه! لقد كان أهله يومد
أكبر من ذلك: إنشاء جامعة شيء، مغفر مثل الرايعي الآداب الناشئة، والموظف
(5 - حياة الرايعي)
الصغير، والزوج العائل: أبي وهيب وسامى محمد، ولكنه كان يطلع في أكثر من مائة جنيه، ويعلج في أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة.

إنهم على الأغلب سيعودون بتدريس الكتب لغير مولفه، فيكون المخضر لديهم كالغائب عنهم، ولا فضل لديهم إلا أنها مصدر التلقين؛ فإذا طبع الكتب صارت كمكتبة في حكم الجامعة، لأن العلم هو الكتاب الذي يلقع، وإذا فا بالله لا يعودون بالتأليف لستعودون إليه بالتدريس؟ وهل يقتضون على أن يكون من كفاءة الأستاذ القدرة على إلقاء درس دون القدرة على استنباط الدرس واستجاع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلاميذ التلميذ الأكبر...؟

لم تتفسر إداره الجامعة بدلا من قومهم روساء الصناعة، وظهور مناصبي العالية، وألسنة الحكم فيها؛ ثم تلمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله في قيمة الجامعة، وهي تعلم أن الخلل الذي تتوزعه الأكف يهم على الرقاب؟، وما سبعة أشهر لم يريد أن يؤلف في تاريخ أدب العرب؟ إنها فلم يتناولوه أحد من قبل. وإن مراجع البحث للكثير، وإن من وراء ذلك جهدًا لا يطبقه إنسان.

وكتب الراقي مقالة ثانية في الجريدة، ينعت الجامعة ولجنة الجامعة، وينبى في الدعوة التي دعت، ويقر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتب وجعلوا لذلك العمل إلى فصلة سبعة أشهر، إنما سعى بهم الحاجة إلى كتاب وأعووزه مؤلفه، فاستفو بذلك الدعوة يفتشون عنه في ضوء الجائزة... ومند الراقي يتجلى ويندل، وعادت الجامعة تفكر في الأمر، وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتب، وزادت المدة إلى ستين، والجائزة...
تاريخ آداب العرب

إن كثيرًا من الأدباء لا يرضون أن يعترفوا للرافعى بذيل على الأدب أو يرووا له صنعيًا في الأدب يستحق الخالد، إلا حين يذكرون كتابه "تاريخ آداب العرب".

وإنه لكتب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعى على الأدب والأدباء.

القطع الرافعى لمؤلفه منذ منتصف سنة 1909 إلى آخر سنة 1910، وفي سنة 1911 تم طبع الكتاب على نفقة قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة.

لم يكن الرافعى طالعًا في جائزة الجامعة، ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه،

ترفعت عن قبول الحكم فيه لجامعة ليس منهم من هو أبصر منه بالحكم فيه.

وكان أسبق المؤلفات ظهرًا إلى دعوة الجامعة، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب للفاعي، "سبيقه ذلك بشهرين أو شهرين سبقًا مطبوعًا" (1).

وكانت مقالات الرافعى في "الجريدة"، كتابه "تاريخ آداب العرب" من بعد، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية.

وهما السبب كذلك في وضع ما وُضع من الكتب في هذا العلم.

وأعان الرافعى على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتبه مكتبات ثلاث.

(1) حكاه الرافعي.
بطنيطا، كتبها حافظ بالنادر من كتب العربية، مطبوعتها وخطوطها، هي: مكتبة الرافعي، ومكتبة الجامع الأحمدى، ومكتبة القصي (1).
وكان من وسائل تجربته على إتمامه وطبعه، ما أعادته به ديدي المشري العروبة بالأدب المروحي.
الدبير المرحوم محمد محب باشا من مجموعات أدبية ومانة.
ليس من مهما هنا أن أتحدث عن القصة الأدية لكتاب الرافعي: تاريخ آداب العرب، فقد قرر آل الدبي من الحكمة عليه، ومثاثلهم أخذ الإياه إلى وجه محمد ومنتبطةً، ومانهته أحد الرحالة الأدب إلى الأدب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية يوم ذلك، إذ قال في مقال نشرته له الجريدة: سنة 1912: "... هذا الكتاب الذي نشبه الله على أن كل من نفهمه ..." لكنه عاد فصح رأيه فيها سنة 1923، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد من أفواه في الأدب إلا الاستاذ مصطفى صادق الرافعي، فهو كان قد يفطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتقال الشعر وإضافة إلى القسم، كما فطن لأشياء أخرى قرية وأكثر بها إجابة.
حسنة في الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب (2).
نال الرافعي كتابه هذا مكاناً سامعاً بين أدباء مصر، وشغفلته العلماء، وقنا غير قليل، وحسبك به من كتاب أن يقضي الاستاذ الكبير أحمد لطفي السيد
(1) هي المكتبة التي انشأها وجمعها المرحوم الشيخ إمام القصي وولده الشيخ محمد القصص شيخاً للجامع الأحمدى قبل المرحوم الشيخ الظاهري الكبير.
(2) ص 91 في الشعر الجاهلي، وص 192 في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين.
أسبوعًا يكتب عنه في جريدة الـ17 وكان كتب عنه مقالات ضافية في الجريدة جاء فيه: "رأينا هذا الجزء، فأنظره فعليه طابع الباكرة في بابه، يدل على أن المؤلف قد كتب مدونته ملكاً، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وثوب عمل، وأما أساليب الرافعي، كتب فيه فإنه سلمن من الشوائب الأعمى التي تقع لنا في كتاباتنا تجاه العرب المتأخرين، فكان وأنا أقرأ تأريخ من قلم الميد في استعماله المساواة والبناس المعاني ألفاظاً سابقة منفصلة عليها، لا طولية تشعر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى بعض أجزائها..."

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان وهو أشهر كتب العربي في ذلك الوقت، (1) مقالة في صدر المؤيد جاء فيها: "لكان هذا الكتاب خطأ محجوياً في بيته حرماً إخراجه للناس منه، لأنظمه أن يعمر إليه: ولو عكف على غير كتاب الله في نواحي الاستجابة، كان جديراً بأن يعكف عليه..." وقال عنه المثقف: "إنه كتاب السنة... وما كتبه المثقف مثل هذه الكلمة من قبل، ومن بعد لغير هذا الكتاب.

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب، يجد فيه كل طالب تلميذ من العلم والأدب والبيانات الرفيعة، وكان الرافعي يؤمن قد أمثل الثلاثين...

وفي السنة التالية، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب.

(1) عبارة الاستاذ لطفي السيد إلى الرافعي.
(2) توفي في ديسمبر سنة 1942.
وموضوعه إنجاز القرآن والبلاغة النبوية؛ وهو الذي أصدره من بعد في طبعته الثانية باسم "إجاز القرآن"، وابنته الثاني يعرف قراءة العربية، وقد طبعه على نفقته الملك فؤاد رحمه الله. ومتل وقف في مكتبة أصول الجنس الثالث من تاريخ آداب العرب، ومعها تعلقات كان ينوي إضافته إلى الجزء الأول في طبعته الثانية فتجاوزه المنياً.

هل كان للرافعي خيرته في المذهب الجديد الذي ذهب إليه عند ماهر يكتب "تاريخ آداب العرب"؟

وهل كان يعني ما يفعل حين أن تخبر عن الهدف الذي كان يسعى إليه في إمارة الشعر، إلى المنح الجديد في ديوان الآداب والإنشا؟ هل كان عن قصد ونية أن يتخلل الراحي عن أمام الشباب وأوهام الصبا وأحلام الشعراء، ليفق نفسه على العربية وتراث العربية يستطيع أسرارها ويغوص في فرائها، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مشروطهم ونبض آثارهم؟

الحق أن الراحي لم يكن له خيراته في شيء من ذلك، ولا كان يعنيه، ولا يتوجه إليه نيته؛ ولكن ألقى تاريخ آداب العرب لأنه وجد في نفسه رغبة إلى أن يمؤلف في تأليف آداب العرب، وكتب في إجاز القرآن لأن إجاز القرآن باب في تاريخ الآداب، فما أخرج كتابه إلى الناس، لم يلبث أن أرد إلى الصدى مما يقول الناس؛ فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله في العربية، وإذا هو كتاب من الطراز الأول بين كتاب العربية، وإذا هو صاحب القلم الذي يكتب

(1) نشرته المكتبة التجارية بالقاهرة سنة 1940
عن اعجاز القرآن فيعجل، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن،
حديث قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكلما نطقّين قاربتين... ووجد
الرافعي لكنّه أكتشف نفسه!

وهنا بدأ الرافعي الكاتب الذي يعرف القلم قراءة العربية، على حين أخذ
الرافعي الشاعر يتصاغ ويخطي روداً روداً حتى نسبي الناس أو كادوا،
لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حينا إلى أغانيه المذابة.

ثم ترك دنياه إلى العالم الثاني ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ.

لقد عرف الرافعي من يؤمن أن عليه رسالة تؤدي بين أديان الجيل، وأنه
غالية أخرى هو عليها أقدر وبها أجد: فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون
لله الدين حارسه وحماه، يدفع عنه أسباب الزيف والفتنة والضلّال؛ وأن ينفي
في هذه اللغة روحًا من روحو رداً إلى مكانها وبرًا عنها، فلا يجترف عليها مجترف
ولما نادى منها نائل ولا ينتصر بها ساخر إلا أنه لم يبدو أوهامه ويكشف
عن دخيله.

ونظر فيها يكتب الكاتب في الجرائد، وما يتحدث به الناس في المجالس,
فرأى عربية ليست من العربية، هي غاية متافحة، أو عجينة مستعرة، تحاول
أن تحضر نفسها لغة على أفلام المؤدين وألفتهم، فقرر في نفسه أن هذه اللغة
لن تعود إلى ماضيها المجد حتى تعود دلالة القرآنية، إلى مكانها مما يكتب
لكتاب وبئس الأدباء، وما يستطيع كاتب أن يشدو قلبه لذا لا أن يزود
له زاداً من الأدب القديم.

وعاد الرافعي يقرأ من جديد، ينظر فيها كتب الكاتب وأنشأ المنشرون
في مختلف عصور العربية، يبحث عن التعبير الجميل، والعبارة المنقية، واللفظ.
الجول، والكلمة النادرة، فضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوفاق، ليكون له عوناً على ما ينشئ من الآداب الجديدة الذي يريد أن يحتذى أدب العربية.

**

هذا سبب ما أعد بالرافعي عن مذهبه في الشعر إلى مذهب الجديده في الأدب والإنشاء. وثمة سبب آخر كان الرافعي يصرّ به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى في الشعر العربي قيوداً لا يستطيع أن ينظم الشعر كل ما يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرة في نفسه. هكذا كان يقول هو : وأقول أنا : إنه كان يعذر أن يصب في قصة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتب في سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيها قروياً للرافعي. والحق أن الرافعي بطبعه شاعر في الصف الأول من الشعراء لا أغنى الشعر المنتظم، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر، بل أغنى الشعر الذي هو التعبير الجميل عن خلقات النفس خطرات القلب ووجهي الوجدان ووثابات الروح. وقد كان رحمه الله بسمه في من اعتداد بالنفس، يكتب المقال الفنيّ المصنوع، فيقب لفظه يعباه، ويربط أوله أخوه ويجمع بين أطرافه كلما ينضج به قلبه من معاني السرور والألم، والرضا واليأس، والرغبة والحرمان؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويبعده على سمعه الباطن، ثم لا يبالي أن ينشف إلى جليسه قائلاً : "أسمع هذا الشعر؟ أرأيت شاعراً في العربية يملك من قوة البيان ما يجمعه كل هذه المعاني في قصة منتظمة..؟".

هذه العبارة التي كان يسمعها جليس الرافعي كثيرا، تفسر لنا قول الرافعي: إن في الشعر العربي قيوداً لا ينتج له أن ينظم بالشعر كلما يريد أن يعبر به عن
نفسه الشاعرة، أو تؤيد ما أدعه أنا، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية في قصيدة من المنظوم، ولا يعجزه البيان في المنثور. نعم، كان شعر الرافاعي أقوى من أدائه، وكانت قوالبه الشعرية تقضي عن شعوره...

أقصر في العريضة شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد،

في قصيدة منظومة دون أن يحتفظ الفناء ويغل بالمرأة؟

لا أحسب أن الرافاعي كان يعني ما يقول حين يزعم أن القيود في الشعر العربي من أسباب الضعف في الشعر؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجبر بهذا الرأي، بل أحسب في بعض نقدته الأدبية أنكر مثل هذا القول على أدب من الأدباء وراح يهبه بمحاولة النفس من قدر الشعر في العريضة؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعتبرا عن معنى تأبي كبر ياؤه الأدبية أن يصرح به.

* * *

ذلك هو السبب الثاني الذي عدل بالرافاعي عن الاستمرار في قرض الشعر

معنًى به مقصورا عليه.

لم يهجر الرافاعي الشعر حبراً بانله بعد أن أخذ لنفسه هذا المذهب الجديد، ولكن لم يجعل إليه كل همه، واتجه بعده ولسانه إلى الهدف الجديد، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دوايع النفس أو من دوايع الاجتماع. وسنري فيما سيأتي بعد، أنه قد صبى إلى الشعر ثانية عند ما أسحب الحب عليه وانتقدت جذوته في أعصابة سنة 1327، فدعته نفسه؛ وعندما اتصل بيلات الملك فواد، رحمة الله سنة 1329، فدعته داعية الجماعة.
حديث القمر

قلت إن الرافاعي بطبعه كان شاعراً، ولكن شعره كان أقوى من أدائه، وكانت قوالب الشعرية تضيق عن شعوره، فنزع إلى النثر الفني. وقلت إنه كان يرمي إلى أن يعيد لـ "الجملة القرآنية" إلى مكانها لما يكتب الكتاب وينشئ الآداب، لتعود اللغة على أوطها فضيحة جزيلة مبينة، وإن أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً في هذا الأدب الجديد يحتذى أدباء العربية. وقعت في أول هذا الفصل أنه الرافعي كان على نية إصدار كتاب مدروس سماه "ملكتة الإنشاء"، يكون عوناً للباحثين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء. فذلك بعض ما دفعته إلى إصدار كتابه "حديث القمر" من بعد.

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان في سنة 1912، عرف فيها شاعر من شعراء لبنان، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل في الحب (1)؛ فلما عاد من رحلته، وجد في نفسه حاجة إلى أن يقول فقال، فكان حديث القمر.

وهو أول ما نشر الرافعي من أدب الإنشاء. أصدره بعد كتابه "تاريخ آداب العرب"، وإيجاز القرآن. وما بن أن أصفه لقراء العربية، فهو مشهور متناول وهو أسلوب رمزي في الحب، على ضرب من النثر الشعري، أو الشعر النثرى؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فسي صنوع لا أحسبه مما يطرح الناشئين من قراء العربية في هذه الأيام، إلا أن يقرره على أنه زاد من اللغة، وزخر من التعبير الجميل، ومادة لتولد المعاني وتشقية الكلام في لفظ جزء وأسلوب بلغ.

(1) تحدث عنها فيما بعد، عند الحديث عن الرافعي العاشق.
ومن هذا الكتاب كانت أول الاتهمة للرافعى بالنضوض والإبهام واستغلال المعنى عند فريق من المتآذبين: ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشأوا على غرار في الأدب لا يعرفه ناشئة المتآذبين اليوم.

شيوخه في الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعى فإن أسأل نفسى: عن أخذ الرافعى هذا المذهب في الكتابة، ومن تأثر من كتاب العربية القديم والحديث؟ هذا سؤال لا أجد جوابه فيها حديثه به الرافعى أو أحد من أهله وصحابته؟ وما أستطع أن أثبت شيئًا في هذا المقام يعتمد عليه الباحث. وأكتر من أن الرافعى نفسه كان لا يعرف أستاذه في الأدب والأنساب، فكان هو أول همّة أن يكون كاتبًا أو مشتثًا، ولكن تطورات الزمن هي ردها من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان. وقد قرأ الرافعى كثيرًا وأخذ عن كثيرًا في كتابه من صنع نفسه، وهو مثمرة درس طويل وجهاد شاق، اختلطت فيه مناهج بمذاهب، ونداو عليه أدب وأدباء من كتاب العربية الأولين، ولكن أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنتين من أدباء العربية كان يقرأهما الرافعى أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه: هما الجاحظ وصاحب الأغاني، وكان يُعجب بأدبهما ويُعجب لإحاطتهما جبعًا لا ينقطع وإجعبًا لا ينتهي ، وكان لا يلبه حينهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته. أن يفتح جزء من الأغاني، أو كتابًا من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً ما يتفق، ليعيش فترة ما قبل الكتابة في جوز عربي فصيح.
وأحسب إلى ذلك قد تأثر كثيراً في صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ إبراهيم البازجي صاحب مجلة «الضياء والبيان».

وما لا يفوتي إتبانه في هذا المجال أن مجلة «الهلال» قد استفعت أدباء العربية يوماً منذ سنوات، في أيّ الكتاب العربيّ تُعين الأدب الناشئ على ماذته؟ وكما كان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لآذكره، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي.

وصفته مرة يقول: إن كلّة قراءها لفكتور هو جو كان له أثر في الأسلاوّ الأدبي الذي اصطنعته لنفسى: قال للاستاذ فرح أنظموا مرة: إن هو جو تعبير أو جملة يعجبه الفرنسيون كل الإنجاب، قوله يصف السماء ذات صباح: وأصبحت السماء صافية كأنها غسلتها الملائكة بالليل. قال الرافعي: وأجتني بساطة التعبير وسهولة المعنى، فكان ذلك حذوي من بعد في الإنشاء... أُفتح لنا بهذا أن نزعم أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي في الأدب والإنشاء...
في سنوات الحرب

كان الرافعي - رحمه الله - شاعر النفس، مرهف الحس، رقيق القلب، قوى العاطفة: يرى المنظر الآلم، فتبتله به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه، وتقص عليه نباً للفاجعة فلا تلبث وأنت تتحكي له أن تلح في عينيه بريق الدمغ يحبسه الحياة. وقد كان الرافعي يقرأ فيها يرد إليها من بايد قئاته كيراً من المأساة الفاجعة يسألها أصحابه الرأى أو المعونة، فما يقرؤها إذ يقرأها كلاماً مكتوباً، ولكنها تحت عينيه حادة يشاهدها ويرى ضحايها، فها تبرح ذكره من بعد إلا مع الزمن الطويل.

ولقد وقعت الحرب العالمية الأولى واستمرت نارها في الميادين البعيدة لا يبلغ إليها من نازولاً ولا دخان ولا يراق دم، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، لم يكن ضحايها في مصر بالجوع والمتربة أغلب عددًا من ضحايها هناك في الميادين. كيف كان يعيش العمال المستعمرين في تلك الأيام؟ راهب 1 إلى مازال أذكر يوم أرسلتي والدي، وأنا غلام بعد، أستدعى التجار لعمل عدنا، فوجدته جالساً في أبه ربما كانون: كانوا ستة قد تخفقوا حول قصعة سودا، فيها كومة من فوات الخبز إدماهم المنام، تنتابيف أينهم في نئم كأنما يخشى كل واحد أن يعود يده إلى القصة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية!... هكذا كان يعيش نصف الشعب في تلك الأيام السود مما فلل القحط والغلاء، لأن آيات الشعب قد تحملت إلى الميدان لتخون في داره المولن وتنا ما ثم تقفها من بعد قطابل المجرمين وتدروها رماداً في الهواء!...

ونظر الرافعي حواليه فاردة إلى البحر حسيراً ما يرى ويسمع، فاحتبس
الدموع في عيني، ولكن قلبي ظل يتحدث بمثانيه.
ومضى عام وعام والزور ما تزال مستمرة، والبؤس تتعدد أوزانه،
وتشكل صوره، وتحتشد آثاره؛ والرافعي دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل
ما يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير، حتى فيما يقال/anو ما فاض.

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم، يحس الإنسان أنه شيء
له في نظام الكون إرادة وتدبير، وأن من حقه أن يقول للمقدور: لما أنت
في طريقي؟ قتراه في بعض نجومه يتسائل: رب، لم كتب على هذا؟...
لماذا حكمت بذلك؟ لماذا قدرت وقضية؟ ما حكمتك فيك كان؟
ألم يكن خيراً لك ما لم يكن... ثم يثور إلى نفسه وبني إلى الرضا، فيعود
معطرا يقول: رب، لقد ظهر حكمك ودفعت حكمنك فغرفة وعبوا...
وتظل حكمة الله مطوية في ظلالات النبي، لا ينثرها إلا من غرر شعاع
الإيمان وسط في قلبه نور الحكمة: أما الذين تبعد بظهرهم شهوات أنفسهم فهم
أبدا في حيرة وضلالة.

في لحظة من تلك اللحظات، أغضب الرافعي عينيه وراح يفكر، وفي
رأسه خوارج يموج بعضها في بعض: ثم قام نفسه، فرفع رأسه وهو يقول:
درب ما أدق حكمنك وأعظم تدبيرك ...؟! وأفاد الله عليه ورفع عن
عينيه الغطاء.

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضًا، ويصر بعضهم أقوات بعض،
ويتزاهمون على الحياة فيساقعون إلى الموت; فمعت عيناه، ولكنه كان يبكي،
وعاد يقول: حكم أنت يارب! ليتهم وليتقى ... ليتهم يعلمون شيئًا من حكمة الله.
في شيء من أغلاط الناس! ... كل شيء! في هذا الكون العظيم يجري على قدر
منك وتدبير حكيم! 
ثم شرع يؤول كتابه "المساكن".

كتاب المساكن

أخرج الراقي كتابه هذا في سنة 1917 ، وهو الكتاب الرابع لما ألف
في المنثور ، وثاني ما ألف في أدب الإنسان. ويرجع اسمه الراقي في الصفحة
الأولى منه فيقول: هو كتاب "أردت به بيان شيء من حكاية الله في شيء من
أغلاط الناس ... .

وقد قدم له بمقدمة بلغة في معنى الفقر والإحسان والعاطف الإنسان يقول فيها:
"هذا كتاب حاولت أن أكسب الفقر من صفحات مرفعة جديدة ... . فقد
والله بليت أتوب هذا الفقر وإنما لنحسد على أركانه مزقا متجدا يمت بها
في بعض، وإنما لينفثها خيوط من الدمع، وينسكى برفع من الأكباب،
ويشاهد بالقطع المتدرفة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة، وخيبة إلى هم;
وأحق من الفقر، إلا أن يظهر الفقر كأسا أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانة
أو المعانى التي يتعين الحكاء، لو أنها غابت في خجامة المدى الأولين ...،
وكتاب فصول شيء ليس له وحدة تربط بين أجزائه، إلا أن صور
من آلام الإنسان كثيرة الألوان متعددة التلال، تلقى عنها أن ظن
المريض، وزفارة العاشق، ودمعة الجائع، وصرخة اللهفان المستغفيت ... فهنا
صورة "الشيخ على" الرجل الذي يعيش بطبعته فوق الحياة و فوق الناس لأنه يعيش في نعمة الرضا، وإلى جانب قصته من النبي الشيخ الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المصالح، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التي انتشرت الشيخ بماله من الفقر الجائع، فووه لها المال ولكنه سلمها نعمة الشعور بالحياة، وهذا، وهذه، من صور المساكين الذين يعيشون يتسعون الدموع أو يتطهرون بالدموع.

وأول أمر الراقي في تأليف "كتاب المساكين"، أنه كان في زيارة أصراه في منتهي جناح، فلقي هناك الشيخ علي، والشيخ علي هذا رجل يعيش وحده، ليس له جيب يمسك درهما، ولا جسد يمسك ثوبا، ولا دار توغه ولا حقل ينفع عليه: يموج فيه على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه، ويدرك اليوم فتنه سد ذراعه حيث أدركت النوم من الدار أو الطريق. رجل يعيش بطبعته فوق كل أمال الناس وأمال الحياة. ولقيه الراقي واستمع إلى خبره، فعرف من فلسفة حيسه، الحيي، وجه عينه لكل ماق نافقه من مشكلات، فكان هذا الكتاب من روحي الشيخ على الفيلسوف الصامت في الراقي الأديب، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة.

ويصف الراقي الشيخ على فيقول:

...هو حلم لنفسه، غضب لنفسه، وأيضاً هو في الجنة واليوضر، والضحك والحبوب، والزهو والانقضاض، وفي كل ضبطين منهما لذة وألم، كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يبطبه إلا الماء، فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هيه فقابلنا كما هو، يرون من جزءه الزمان أصطب من أن يصرب بأذي، ويرى نفسه من دهور أقوى من أن يصرب بأذي؛ ويتعامله رأفة ورحمة
ويتحامه آفقة واستغناً: ثم إن مسه الأذى من رقعت أو سليط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساس إليه، فألماً وكان لله مرض طبيعي، ولا فرق عنه في هذه الحال بين أن يغص بطنه بالداء أو يغص ظهره بالعصا...! وهو والدنا خصان في عديد الحياة، غير أن أمرها مختلف جداً، فلم تقهره الدنيا؛ لانه لم نطمئن إليها ولم يقع فيها، وقرها هو؛ لأنها لم تظفر به.

...وهو رجل سُدِّدت في وجهه منافع الجهات الأربعة كلاً لاجهة الساء، فكأنه في الأرض بطل خيال برن من نفسه إحدى خرافات الحياة، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تُغْلُقُها مادة الأرض ولا مادة الجسم، فهي تزدرى كل ما على الأرض من متعة وزخرف، وكل ما ماردت عليه الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في الملال أو فضل في المنزلة، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوطة على خوف.

... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا...! وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكرمية النادرة، فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتأكد، وإن هوَّلَ عليه ألوان الحز والديباج، حسبك مانقاً لم تقط نضارة البرسيم وألوان الربيع...!

هذا هو الشيخ الذي أوحى إلى الرافعى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردته إلى إلهامه، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح.

وقد فرغ الرافعى من كتاب المساكين في سنة 1917؛ وفرغ الشيخ على من ديناه بعد ذلك بقليل، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعى وتميل عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة؛ والواقع أن الرافعى (1 - حياة الرافعى)
كان يؤمن بالفلسفة التسلم والرضاء فيها لطالبته له، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله. وإليًا هذا الذي كان يف批 عليه أمارات المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأخرج ساعاته، فكانت لاترعا إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام.

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي:

لقد جعلتنا شكسبير كلاً لإنجليز شكسبير، وهيجو كا للايرسي هيجو، ووجوهنا كا للزمان جوته.

هو كتاب اجتمع على إخراجه سباقاً: أهوال الحرب التي حَطت
على مصر بالجوع والقحط والغلاء، والشيخ على الجنائي.

---
اغاني الشعب

اسلئه يا مصر، نشيد الاستقلال، شاعر المنجز

لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد، ولم يكتب لنشيد وطني أو طالقى من الذيبوع والشهرة والانسجام مع الألحان ماكتب لأنشيد الرافعي، فهو بذلك خليق أن نسميه «شاعر الأناشيد».

وقد وجه منذ نشأته في الشعر بالانشيد الوطنية والأغاني الشعبية، يفتح في نظمها، ويبدع في أوزانها وأسلوبها; وفي سنة 193 أخرج في الجزء الأول من ديوانه بعض قصائد وطنية، تفيض عاطفة وتشتهر حماسة، وأشهر من بينها قطعته، الوطن، التي يقول في مطلعها:

بلادى هوها في لسان وف دري يجدها قليل يدعو لها في ودائع على ألسنة تلاميذ المدارس، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المخزونات إلى يوم هذا، كما اشترك كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية، وجال في هامش ديوانه بعد تمام هذه المقطوعات، قد تم القطع إلى نظمتها للشاعر من تلاميذ المدارس، وقال ناظمها: إنما إذا وجد الناس أقبلوا عليها، أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرقى، غير مبال بوعورة هذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحد، فإننا نحن أولاء ننتظرون من الصحفين وشبان العصر أن يأخذوا يبدوا في هذا المشروع، حتى لا يغيب ما بني في ذلك الينبوع... (1)

(1) شرح الرافعي الأجزاء الثلاثة من ديوانه، ولكنه لسعب ما نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي، وهو باب من الدراسة التي كانت يدعوها لنفسه في أول عهده بالشعر، ومن هذا رأى القارئ حديث الرافعي عن نفسه في هذه العبارة: "ضمير الغائب، على أنهما من قوله هو نفسه".
ثم دأب على نظم أمتاز بهذه الأغاني، ينشر منها طرقة رائعة في كل جزء من ديوانه، فنشر نشيد الفلاحية المصرية، وأرجوحة سامي، وآخرها، وأذاع في الصحف كثيرا بما نظم من "أغاني الشعب".

عرف الرافاعي في نفسه هذه الميزة التي فاقت بها شعراء العريقة في باب هو من الشعر في ذلك العصر من صلبه وقوامه، فأجمع أمره على إخراج ديوان "أغاني الشعب" يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عريقة تنطق بخطواطها وتعبير عن ألمها؛ وقد جرى الرافاعي في هذا الميدان شوطا بعيداً، وأنتج طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها ومايزال سائرها في طي الكتب بين أوراقه الخاصة ومzellاتها التي لم تنشر بعد.

وإذ أن ترى الرافاعي في هذه الأغاني والآناشيد، لها طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره، فتؤمن غير مضلّة أن الرافاعي هبة الزمان للعريقة ليزيد فيها هذا الفن الشعرى البديع الذي تقطعت أثنا عصرنا الشعراء العريقة دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد: "نحن بنو الموت إذا الموت نزل..."، ثم لم يقل أحد من بعده شعراء يترنم به في الحرب، أو يدعو إلى الجهاد، أو يستنصر إلى المعركة، حتى أنشد الرافاعي.

ويجب أن اسم الرافاعي إذا كتب له الخلوص بين أسماء الشعراء في العربية، فلن يكون خلوده وذكره لأنه نظم ديوان الرافاعي، أو ديوان النظرات، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد، أو قصائد الحب والفرز بفلاحة وفلاحة من جنبته الكثيرات، ولكنه مسيخل ويدكر لأنه شاعر الأناشيد.

وأشهر أناشيده: "أسلمى بمصر"، و"إلى العلا إلى العلا" إلى الوطن.
و دحمة الحي ...، و لكل نشيد تاريخ.

نهضت الأمة نضجتها الرايقة في سنة 1919، ودوى صوت الشعب هانفاً: إلى المجد إلى المجد، إلى الموت أو الحرية؛ وصلاح صالح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها، فإذا الآمة صوت واحد، على رأى واحد، إلى هدف واحد؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإنسان بحق الموجود في وجوده يتمثل في كل مصرى، ويستعن على كل لسان في مصر.

واجتمع رأى طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النشيد نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها، ويعكس أغنية كل مصرى، يجتمع عندما خواطر نفسه، وخلجان فكره، وهمسه قلبه، وفصول صوتها من صوتها، ولحنها من أحلامه، وبيانها من معاني نفسه.

وتلقت الناس يفتتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذي يقللون أن تحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره. وسمت لجنة النشيد جائزة وضربت أجلاً وتبارى الشعراء في الافتنان والإجادة، وتقدم كل شاعر مبدعه، وتقدم الرافعي فين تقدم؛ ولكن اثنين منها ماكثهما وخطهرهما بين شعراء العصر لم يتقموا به، إلى لجنة النشيد: هما "شوقي" أمير الشعراء، و"حافظ" شاعر التليل.

أما حافظ فألبه من المحكين في اختيار النشيد، وأما شوقي ... فن يدرى؟ وكان على رأس لجنة النشيد، الوزير العالم الأديب، الاستاذ جعفر والى.

فكان أما عن عليه أن ينتهي الأجل المضروب فيتقدم الرافعي، ويتقدم الهراوي؟

(1) توفي سنة 1944 فيما أذكر.
ويتقدم عبد الرحمن صدقى، ويتقدم غير هؤلاء من يقول الشعر، وما لى من حسن
إذا أن يزندت وفقولاً على قوم، ولا يتقدم شوق وحافظ.
وأتت اللجنة الأخاذة المضروب، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبرين
ليحملوهما على الباشتراك في المبارزة، فأما حافظ فأصغر وأبي، وأما شوق...
يهب الله - لقد كان حريصا على أن يقول الناس في كل مناسبة، لقد قال شوق...
وكن ماذا يقول في ذلك اليوم؟
وكان لشوق نشيد أنشأه منذ عهد لنفتتح به فرقة عكاشة، موسمها المثلى،
فأذا عليه لو تقدم هذا النشيد القديم إلى لجنة المبارزة؟
وتقدم شوق إلى اللجنة بشيده المشهور:
بنى مصر مكنكم تبيها، فهي مهدوا للبجدها
وتساءل الأدباء بينهم: لماذا مدنت اللجنة الأخاذة المضروب؟ لم يلبشو أن
جاءهم الجواب الصريح، فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصة على أن يكون
النشيد اختيار من نظم شوق ...
عندما نبت ثورة أديية حافية، وتزود الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة,
هل كان لهم أن يطلبوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية؟
وكان الرافعي على رأس الثائرين، فنشأ بضع مقالات في الأخبار،
والأخبار يعترضون مهذبها السياسي، وكانتها الأولى هو المرحوم أمين الرافعي،
فسحب الرافعي نسيبته من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه، وراح يعلنها ثورة
صاحبة على اللجنة وأعضاء اللجنة، وعلى شوق وأناصر شوق وقال في نفيه
ما يقولون لا يقال، وتتابع جهره من الأدباء: فكتب المازني والماناوي،
الديوان.
وكتب غير المازني والعقادي، وشوقى رحمه الله رجل كان على فضله ومكانه وعلى منزلته في الشعر - ضيف الصدر بال النقد والنقديين؛ فن هذا كان ين له وبين الراقي نوع من يومئذ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الراقي مقالته في التراث عن شعراء العصر في سنة 1905؛ فما النقيق من بعد حتى لقي الله؛ على أن أحداً من أداد العرية لم ينقص شوقى بعد موته أو يكتب عنه مثل ما كتب الراقي عن شوقى في مقطف ديسمبر سنة 1932، وهو نموذج من الأدب الوصفي أحسه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين.

ومضت لجنة المبارزة في طريقها غير آبة لما يقال، ومضى الراقي في ثورته؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة، من أصدقاءه وصفوته والآخرين عنه؛ لتنظر في نشيد الراقي وحده. واصدرت اللجنة الأصلية حكماً، فكان الفائز الأول هو شوقى، وفاز من بعده الهزاوي عبد الرحمن صدوق، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الراقي هو النشيد القومي المصري... وسبقت بين المغنيين جائزة، ليصفعوا لحنا لنشيد الراقي:

إلى العلا، إلى العلا، على الوطن، إلى العلا، كل فتاة وفتيّ
وافاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة! ليس من هم هنا أن أوزان بين نشيد شوقى والراقي؛ فقد مات نشيد الراقي (إلى العلا...) بعد أن سبقه نشيد شوقى إلى الموت بعشر سنوات، ولم يجد كل المحاولات في بعثه ونشره... وإذا كان لي أن أقول شيئاً هنا في الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الراقي
واحتفاؤهم به في كل مكان، وكيف كان نشيد شوقي.
لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رئيسيٍّ أقيم لإذاعته بطنطا في سنة 1921 أو 1922 بمسرح البلدية؛ ففأحسب أنى رأيت من بعد نشيداً احتفل له الناس ما احتفلنا لنشيد الرافعي يومئذ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيان أذياله، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه، ولكننا نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى...

اسلمي يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا في سعد زغلول؛ فهم المصري الذي لو أرادوا أن يذلوا ذلك الشعب العربي إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته، ولو سألوا: من الرجل الذي يقول أنا الأمة صادقة لما وجدوا غيره.

وتطورت فكرة النشيد القومي عند الرافعي، فرأى رؤياه في منامه... فلما أصبح ألف نشيداً اسلمي يا مصر، وماكان هم الرافعي عندما ألمه أن يجعله نشيداً قومياً؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد، أوكا يقول الرافعي في خطابه إلى سعد في جبل طارق:

و ما أدرت إظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعدادها، وبيتى استمنك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدرًا من مصادر إمداده.
ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية، وأنا أقول إنهم يتقربون به إليك، ويجدون منه الوسيلة لتقبل اسمك الحبوب إلا لا يستطيعون مثلنا تقبل يديك، ويجدون في كل زمن من شرح هذه الاسم الكبير أنه الرجل الذي حط قلم الأزر الذهبي كتاب نهضته الكرميه، وختاره الله للامة كا اختار الابناء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة... 
قلت: إن الراغبى لم يكن يعني بإنشاء نشيده أسليى يا مصر، أن يجعله نشيداً قومياً، فإنه لم يطمئن إلى أن نشيده، إلى العلا...، ما في طريقه إلى هذا الهدف: إنما كان يعني أن يضع في هذا النشيد صوت سعد، كما صورته حققيته في نفسه: ولكن نشيداً ما كان ينشر ويذاع، حتى أبديت البلاد رأيها: فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اختيار نشيداً قومياً ليجعلوا صوت سعد في هذا النشيد صوت البلاد، وليتخذا ما فيه من معاني المجد شعراً لكل مصري، أن كان صوت سعد يومها هو صوت كل مصري.
وتآلفت اللجان في مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم حبه، فكان أسهمهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض، الموسيقار صقر على؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاً؛ ولكن اللحن الثاني أذيع وأعم، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد أن صار نشيداً الرسمي.
نشيد الاستقلال

وتجد الدعوة نجاحها المؤلم، فصار نشيد "اسلام يا مصر" هو نشيد مصر القومي من سنة 1927 إلى سنة 1932 حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومي يفتض به الشعب وتعرف به الحكومة. في هذه الفترة كان الرافعي على نية إنشاء نشيد وطني جديد، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوطن؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم

نشيده الجديد:

حمى الحي، يا حماة الحي هلموا، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدّما نموت، نموت،WiFiالوطن
كما تقدم بنشيد الآخرين: "اسلام يا مصر" ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة
النشيد الثاني، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول. وما أريد أن أعرض
لرأي اللجنة وحكمها في هذا النشيد الجديد، فذلك باب من النقد الأدبي ليس
من قصد التعرض له في هذا المقال؛ فإن للتاريخ الأدبي حكه في هذا الشأن،
يوم نُبنى الأحقاق ونُمجّح العداوات.

**

ليس ماذكرت هو كل جهد الرافعي في الأناشيد، وليس بهذا وحده يستحق
أن يُخلق عليه هذا اللقب الذي لا أرى غيره من شعراء العربية جديرا به، فما
استطاع أن أصْحَب بحده ما أنشأه الرافعي في هذا الباء، وحسب أن أُذكر بنشيده
الحالة الذي أنشأه في سنة 1927 ليكون شعراً للشباب المسلمين، فهذا.
في هذا التشقق يُعرف الرافعي الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلبه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب.
أما "تشيب الملك"، و"تشيب بنت النيل"، و"تشيب الطلبة" الذي أنشأ له سبارة ليكون به هتاف تلاهذ المدرسة الثانوية بطنطا، فذلك فن من البيان ففصل بعوناته في تاريخ الأدب العربي.

البحر المفجر

في أناشيد الرافعي عامة، تعرف له طابعا وروحًا ونغمة هي سر نجاحه فيها ألف من أناشيد، ويبدد في أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة في سلك اللفظ وحن القول، ولو أنك سمعته مرة، وهو في خلوته الشعرية يحاول شيئا من هذا الأناشيد، لسمع لحظا، يتبخر فيه صوت الرافعي، ونشر أصابعه على المكتبة، وخشف من تعله على أرض البلدان، وعلى أن الرافعي كان أرم لا يسمع قصف المدافع، فإنه كان لا يسوى له النظم إلا في مثل هذه الحال، وأرسلنا صديقا الأستاذ مضتني درويش مفتش التحققات بوزارة المعارف، ماذا رأى وماذا سمع يوم صعب الرافعي من طنطا إلى القاهرة، وكان يؤلف في القطار نشيد: "خوانا الحمي..."؟

وأرسلوا الآباء للبنان قديم معينة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثنكم عن خبر الرافعي يوم جلس إليها، وهي تعالج تلحين نشيده، بنت النيل، ويوم جلسها إليه تعرف له على البيان، خلقا نشيدا، استمباي مصر، وهو يسمعها بعينه تتبان أصابعه على المعرف وهو يبتكر على الأرض بعذاب ورجله.
ويᠩ Seeder في أذني وقير كريل...!

هذه النُرغة التي كانت تنمّث للراغداد في سمعة الباطن وهو يعالج نشيئاً من الإنشاد، كان لها أثرها الفنى في عمله، وهي هي التي كانت تشعره أحياناً بالعذر عن أن يجد في موازين الشعر العربي النغمة التي كان يريدها في أنشاده.

كطلب الحرب، فلها أن يضع نشيد الطلبة:

مدرسّي جَدْداً مُدْرَسّيّ

عن على عن تريثيّ، مدرسّي جَدْداً حمّداً.

لم يجد له نغمة ثلاثنْما فيا يعرف من بحور الشعر، فاختبر له هذا الميزان الذي يزنه به قارئه، وسماه: طبل الحرب، ولكنه صاحب المقطم، أشار عليه أن يسميه البحر المنفجر، وتفعيلاته، فعليه، فشلل، مع مكررة في كل شطر، مع بعض عمل في الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته.

هذا هو الرافد شاعر الآناشيد، وهذا جهده وما بلغ: وقدكان على نية إصدار ديوان: أو أغاني الشعر، لولا أن عاجلته المنيه، فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أدباء العربية كان يعيش في هذا العصر فاجتمعوا على العناية بأنواره، ويهتمّ رسالة أدبها، لا يخرجوا لقراءة العربية ذخراً من الأدب والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان...!
الرافيعي العاطق

الحب عند الرافيعي هو وحيد، شعر وفن، وحيد وكبير، ومدته تأميم الرافيعي.

1 - إن المرأة للشعر كفاءة كبيرة، وهي وحدها تسحيط يجهزها جديداً لم يكن فيها، وكل شعرها أنها تسحيط به السياقات نازلاً...
2 - إن النابية في الأدب ليأتي تجاهنا إلا إذا أحب وعشق...
3 - إن سلاسة الطقس في الشعر من سلاسة الحب، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في المقام بكلما يأخذها وترصها...

أنا أستطيع الحديث عن الرافيعي العاطق فأقويه القول وأبلغ الغاية.
ولكن يمكن لي أن أدعى أن أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافيعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافيعي العاطق...

وهل خلت فترة في حياة الرافيعي من الحب؟
ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من مبهر لايشيخل معترف بالعامة مطلق المذيدة مستمر اللحية مما قرؤه، وله من بحوث في الدين، وأراح في التصوف وححرص على تراث السلف ورقة في فمن القرآن مما لا يدرك إلا الشيخ، بل ما لا يدركهما.
هذا الذي يكتب عن إنجاز القرآن، وأسائر الإنجاز، والبلاغة البوية،
ويصف عصر النبوة ومجالس الأمية وكأنه يعيش في زمنهم، وينقل عن حديثهم.
هذا الذي كانت تصل روحه فيما يكتب من وراء القرون، بروح الغزالي،
والحسن البصري، وسعيد بن المسبح، فما تشك في أن كلامه من كلامهم، وحديثه من إلهام أنفسهم...
هذا الذي تقرأ له فتحمه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوي الزمان القهري ليعيش في هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد في عصر بعيد...

هذا الرجل كان عاشقاً غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه!
إن الحديث عن حب الرايقة لمدة طويل: فما هي حادثة أرويها وأفرغ منها، وحبته واحدة أصفها وأتحدث عنها؛ ولكنها حوادث وحببات، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين، لم يشرق في صاحب ولم يحن مسألة إلا والرايقة جديده في الحب: بين غضب ورضا، ووصل وصفر، وسلام وخصام، وعذب والدال، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء...

وشب الرايقة وما شاب قلبه، وظل وهو يذهب إلى الستين كأنه شاب في العشرين... ومات وعلى مكتبه رسالة ودود من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار، وكان في الرسالة موعد إلى لقاء...

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب الرسالة، وبين الرايقة وأجله عام: هل لك في موضوع طريف عن الرايقة أشره لقراء الرسالة؟ إن للرايقة في الحب لحديثي بلد ويفيد...

قال: ومن لي هذا؟
قلت: أنا لك.
قال: ولكنه حديث، يغضب الرايقة!
قلت: وعلى أنا أن يرضي...
وذهب إلى الراقة فأفضيت إليه بعزم. قال: أوتفعلها؟ أفكان لهذا
جلسك من كل مساء تسرق الدم لتدخره إلى يوم تنشر فيه على الناس
بسم الله الرحمن الرحيم
قلت: لو أنه كان سراً لم يعلمه غيري ماعقدت العزم على شيء، ولكنه سر.
علسانت إلى كل من تتحدث إليهHA ...
وما كان للراغبي سر يستطيع أن يطويه بين جوانبه يوما وبعض يوم،
فكيفاً أذكرته؟ - بما قلت - بعض ما كان ناسياً: فعاد يقول: وماذا تريد
أن تقول في حدبك عن حبي؟
قلت: حديثاً لو هم غيري أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الراغبي هو
الراقي عند من يقرؤه، ولكن أحاسيني أنا واحدة الذي يستطيع أن يقول
إن الراغبي كان يحب فيما يذكر شيئاً من صورة الرافيء كما هو في نفسه وكما هو
عند من يقرأه: إنني أنا واحدة الذي يعرف الحادثة وجوهاً وملابساتها
وما كان في نفسك منها: ولعل يوم عرف كنت أسمع نبضات قلبك وخلجان
وجدانك ومرئي أملك وما كانت غاياتك في الحب ومداها. أما غيري فهل تراه
يعرف إلا الحادثة؟ وحسبه أن يقول: إن الرافيء يحب ... ثم تكون الفضيحة
التي تختفاها وأنتم منها طاهر الإزار ...
واستمع الراغبي إلى حديثي ثم أطرق هنيئة وعاد يسألني: وهل أقرأ ما تعيده
قبل أن تنشره.
قلت: لك ماتريد.
قال: أنت وشأنك!

وأجعت أمرى، وأعدت فكرى، وتهبات للكتابة، ثم شبعتى العناء.
الحب عند الرافعي

وهل في الحب عار أو منقة؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى في هذا الحديث. أما الحب الذي أعنيه - وكان يعني الرافعي - فشيء غير الحب الذي يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع، ولكنه عند الرافعي هو حيلة النفس إلى السماء والإشراق والوصول إلى الشاطئ الجهنوم، هو تعلقة بما البشرية إلى غايتها العليا، وأهدافها البعيدة، وأما لها في الإنسانية السامية; هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تنمور فيه الأفف المنير في جانب من النفس الإنسانية، هو بوابة على قدر أنبيائها: فيها الوحش والإلهام، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحي ملك جليل... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس ويبنوع الرحمة وأداس البيان.
كذلك كان الحب عند الرافاعي، ولذلك كان يحب... وسعى إلى الحب أول ماسعى على رجليه، منطلقا بإرادة ليبحث في الحب عن ينوع الشعر، فلبغ أعلق الباب ومن دونه فظل يرسف في أغلاله سينين لا يستطيع الفاكاك من أسر الحب.
وكان ظافرة، أول من فح له قلبه فيجبره على وغبته على نفسه، وهي من فتاة من كفر الزيات، لقيها ذات يوم على الجسر، وسنته يوماً واحداً، وعشرون سنة، فذهبت إليها قلبه، وحازك لها خاطره، وكان الرافاعي في صدر يباهبه برجال كفر الزيات، خفًى ومحب، ومن عيون اللمحن على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب، واجنث نفسه بمعان الشعر.
من وحي هذا الحب كان أكثر قصائد الرافاعي الغزيلة في الجزء الأول من الديوان، ومنه كان ولوعه في صدر أيامة بلقب شاعر الحسن.
وبلغ الرافاعي بعفارة بهجة إلى غايتها، واشتد، ثم عشاقه، وترتم عشاقه، بشعره وما بلغت عفارة بهجة إلى غايتها، ثم مضى كل منهما إلى طريق، وأتم الرافاعي طبع ديوانه... وكا يتبث الحب الذي هو حب الفرح في حياة إحياء النوع إلى الزواج، أو إلى الغابة الأخرى، ثم بدأ في تاريخ جديد كذاك أتى حب الرافاعي وعفارة أخرى وأتى ورقة الشعر في الجزء الأول من الديوان، ثم كان تاريخ جديد...
وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أتمنى من تمرات؟ وليته ليخيل إلى أن الرافاعي كان كلا أحس حاجة إلى الحب راح يفتش عنه (واحدة) يقول لها: تعال تحب لآن في نفس شعرى أريد أن أفهم، أو رسالة في الحب أريد أن أكتبها... ولقد سمعته مرة يقوها لإحداهن... وسمعها إحداهن مرة تقول له: متي أتاني في مجلسك مرة لتكتب عن رسالة في ورقة ورد؟
(7 - حياة الرافاعي)
على أن الراقي كان له إحساس جيب في مجالس النساء، وكان له عليه
سلطان وله علياٍ شعر وفنية. وهو في هذه المجالس فيه دعاة رائق النكرة
لأنهم السيدة الزمان في مجلسه إلا أن تخرج عن وقائها؛ وكانت هذه أدائه في
استيلاتها حين يلمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شاعرا في عين ساهرة.
إذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه ليضحك وينظم وتنتمي قصة حب.
وكان يسمى كل جميلة، شاعرة، لأنها تنحى الشعر، ونشاعر، عندما
طبقات، على مقدار ما يعنى فيها من الشاعرة وبرهف من إحساسه; ففلاح
شاعرة كاملة والمغنية كالبحيرة، وذلك بنت الرومي، ورابعة بشار بن برد،
وخانسة عبد الله عفيف أو شاعر الرعاع...
وحين يجلس في الشرفة من قبلة دمنوس، يبتسم وترفع الجيلات في رياضته
أو في حضنها، تسعى ثنياً حافلاً بأسماء الشعراء، يبدأ من مهل بن ريبة وينتهي
بفلان الذي يوقل أن يكون أمير الشعراء. بعد أن يموت كل الشعراء...
هذه نحت أذكروها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض
عناصره؛ على أنى وقد بلغت هذا الصدر من الحديث لم أبدأ القول بعد عن
حب الراقي الذي أنشأت هذا الفصل للحديث عنه.
إنه حادثة وقعت في تاريخ الراقي وسنة ثلاث وأربعون سنة فأنشأ أنه خلقا
جديداً: كانت دعابة من مثل ما نقلت فأوشكت أن تكون ملقة، فلا اختارت الله
له أن تقدم بكربيانه من دينه، ولكنها خلف في قلبه جراح يدئ، ولكنها كانت
بركة في الأدب وثروة في العربية.
من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فلفلها بكربيانه؟ ما شأنها
وصبرها؟ ...
هو وهي...

... لقد وضعك حسنًا في طرفي ووضع البدر... برى، وبعث ولا تدُ للد والد لا علمه بنور...

كلك فلت مكانك، لغة الجبال بالشائع، كأنما كان ذلك الحقائق النصر الوعر.

هلا لبد بلوق ملحميته... كوني من شئت أو مات، هنا ما بيكير في مدكر أو ما يكه في صدرك، كوني ثمانية ثم تسامحها، ولكن لا تكون ثمانية ألم.

انغمس نحن النار الذي يحض بالروح، وانتظر مظهره، الذي يلمس بالنار، ولكن دعي في جوهر وفي نورك. أوصى إلى سماك المالكة، ولكن أليسني قبل ذلك جحافين. كوني ما أردت نفسك. ولكن أشي، رفيق هذه أم إنسان...

... إن أين وجدت نفسك وقفت، لا ترى أن تسبب في طاع أشي ولا ضل...

ضلالها أكثا الحبيب...

رجل وأمراً كنا كأن دُرَّتين منتجاً تين في طينة الحقائق الأزلية وخرجنا...

من يد الله معاً: هم بروعةها ودلالها وعبرها، وهو بأحزانه وقوته وفسفته...

كانا في الحب جزرة من مادة واحد، نشر منه مانير وطلوى منه ماطيره...

على أنها كانت له في أري كلام الوحي للأنبياء، ورأى في وجهها من النور والصافي ما جعلها بين عينيه ويبين ذلك المعاني السامية كراوة المرصد السياوي؛ فكل ما في رسائله من البلاين والإشراف هو نفسها، وكل ما فيها من ظلالات الحزن هو نفسه...

لم تكن هُو؟! (1) أول حبوبه ولكنها آخر من أحبه، وعرفها وقد تغطي...

الشباك وخلف وراءه أربعين سنة ونفحة حائلة بأيام الهناة، مشترقة بذكرات...

(1) رسائل الأحزان.

(2) كذلك كان يرسم اسمها ولا يبرح به، فإذا أبدَل القارئ حرفًا يعرف فقد عرف من هُو؟!، وقد ماتت هُو؟! عذراء في سنة 1941 - بعد مات بارع سنين وضعة أشهر - وكانت خاتمتها مأساة!
الهواء والصابرة والأحلام، وكان ينتمي إلى الأدب مالداً. ينظر جامع إلى الشاب (١).

سمى إلى مجمعه يومًٍ ظاهر، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع، سعى إلى مجمعه جامع.

(...)

(١) يعتذر عن يعذب الراغب في قراءة النص. (٢) يعتذر عن يعذب الراغب في قراءة النص.
لقد كان يلمّس مثل هذا الحب من زمن يجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح، وقد وجدته، ولكن في نفسه لأني لسانه وقلبه، وأحس وشَعْرَت وتنورت نفسه الأفاق البعيدة، ولكن ليтвор بكل ذلك دمّه وتصرع عواطفه ولا يجد البينان الذي يصف نفسه وبينين عين خواطره...

 البل، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعره وبيانه، ولكنه منذ ذائق الحب أينق أنه عاجز عن أن يقول في الحب شعره وكتابة، وما هو يدنن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بينا، لأن لغة البشر أضيق من أن تستع لمعانها أو تعبر عنها، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان. 

و هى، أدبية فيلسوفة شاعرة. من ذلك كان جبه وكان جبه من خصائصها أنها لا تعجب بشيء، إنها ببدقة التعبير الشعرى ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديتها وخلالها وسرتها، صفاء اللغز وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة. وهذا هو الحب عندها...

ولا يستطيع أحدهما شيء كما يعجه الكلام المفسّن المشرق المضيء. بروح الشعر، فهو حلاة وجواهرها؛ ومالسوق حبها من دنانير غير المعاني الذهبية؛ فإنها لا تتبع صفقة يد يد، ولكن خففة قلب على قلب، (1)

وذلك ثأباً؛ وتراثاً قلبًا لقلب، وتكاففا نفسًا نفس، ومضى الحب على ستة، ونظر الراضي إليها وإلي نفسه وراح يحلم، وخيل إليه أنه يُمكن أن يكون

(1) رسائل الإحران.
أسعد ما هو لو أنها... لو أنها كانت زوجته... (1) ثم عاد إلى نفسه يؤمرها فأطرق من حيا... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهمى أطافته به حظة وما عاد... وقالت له نفسها كلاما وقال لنفسها كلاما آخر، فكأنما اكتشفته أنما لا يمكن برها من قبل بعيني العاشق، فلم تكاد القصة تبلغ نهايتها وتحلل العقدة، حتى جاءت كبراهو لتنخط الحائطة...
وراح الرافعي يوما إلى مباده. وكان في مجلسها شاعر (2) جلست إليه تحتسه وجدت: ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس، ثم عادت إلى شاعرها لنتم حديثا بدائه، وجلس الرافعي مستريا ينظر، وأطلقت به الوحدة، ونقتل عليه أن تكون لثيره أحوج ما يكون إليها، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه، وقالت له نفسه: "ما أن هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الصيف...؟ فاحمر وجهه وغلبه، ورعي إليها نظرة أو نظرتين، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب...
واستملته فيها تلبث، وكتب إليها كتاب القطيعة...!
وعاد إليه البريد برسالتها تستدر وتعتبر وتجدد الحب في أسرار ثلاثة، ولكن الرافعي حين وجد كبايته نسي حبه، وكان هو الفراق الأخير...
كان ذلك في سنة 1923.
وثبت إليه نفسه رويدة رويدة، وخلا إلى خواطره وأشعاره ليكتب رسائل الأحزان!

(1) انظر الفصل الذي عقدناه بعد بعضا، من شئونه الاجتماعية، فقد أشارنا هنالك إلى بعض وسائل ليستدرجها إلى الرضا به زوجها، على أنها وقد كانت مسيحية لبنانية الأصل، وهو المسلم السلفي المتخرج -كانت أعد عنه في عرف الحياة- ما يأمل!
(2) هو المرحوم اسماعيل صبري.
ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة، لم بلتني ووجهاً إلا مرة، في حفل أتى في طنطا؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها، ثم فز أهدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر (1) على أن الرافعي لم ينس صاحبته قط، وعاش معاشه بعد ذلك وما تبرح خاطرته لحظة؛ وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيها كانت بينه وبين فلانة، (2) ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول: هل يعود ذلك الماضي؟ إنها حافية وكبيرة، لنني لم أفعل، ليا ...! ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام في سنة 1932؛ تستشفى فأقامت هناك، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها في لون من الحب وغير قليل من الندم; فكتب إلى صديقة في دمشق لتزورها في مستشفاها (3) وتكتب إليه بخبرها; فكتب إليه (4).

"... بالصدق يا صديقي أني كنت استعدت بذاكرتي وصية فلانة، المولعة وتنوعها المزينة، عزتي حالة انتقال شديد وحزن لا حد له ... إن الموت في مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد. وإذا (1) كانت مدعوة لتخطب في المهرجان السنوي لجمعية الإحسان السورية في طنطا فالتيقا على المسرح ولكن لم تتحدث أحدهما إلى صاحبه حديثاً إلا أن لاحظ الأعين، على أن الرافعي لم يظل البقاء طويلة، وخذت أوصابه، فأثر الفرار قبل انتهاء الحفل، بل أحسه آخر الفرار قبل الإبلاء! (2) كذلك نسمها فلانة، منذ الآن، ضنا بشرها الذي لم تأتي في نشره.

(3) مستشفى العصورية.

(4) جاء هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً، وأحسمه آخر ما جاء من أنباه صاحبه.
أن تكون قانوناً، بأنك كنت سبب جنونها، فماذا كان عليك لوليت الدعوة؟ آه، لقد كنت قاسيًا وفي منتهي القسوة، فهل كان يحاول لك تعذيبها بهذا الشكل، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة؟ إن المرأة على حق حين تظن، لا، بل حين تعتقد أن الرجل لا، السكتة أولى الآن . . . .!
أما هذه الوصية التي تشير إليها الكاتبة في رسالتها، فلست أعرف ما هي، فلم تقع لى كل رسائل الكاتبة، ولست أعرف أين كان يخوضها الرافعي من مكتبه، وله ولده الدكتور محمد، يدرى، فإن كان فإن عليه حقًا للأدب أن يحفظ بما عنه من الرسائل إلى أوانها، فسأأتي يوم تكون فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته في البحث الأدبي.

قلت: إن الرافعي قطع ماينة وبين صاحبه منذ ثلاث عشرة سنة لم يلفيا فيها إلا مرة، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لاحترامها ساعياً للبريد، لأنه كان ينشرها وتشرها في نهاية ما تكون لها الصحف من رسائل أديبة، يقرأها قرأ ولا يعلقونها إلا كلاماً من الكلام في وضعها من الحديث أو المقالة أو القصة، ويقوم المرسل إليه خاصة فيفهم ماعنيه وما تشير إليه، ثم يكون الرد كذلك: حشواً من فصول القول في حديث أو مقالة أو قصة. هي رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا اكتشف الضمير، وفي أكثر من مرة والرافعي يفعل على مقالاته - كان يستملي برهة ليعمل في درج مكتبه قبلما فيخرج ورقة أو قصة إلزيم على منها كلاماً، ثم يعود إلى إملاءه من فكره، وأعرف ما يعنيه أبتسم ويبتسم، ثم يعود إلى ما كنا فيه وإلى نشر المقالة، فلأنه }

أنجد الردة في رسالة تكتبه، فلانة، فتلقها الرافعي في صيغتها كما يفض العاشق
رسالة جاتها في غلافها مع ساعي البريد من حبيب نآ... هي طريقة لم يتفاهم عليها ولكنها رضيها، وأحسنا ذلك نوعا من الكبراء الذي ربطهما قلب، والتي فرقت بينهما على وقت الحب وحروقة الوجه والجبن!

ونكت أسرى مع الرافعى مرة بالقاهرة في سنة 1935، فلما انتهينا إلى القرب من مبنى جريدة الأهرام، قال لي: "هات بنى إلى هذا الشارع، ولم نكن لنا في ذلك الشارع حاجة، ولكنني أطبعته، وانتهينا إلى مكان، فوقف الرافعى معتمدا على عصاه، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول: "إنها هنا، هذه دارها، من يدري؟ لعلها الآن خلف هذه النافذة...!"
قلت: "من؟ قال: "هه!" قلت: "و لكن النوافذ مغلقة جميع ولا بصيص من نور، فأن تكون؟ قال: "لعلها الآن في السيار. إذا كان الصباح فاغذ على مبارك لنزورها معا، إن ب حيننا إلى الماضي... لبني ... ولكن أرى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان؟" قلت: "وما يمنع؟ أحسها ستسر كثيرا بلفاك...!" قلت: "إذن في الصباح، وستكون معي، ولكن أحذر، أحذر أن تغلبك على قلبك... أو أن تسحب لحيالك أن يسح وراء عينيك... إنها فاتئة!" قلت: "لا إنها بحوز، فما حاجتي بها...؟، وضحكت مازحا، فزورى ما بين عينيه وهو يقول: "وزي بحوز إنها أوفر شبابا منك!" قلت: "قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ ثانية عشرة سنة...!"
قال: "صدقتم! اثنتي عشرة سنة...
وسمت وسمت حتى أوصلته إلى دار أخيه على شاطئ النيل عند فم الخليج، فلما كان الصباح غدوت عليه فذكرته مرعده! فابتسم ابتسامة هادئة، وهو يقول: "يا بني، إنها ليست هناك، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتي عشرة سنة، أما (هذه) فأظنني لا أعرفها... إنني أحذر على الماضي الجميل أن تتغير صورته في نفسى... تحبس أنها في نفسى...
ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاء النبي أنها سافرت إلى الشام لعلة في أعصابها...!"
شعر وفلسفة، وحب وكبر يا...

1 - إن في الرجل شبا ينقذ المرأة منه وإن ملك بمهما، وإن همته عينها من حافته وجوانبها: في الرجولة إذا كان شبهًا، وفي الصورة إذا كان شقيقًا، وفي الدم إذا كان كربًا؛ فوذلك نفيس بده، لا تعود الرأية بديه من ذلك ساعة تفجى مواطنه وبتر طائر حده من سدره، إلا عادت - وحنا - بما يحبها وبعما وميدع على طهارتها جتاح جاك من الملائكة، و２ - وسرع على نفسه يجندها أذى له على في ذواكرة مجسمة الحريق حين يتقطع مثل الفك من جهه على مدينة قائم، فيضخ جدريها مضغ الحز الباصر، ثم يسرع على حما إجها فينربع قلبي في مثل غمجرات الموت وسكونه يطارد من غيره إلى غيره، فياتها بين قنها طفجاً وباين على تطوع، وكأنه لا عمل ل إلا أن أصمع منه درجة لأهدف درجة...!

3 - «لا يمت ولا أريد الهموي ولا لازمه في، دا الحب أن فيها أورا ستون آلاف؟» وركت أن أن المستهلش قدان: ما يستطيع فوته فلا نقي إلى ياه، وما يمكن وفره فشيء فلا نقي إلى ياه، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الجيلة، وكم استطرد القدر الذي لا فقر منه، أقبل بك على ما كنت منه نفر...!

4 - إنها العج ذات لسان، وأبرع ذات فكر، واروع ذات نفس، ولولا سبب أوده ما شهدت لها بابك، ولولا كان دمي من أعدائها ما تقصيت من هذا حرف، وعلم الله ما أبضت فيها إلا هذه التي أشهد لها...!

5 - «دع أي أولك: إن لأس من أحيها... وإن هذا البنف ووجه آخر من الحب، كالحرب: ظاهر له لم نبطل له ولم ألم.»

5 - وما ينشب الدنيا أفكار أجادات من عمل النقل الإنسان إذا هو تحكم في الدين، أيتى البغي من هذا العمل بعيده إذا هو تحكم في الحب!

أتى صوته يبله إليها حيث تقم بالشام شاردة الخيال مستترة القلب (1)؟ أم ترى صوته يبله إليها تحت أطلال الترى وينتنا هذا القدير من عمر الزمان؟ كأنه من بعد وانسحاب المدى سنوات وسنوات؟ إنه ليحكي إلى أن هذا الحديث الذي أكتب عنها وعنده هو رسالة من الغيب.

(1) كتب هذا الفصل في سنة 1372 حين كانت فلائحة في الشام تستشنى، وقد نشرته مجلة الرسالة، وقتئذ، ثم نشر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب وكانت لم تزل في الشام تستشنى.
إلى هذه الحبيبة الواحدة الخفرونة، من الحبيب الذي أحبها أعنف الحب وأرقه، وما ترآى لها مع ذلك في عمره الطويل إلا الرجل القاسي الذي حطم قلبها بقصوته وكبريائه، ومات وما تلقته رسائله الأخيرة، فنذرت روحك من أقطار السياوات تنبلها على وجهها المذكرة والاستعفار،...
له لندرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة!... فهل كنت...؟ ولكن...
ولكن لا سبيل إلى مايات...!

لقد أحبت جهد الحب ومداها، حبا أصل نسبه وشرد فكره وسلبه القرر،
ولكنه حب عجيب، ليس فيه حنين الدم إلى الدم، ولكن حنين الحكمة إلى
الحكمة، وهفوة الشعر إلى الشعر، وخلوة الروح إلى الروح في مناجاة طويلة
كأنه تسبح وعبادة، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد في غراته خلقا بلا
إرادة فليس له من دنياه إلا هي، ولن ينفعه إلا مانبه له من نفسه،
والراقي رجل - كان - له ذات وكبرياء، فاين يجد من هذا الحب ذاته
وكبرياء!؟ كيفذا سألته نفسه!

وأحبها أدبية فليس وسيلة شاعرة تستطيع أن ترفع إلى سمائه وتخلق في واديه،
وهل مثل قدرتها على الطيران والتحليق في آفاق الشعر والحكمة والحيال، فا الفقيا
مرة حتى كان حديثهما فننا من الشعر وشدرات من الفلسفة وقليلا من لغة
الشاق في همس من لغة العيون... وقال لها مرة: إن الحب ياعرزي...،
قال: إن فلسفة الحب...
قال: بل أعتي حقية الحب ومعناه...
قالت: دع عدنك ياحببي. إن أحلام الحب هي شيء غير الحب، أفانت تريد...؟
فاختتخت شفتاه وأطرقت، وراح يسأل نفسه: "ما الحب؟ وما فلسفة الحب؟
يا صديقة النيل إن كان الحب شيئًا غير الذي في نفسى!
وتختفت ذهور في ضيقها فابتسمت وهي تقول: "أنا ما أحبك جعل
كل فكرك وروحها ونفسها شاعرة، وإنك بذلك ملء نفسى وملل قلبي؛ فلا
تفلس في طبع أني وإلا ضل صلاتك أنها الحبيب...!"
قال: "فهل رأيت ياحببي إلا فكرة تغطي بأداك، وروحها ترفع
حواليك، ونفسا تغطي الشعر والحكمة من وحي عينك...؟
قالت: "دع عدنك ذكر عيني ياحببي؛ إن الحب ليس هناك، إن الحب...
قال: "لا تتحذرين من الحب، يخيل إلي أن أعرفه لأنني أجد مسحة على قلبي
كذع الحمر، ولكن، حسن، وكذكك أنا..."
وقالت له نفسه: "فهل يا إصاحي تجري في يدنا: إن الشعر والحكمة
والفلسفة لا تدل الحب، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة؟ فلن
تجد بذلك منها الحب؟ إن الحب من لغة القلب، أما هذه...?
وكان يجهاها أديبة فلسوفة شاعرة، فعادا يداعبنها وبينها أنها فلسوفة شاعرة!"
رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر، لأن عطر قلبيا ينفذ إلى قلب من الهواء.

إذا تنفست أمامها فقد عشقتها...

أما أنت فهو أسولب في الجمال على حدة: فإذا لقيتها لاتتبت أن ترى عينيك
تбежان في عينيها عن سر هذا الأسولب البديع، فلا تعثر فيهما بالسر ولكن
بالحب وتنظر نظرة الفوال المدروٍّ، إنه جميل طريف فلا يزال مستوفرا
يتوجس في كل حركة صائدا يطلبه...

والرافعي رجل كان على دينه وخلقه ومرأوته ضعيف السلطان على نفسه
إذا كان يجاز إمراة: فما هو إلا أن يرى واحدة لها همزة في النساء حتى يتحرك
دمه وتنفعل أعصابه؟ وما كان - رحمه الله - يرى في شدة الإحساس بالرجلة
وفي سرعة الاستجابة العصبة لمرأة إلا أنها أحد كبار النبوع؟ أو أحد
طرفي النبوع كما كان يقول: فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يبه أثرها
في نفسه إلا أن يسرع في الفرار. وكثيرا ما كان يقول: "الفرار الفرار؛ إنه
الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوعة الشيطان وغبة الهوى...!
وقالت له نفسه: ما أنت وهذا الحب الذي سلك الإرادة وغلبك على الكبرياء
ويبشك أن يهوي بك من وسوعة النفس وفنتنة الهوى إلى أرذال البشرية...!
فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد...

وكان يحبها ليجد في حبا ينبوع الشعر، فما وجود الحب وحده بل وجود
الحب والآلام وثورة النفس وقلق الحياة: ووجد في كل أولئك نابيع من الشعر
والحكمة تفيض بها نفسه وينفع بها جانبه ويضيء بها فكره: وكان آخر جبه

(1) رسائل الأحزان.
الألم، وكانت آلامه أول فجعة من شرار الشعر والحكيمة...
وقالت له نفسه: ها أنت ذا قد بلغت من الحب ما كنت ترجع، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لتخف كريم...!

وهي فتنة ذات جمال وفتنة، وها لسان وبيان، وما يمنعها دينها ولا شيء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتنًا لا يطولفها إلا هذا المجلس المغطر بعطر الشعر وعطر المرأة الجيلة؛ أفترمهم يجمعون في دارها كل أسبوع لنتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث...
والرافع غيروس كطر الأثرة، لابرضه إلا أن يكون على رأس الجامعه وقالت له نفسه: أنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوي وحبيبا...؟

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله: من أجل أن له ذاتا وكبرى، وما يريد أن تفقذ ذاته وكبرياه في آمرة؛ ومن أجل أنها فلسوفة وشاعرة، وما تجمع الفلسفة والحب في قلب حواء؛ ومن أجل أنها أثنا وأنه رجل له دين ومرومة وزوجة ودار؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغ منها حين وجد الألم في حبها فوجد ينبع الشعر الذي كان يفتقد؛ ومن أجل أنه الرافعي الغيروس الطنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس...

وختيلى إلى حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة 1924 أنه يغضها، وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس عاما ما حال له قد انتهى من تاريخه وطراه.
القدر في مدرجة الفناء، وأن نسما كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله... وأحس في نفسه حديثا طويلا يريد أن يُلقي به، وشعر كان في قلبه ناراً تلقيها، واصطحبت في نفسه ذكرى وذكريات، وحيل إلى أنه يكاف يخشى، فصاحب من كل ذلك معظماً مختلا يقول: أينها الحبوبة، أينها أحبها... أينها أحبها أحبها!...

ليت شعرى، أكان الرافعى يُغى ما يقول؟ أكان على يقين حين زعم أنه يغضبها؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكيماً من كبريات العائمة فسماه البغض وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبق فيه شيء على حققته؟

كلاً، ما أحبض الرافعى صاحبته يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وقته، وما هذه الثورة التي أهلته كتابه، رسائل الأحران، والإجابات، السباب الأخر، إلا لو من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان، فلما ثبت إليه نفسه نزا به الحنين إلى الماضي ولكن كبيراه وقفت في سبيله، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل ينزي بالشوق والحنين!...

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل، مدعوّة إلى حفلة خيرية لتخطب، وكان الرافعى مدعوّاً مثل مدعوته له. وعلى غفلة آتّقت العيون: فدار رأس الرافعى وذهب به: وعاد الزمان القهقرى لينشر ماضيه على عينيه، وزادت نفسه زوالاً شديداً حتى أوصيك أن تنشاه غاشية، وكما أن يتحدى فوق كبرياء بين قلبه وسلاته: وخشي أنت، يفيض ففض عن كرسيه مطلقًا إلى الباب، ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم، فأفضى إليه بذات صدره ووسع صاحبته بعين تختلط، ومضى...
وانتهى الاحتفال، ووقفت هى، تدر عينيها في المكان فما استقترا على شيء؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول: أين الرافعى؟ فما وجدت جواباً... وكان الرافعى وقفت جالساً إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب... وكان آخر لقاء....

***

وقيت الرافعى في خريف سنة 1932، قسراً، في الحديث عن الحب، فكشف لي عن صدره في عبارات موحمة وكلمات ترتضى، ثم قال: «... وإن صوتا ليهمت في النفس أن الماضي سعيد، وأنى أستألهما، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة: في يناير سنة 1944...»، وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال:

نعم، بعد أربعة عشر شهرا س يكون هذا اللقاء... إن قلي يحس، بل إنى لموقن... بعد أربعة عشر شهرا، في تمام السنة العاشرة منذ فارقها، مضباً، سلتق ثانية، ويعود ذلك الماضي الجميل، إنها تنتظر، وإنى أنظر...!، وظل على هذا البقين أشهرًا وهو يحب الأيام والأسابيع كأنها منها على ميعاد...!

ومضت السنوات العشر، ومضى أربعون شهراً بعدها، وما تحقق أمله
في اللقاء، حتى لقي الله...!

***

هذا هو الرافعى العاشق، جلّو صورته كما عرفته؛ أما هي، أما صاحبته التي كان من تاريخه معها ما كان، فهل كانت تحبه؟ وما كان هذا الحب؟ وماذا كانت غايته؟

(8- حياة الرافعى)
هي وهو...؟

أذكر إذا التقينا وليس بينا شابة فلنسنا مع الجالينين لم تقل شيئا في أسالب
الحديث غير أنت قلنا ما شاننا بالأسلوب الخاص بانتين فيما بين قلبهما؟
...
وشعرنا أول القاء بنا لا يكون مثله إلا في التلاق بعدة فراق طويل، كأن
في كلينا قلنا ينظر قلبا من زمن بعيد؟
...
ولم نست扩 الخين تسكنعل بالعين حتى أخذت كلناها أسلحتها... وأثبت القاء
بذلك أن أنت قلنا...؟
وقد ل لبنت... أنا... وقت لك بني: أنا...، وتكافنا بأن تكتمنا؟
وتارفنا بأحرننا كأن كلينا مشتكى نه أن نضيع بنيها؟
ووجدت فسحتن الفكرية النبيلة التي تقع الحزن في نفس من بياها؟ فإذا هو
إجابة؟: فإذا هو إكرار: فإذا هو حب؟
وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظرن إليك؟
وبعت أرك تشعر بما حولك شعورا مضايقة كان فيه زيادة لم ترد؟
وكان الجو جو قلنا...
وتكدفتنا مرة ثانية بأن تكتمنا مرة ثانية...

**

بتذا أصف مكانا للحب كأنا صرة بسر الحلو دذا الوقت فيه لابنه
قصتنا من العمر بل زيادة عليه؟، وكانت ياحيتي كل دقيقة وقانية في جملتك الساحر
كأنها بعض الفكرة والحسن لابض الزمان والاسكان...
...
وكرت وما أشر من سحري إلا أن بذاء سر وضحى في ساعة من غير
الذين وحصري فيه وحدك...

وهاجتين من يقتات وتحملت على من حذري...
وخليتي وعينك، وخليتي وما كتب على...
واعمت روعي لندمك، فما كنت تتكلمن ولا تحكمن ولا تضحكن وكشرت...
ولكن في داخلك نسي...
...
وكنا نتكلم ولكن أسفنا نعناق أمامنا، ويلمع بعضها بعض من حيث لا أبلاها
لإ عيني وعينك...

وثررت النفاح في السكان بأفراح الفكر، واستشفاء السرور على جالك
بividad كلون الرحيم: النصرة هو عطرنا للنظر...
...
وقلت لم يذهنك: أنا... وقت لك بني: أنا...
إلى لأعرفه عرفاني بنفسه، فسأ بي شك فيها أكتب عن حبه؛ ولقد ختمت
نفسه زمناً فإنني لاستمع نجواه وأقرأ أسره وأعرف ذات صدره، فأصف من
حبه إلا مستيقناً كأنما أقبل عن لوح مسطور في قوايدي، أو أثبت من حادثة
في تاريخ أعياني مائدة في نفسي بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عن
منها شيء. ولولا تقليد الناس وآداب الجاعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث
وجلضته على القروء في بياض سافر كإشراق الضحى، ولكن... ولكنها هي...
أما هي فما في يد شئ من خبرها إلا ما أحذتني به الرافية أو حذرتني رسائلها،
فما أحدث عن حبه إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد، أو حققاً يضع كلمة
إلى الكلمة، ويوازي بين رسالة ورسالة، ليخرج منهما معنى ليس في يده من
حقيقة شيء إلا ما يهدى الفكر وصواب الرأي وملاسات الخادعة.
ولكنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم،
وحسى هذا مقدمات إلى النتيجة، وما يعسر على من يمسك طرف الخط أن
يصل إلى آخره.

لقد التقية وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب، فكانت إلا نظرة وجواباً
حتى ارتباطاً قلباً إلى قلب، وكان الأدب رباطاً بينهما أول ماكان، ثم استجرها
الحديث إلى فنون الكلام، فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه،
فكان عطفاً وإشفاقاً، ثم تحدثت عن أحلامها وتحدثت عن أحلامه. فكان
الحب؛ ثم... ثم كانت القطاعة حين بلغ الحب غايته ونال مناه من نفسها ومن
نفسه، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتدوأ سعادة الحب وينقفاً من
ثرائه... وضرب الدهر من ضرباته إذا هو تحت الزجاج، وإذا هي في
لم تكن هي، تقصد الحب ولا تعمده ولا كان هو، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام، لقيت الأديب الذي تعجب به ويصفها بيانه، فأخبرته (عمليًّا جميلًا) كما تسميه في بعض رسائلها...

وكان سعيه إليها يلمع الشعر والحكمة، والشعر والحكمة هما رابطتها إليها وفانتها به؛ فصنعت له لفنتها وتزيده شرا وحكمة، ثم صنعت لتزيده، ثم صنعت لتزيدهم، ثم صنعت لتزيدهن، ولهنما وجدت به نفسها، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان؛ فأخبرته (أستاذها ومرشدها) لنأوه أثريها إليها ما عبر دونه الآخرون، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلها البيان، هكذا تقول في بعض رسائلها...

وهي فتاة لم يسألها الدهر ولم تز مذكوبًا غرضاً لسهام الأيام، تنوُّها الأيام مرتا كل جانب، وله نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتنجع لها من كل قلبه، وإن حالتها لكثيراً من الأصدقاء، يدعون إليها وتخطبون ودها، ولكنها تزيد الصديق الذي يستمع إلى شكوها من الأيام تستطيع إليه أكثر منم ما تزيد الصديق الذي لا تستمع إليه إلا في عواقب الزلفي والتحب والصمت، الهوى والعرب، وتحدث إليها الرافع، وتتحدى إليه، وقصة عليه من أحزانها، فاستلقت عيابه وأطرافها، ووضعها بيداً على يده وهي تقول: 

سأدعوك يا شيخ، وأمي مثبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر، وسأدعوك...
قوى وعشيري : أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين، وسأدعوك أخى وصديقى، أنا التي لا أخ لولا صديقى وسأتطمح على ضعفى واحتياجى إلى المعونة أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد.
وأصبحت لك أفتقرى إلى العطف والحنان، ثم أبكي أمامك وأذهب لا ترى ...، (1).
أرجبه (صديقى) تفعلي إليه إذا ضاقت بالآلام وحزنتها الحموم ...

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا النجوم والعروس، ولم تعرف من الدنيا إلا الجلد الصارم؛ ولم يكن لها من عمل غير الاستغرق في الفكر أو الاستغرق في الفن؛ وإنها لآتى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ... والراقصة يجلب بك - لا يحب من هم، في يدع المراح والذبابة وإن الدنيا لتصطرح حالها وإن كان القضاء منه برصد يراها وتوقعها؛ وإنها ليهل في أجدى الجلد وأخرج الساعات كزئله في أصين حالاته وأسعد أيامه؛ فما يجالسه ذو هم إلا سرّى عنه كأنما يسح قلبه في منحو أحزانه ...
وتحدث إليها وتحدثت إليه، فأحبه (الرفيق الأنسى) الذي تسيطر عليها روحه فينزعها من دنهاها العابسة إلى دنها ...

وستمتت إلى صوته يتحدث، فكان له في نفسها رنين؛ ونظرت إلى سجنته ...

(1) ما بين القويسين، من عبارتها في بعض رسائلها، وقد ضمتها بعض ما يتداوله القراء من كتبه، ونشرها الراقص في بعض فصول كتابه، أوراق الورد.
الفكرية النبيلة فرأى فيها مرأة نفس صافية لا تعرف الحداثة والتزوير، ولحنها يبتسم، فذبحها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفًا على شفاه الرجال؛ ونظر إليها ونظرت إليه، وقال وقفت، وتحطت قلب إلى قلب، ونائجة في صمتّ وتركها وهي في نفسها، ومضى وهو في مجلسها؛ وأحسنت في نفسها إحساسًا ليس لها به عهد فتناولت قلها لتكبّ له (1) :
» أستعيد ذكرى مشكلة في خلوتي لسمع منك حكاية غمومك وأطاعك وأمالك، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد وسأتسمع إلى جميع الأصوات على أعر فها على لجع صوتك، وأشرح جميع الأفكار وأمتدّ الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لأرائك وأفكراك ... وسأبسم في المرأة إبتسامتك.

في حضورك سأتخول عنك إلى نفسك لافكر فيك، وفي غيابك سأتخول عن الآخرين إليك لافكر فيك ...
» أختِلَ ألفٌ لفِي مرة كيف أنت تطرش، وكيف تشتاق، وكيف تحرس، وكيف تنغلب على عادي الانفعال روزانة وشهامة تستسلم للسيلة وحوارية إلى الانفعال النبيل ... 
وفي أعماق نفسك تسعد الشكر لك بحوراً لا ينحبس إلى ما تجزو دونه الآخرون. أتعلم ذلك، أنت الذي لا تعلم! أتعلم ذلك، أنا الذي لا أريد أن تعلم ...

(1) من الرسالة التي أشارنا إليها في الصفحة السابقة.
الشعر والبيان، ثم إجلالاً للصديق الذي وجدت مفرعها إليه، ثم انعطافاً إلى الرفيق الإنسان الذي كشف لها عن أفراغ الحياة، ثم... ثم حا يتأثر بنفسها ويسطر عليها في غيبه ومشهدها فأنا لها عمل إلا أن تفكر فيه... وأصولها الهوية وأصلها؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع خلا لو أنها منعته بعض ما تنتهها، وخيل إليه أنه يستطيع؛ وقال له: "أنا لا أشفق على آلامك؟ وهل تراي أكره لك النبوغ والعقرية؟" وقال له كبراً وسيرته وظف أه وا ما قالت صاحبه: ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت؛ وما عرف إلا من بعد أنه يجبها حباً لا يطيب أن ينفع أكثر مما تستع له نفس الإنسان؛ وما عرف إلا من بعد أنهما كانت تتفاجى لتطبيه أنت يكون في الحب أجرًا مما كان... وعرف وعرف... ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكرر؛ وظل وظف وظف البعيد على هوى وحين... حتى جاء الموت في العقدة التي استعصت على الأحياء...
تعقيب (1)

...هذه قصة الرافعي وفلانة، كما رواها لي، وكا يعرفها كثير من خاصته. وإن لاعلم أن كثيراً من يعرفونها و يعرفونا سيدتيون إذ يقررون قصة هذا الحب، و سيتناولونها بالرية والشك، وسيقول قالئ، و سيتدعى مدع، وسيحاولون أن يفسف ويعل، ولا على من كل أولئك ما دمت أروي القصة إلى أعرافها، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير أي تأثير يرد إليه أكثر أمه من بعد. وحسب أن كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتب الثلاثة: رسائل الأحزان، والسباح الأحمر، وأوراق الورد؛ وحسب أن فتحت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلاومن العالم جديداً.

على أن مسئول أن أرئى نفسى أمام قدم الحق، فأعرض هنا بأن مارويت من هذه القصة كان مصدره الرافعي نفسه؛ مما حدثني به وحدث أخاهة، أو ما جاء في رسائل أخاهه إليه من كانوا يعرفون قصته، وما في شك فيها روى من هذا الحديث، فما جزية عليه الكذب، ولا كان هناك ما يدعو إلى الاعتراف والتزديد كي يزعم من يزعم؛ ولكنها حقيقة أثبتها للتاريخ، لعل بحثًا مدققاً يوفق في غد إلى إثبات ما أخير اليوم عن التعليل له.

على أن الرافعي قد أقر أن رسالة أو رسالتين بخط «فلانة» إليه؛ وهما وإن

(1) نشرنا هذه الفصول في مجلة الرالة، قبل أن نذيعها على القراء في كتاب، وقد تناولها بعض القراء كثيرة من الشك وغير قليل من الدهشة، وكتب أطباء في مصر والشام، وبدعوا بحاجون التشكيك في بعض ما أدعت من الحقائق. ونحاولون التعليل لها وتحدث إلى آخرون معقبين أو مستنسرين، فلهؤلاء، وأولئك جنبًا كتب هذا التعقيب.
لم تدلا دلالة صريحة على حقيقة ما روي من قصة هذا الحب، لأنفسهم كذلك، بل لعلما أقرب إلى الإثبات منها إلى النبي، والخدر طبعة المرأة. ثم إن الرافاعي لم يُخْصِّى وحيدًا رواية هذه الحادثة. إن عشرات من الأدباء في مصر قد سمعوها منه، ومنهم من يعرف دلالة معرفة الرأي والنظر، ومنهم من كان يخشى مجلسًا لا يتخفف عنه مرة، ومنهم من كان الرافاعي يقصد بالحديث إليهم أن يكون بريدة بينهما ينقل إليها حديثه شفهًا. وفي الناس بَرِّدُ إن لم تزد على ما سمعت من حديث الحب لم تنصمه شيخًا! فلو أن الرافاعي كان يترُبِّى فيها رؤي لولا العصباني من حديث هذا الحب لحني مقتة أمره. وإن فلانة، يُهمَّ ذات جاه وسلطان.

وَتَمَّ الْبِرَّاء أُخُذِّلَا لَا يَنَالُوهُ الشُّكُّ: هِي رَسَالة مِن رُسَائِلُها نُقْلَتُها الرافاعي من كتاب مَن كُتُبُها المَعْروِفَة لَا أُعْمِّدهَا إِلَى كِتَابِ أُوْرَاقُ الْوَرَدٍ (1); يُعَمِّدُ أَنَّهَا رَسَالة مِنْهَا إِلَيْهِ فِي كِتَابٍ: جَوَابًا عَلَى رَسَالة بعَضَادَهَا إِلَيْهَا - وَكَانَتْ هذَهُ بعَضَاءٌ وَسَائِلُهَا فِي الرَّسَالة كَأَرْوَى مِنْ قِبَلَ (2); وأُوْرَاقُ الْوَرَد مُعْرَوِفٌ مُشْهُورٌ، وكتابُها مُعْرَوِفٌ مشهورًا كذلك! وَمَا لَا يَحْتَلِلُ الشُّكُّ أَن تَكُنَّ دُلْلَة، لَمْ تَقْرَأْ هُذَهُ الرَّسَالة فِي كِتَابِ الرَّافِعِي، ولم يَسِيرُها أَحْدٌ إِلَيْهَا، وأَبَدَّ مَنْ فِي الْشُّكِّ أَن تَكُنَّ قَرْأَتُهَا، وَفَهَّمُتْ وَسِكْتَ; وَلا شَيْءٌ. بَعْدَ أَنْ لَا يَكُنَّ بَيْنَهَا شَيْءٌ. يُؤَيِّدُ مَارَوَاهُ الرَّافِعِي مِن قِصَّة هَذَا الحُبِّ...!

(1) أُوْرَاقُ الْوَرَد ص 113 - 150. وَقَرَأَ فِرْقَاتُ مِنْهَا فِي هذَا الكِتَابِ قد أَهْوَنَا إِلَى مَوْضُوعَهَا ص 116 - 118. (2) ص 104 - 118 من هذا الكتاب.
على أن اعتراضات ثلاثة توجهت إلى ما رويت من هذه القصة، لابد من التنبيه إلى أنها: أما أحدثها في الأستاذ الأديب جورج إبراهيم، فهو يذكر أن أستند إلى هذه الرواية، ويروى لي أنه صحب الرافعي في أول زيارته لفلانة، وشهد ما كان من تأثر الرافعي وانفعاله وجهبته، ولكن إلى ذلك يذكر أن يكون بين الرافعي وفلانة صلة بعد هذه الزورة، ويصبح ما روتيه عن الرافعي - وكان من سامعه - بأنه حب من طرف واحد، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فضحت للرافعي ما شبهه: فما يعجبه هو صورة ما معنى لاصورة ما كان في الحقيقة! 

فالأستاذ جورج إبراهيم لم يكتب ولكنه أخطأ التقدير والنظر؛ وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعي وفلانة بعد الزورة الأولى لا ينفي أن الصلة كانت حقيقة ولم يعلم بها، فتحدثه من نعم لا ينفي شيئا ولا يثبتها، ويبيق بعد ذلك ما يُستنبط من الرأي على هامش القصة. وقرب ما رويفه الأستاذ جورج، ما تستنبطه جريدة المكتروف في بيروت. في حديث تناولت به بعض مانشرنا من قصة حب الرافعي.

وتعميق ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف، محور المكتروف، على مارويناه، قال:

"لقد سمعت هذه القصة من الرافعي كما رويتها، فما أشك في صحة ما تكتب، ولكن أسأل: هل كانت فلانة تبادل الرافعي الحب؟..."
هنا خبر يدعو إلى هذا السؤال:
قلت: وهذه رواية جيدة بأن تذكر وأمدة من ذكرها إلى الاستاذ صروف. على أنها لا تدل على شيء، في هذا اللحظ أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها في سنة 1934 أن يحجب إليها الرافع؟ ماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين؟
أيكون هاتين الرسلتين اللتين يتحدث عنهما الاستاذ صروف - صلة بما كان في نفس الرافع من يقين بأنه سوف يتلقى فلانة ليصل ما انقطع من حوال الود بعد عشر سنين من يوم القطعة؟
أعى: هل حاول الرافع - بعد عشر سنين من القطعة - أن يعده ما كان
بهاتين الرسلتين فلم يصادف قلياً يستجيب لدعائه؟
على أن هذا الخبر - أيضاً - لا ينبغي شيئاً ولا يثبته، ولكنه يفتح باباً إلى الاستباط والرأى.
ولكن لما لا شك فيه أن الرافع لم يكن يعلم شيئاً عن وقع هاتين الرسلتين

(1) أقرأ ص 113 من هذا الكتاب.
في نفس صاحبه: ولا أحسبها صنعت شيئا يدل على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين، وإلا لما ظل يتعلق بالأمل في لقائها إلى شتاء 1935، وكنت معه لما هم بزيارتها (1).

ومنه اعتراض ثالث يتعرضه الدكتور زي مبارك. وما كان لي أن أنبه هنا لولا أن أنبه هو في كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب (2)، ولولا أن أشار إليه في مقالاته نشرها في مصر وفي العراق وفي بيروت.
والدكتور زي مبارك أدب مشهور، ولكنه آفة - ولكل آفة - أنه يدس أمره فيما يعبه وما لا يعبه: وهو قد شاء أن يعبر نفسه في هذه القصة التي لا يهم منها إلا أن يعلن للناس - والإعلان عن نفسه بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى فلانة، جنبًا لجنب في الجامعة المصرية بضع سنين!
وليس يهمنا أن يجلس الدكتور زي مبارك جنبًا إلى فلانة أو إلى نساء الأرض جميعًا - كما يريد أن يتعلم عنه الناس في أكثر ما يكتب - ولكنه يزعم أن ما كتبه عما كان بين الرافع وفلانة ليس من الحقيقة في شيء، لأنه كان يجلس مع فلانة جنبًا إلى جنب في الجامعة بضع سنين فلم تحدثه يوما أن جنبًا كان بينها وبين الرافعي ....!!!
فن شاء أن يقرأ أملا للحجة الواضحية في أدب الدكتور زي مبارك، فليقرأ هذه الحجة؟ على شرط أن يكون مؤمنا بأن الدكتور زي مبارك لا يجلس

(1) أذكر ص 106 - 107 من هذا الكتاب.
(2) كتاب: «وحي بغداد» للدكتور زي مبارك.
إلى (فلانات) ولا يجلس إليه (فلانات) إلا ليحذره عما كان له من جولات في مبادئ الحب يسأله الرأى والمعونة ولrido القارئ بعد ذلك حديث الدكتور عن الفرء والعراة، وعن (الأديب العريان...) الذي روى هذه القصة.
وعتق الله عن أهل الأدب!

هذا كل ما تلقىته من اعتراض المعتريضين من أهل الأدب أو من أهل الدعوى؟ وعلى أي الوجه انتهى رأى الأدباء في تحقيق هذه القصة، فإن ما لاشك فيه أن الرافعي كان يجب (فلانة)، وهذا حسب؟ فما يعني من هذا التاريخ إلا إثبات المؤثرات التي كانت تعمل في نفس الرافعي فتهيمه الشعر والبيان؟ أما هوي وما كان منها وحقيقة عواطفها، فإني يتصل بتأريخها هي بعد عمر مديد! ونعود إلى تتمة القصة بالحديث عن كتب الرافعي في فلسفة الجمال والحب؟
رسائل الأحزان

هي رسائل الأحزان، لا لأنها من الأحزان ذات، ولكن لأنها إلى الأحزان، ثم لأنها من لسان كان صاحبها عن قريب كان حريباً، ثم لأن هذا النصي نزل كان يتبوع في الكلية، وكان كلها ممتعاً إلى قبر ... !

خرج الرافع عن مجلس صاحبته مفجراً على ما رويت: في نفسه ثورة كوج، وفي أعره دم يفور. وفي رأسه مرجل ينطلب: وكتب إليها كتاب القدمية، وأرسل به ساعه اليريد، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيها كتب شفاء نفسه، ولا بدلاً لشفته، ولا راحة في أعصابه: وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه: وافتد أحساه فما وجد منهم أحداً بيته أحزانه، ويفضى إليه بذرت صدره ويتبع بين يديه أحلامه. لقد شغله الحب عن أعصابه عامة بحاله لا يبقاه ولا يبقوه ولا يتحدث إلى آله، ولا يتحدثون: فلما عاد إليه كان بينه وبينهم من البعدي مابين شرق عام ومشربه، بلبله وأصبه وتاريخه، وحوارته: وقبلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه، فترفع إلى قلبه يشكو إليه ويسمع إلى شكاته، فكتب الرسالة الأولى من "رسائل الأحزان" إلى صديقه الذي خصه بسه ... إلى نفسه ...

وتردف رسائله من بعد مسحية ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره، وما كان بينه وبين صاحبه، في أساليب فيه كبيراً المتكرير، وлуحة العاشق، ومراةلتغائر الموتور، و ... وذله الحب المستقرر يستنجد فيأتيه بعض العطف والرحا والحنان.
بدأ الرافعي كتابة رسائل الأحزان في يناير سنة 1924، وانتهى منه في مساء 17 من فبراير سنة 1924.

يخاطب الرافعي نفسه في رسائل الأحزان على أسلوب التجريد، فهو ينوه أنها رسائل صديق بعث بها إليه، فتراه يوجه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبئس والشكوى؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نفاذ الرسائل يديه عليها أسلوبًا من الحديث في رسالته هو وماهناك صديق ولا رسول، إلا الرافعي ورسالته، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه.

أو قل: إن الرافعي في هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيءًا، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبه ثم نشرها كتبًا تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه: فهي رسالته إليها على أسلوب من كبرياء الحب، تشفي ذات نفسه ولا تزال من كبرياته.

وفي بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين مأرب إعلانه، وتقف النفس ووقفتها الألثانية بين نداء القلب وكبرياء الخلق، يعني العاشق لو كان له ملء القضاء ليبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيته من غير أن يعترف بأنه رسول... وتكون أبلغ الرسائل عنه أن يكتب إلى حبيته: «إحبك» يعني: أنا أحبك، وتحذته إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من جملها.

وعبر هذا الأسلوب تحدث الرافعي عن نفسه بضمير الغائب في رسائل الأحزان.
هـ، أنا...، هذا الضمير الذي لا يحدث به متحدث إلا سمعت في زمرة معنى شموخ الأنف، وصغر الهد، وكبرياء الخلق، لا يؤدى في لغة الحب إلا معنى من التذكير والشكور والضراة، فا تسمع منه العاشق المفتوح إلا في معنى البند المحدود للاستجابة، وما تجرمه في أبلغ عبارات وأرفع بيوان وأكبر كبرياء إلا في معنى: "أنا محروم...!"

يا عجبًا للحب! كل شيء فيه يحول عن حقيقة حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام...!

وقد كن الرافعي يقول في رسائل الأحزان: "هو، ويعني: "أنا...، لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياء في لغة الحب...!

إني أحسب الرافعي لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتابًا يقرأه الناس، ولكن لتقرأه هي، وهوي كل حسبه من القراء، ففي ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء، ففي قصة بها اليوم والشهر والسنة، وفيها الزمان والمكان والحادة، بل أرسلها خواطر مطلقه لا يعنيه أن يقرأها قارئاً فيجد فيها اللغة والمناغع، أو يجد فيها الملزل وحيرة الفكر وضرورة الخاطر، ولم يكتبها - كما يزعم - رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها في فيها من فنون الرسائل لم يؤثر مثله فيها نقل علما من ترات الكتاب العرب، ليحندهي المؤذنون وينسجوا على مواناته؛ بل هي رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين في قصة لم يذكرها في كتابه ولم ينشر من خبرها.

وذلك نرى رسائل الأحزان، عند أكثر قراء العربية شيئا من البيان.
المصنوع تكلفة كأنه يحاول به أن يستحدث فنًا في العربية لم يوفق إلى تجويده على أن كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع، ولكنه بقي قصه لم تنشر معه، فاجاء كأن كل النار كتابة من عيون الكتب في تقي منه إلا على الهمش والتعليق، وصلب الكتاب رماد في بقايا النار...

فإن شاء أن يقرأ رسائل الأوزان فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأها، فسيجد فيه عديد شيا كأن يفتحده فلا يجده، والسوف يوقن يكذف أن الرافعى أنشأ في العربية أديبا يستحق الجلود...

قلت: إن الرافعى أنشأ رسائل الأوزان ليكون رسالة إلها هي، فهذا كان أول أمره فيها من رسائل التي قلت عنها فيما سبق إنها كأنما يبادلها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو يكشف الضمير، ومن غير أن يسمع بينهما حامل البريد؛ وقد ردت صاحبه ردًا على رسالته هذه برسالة مثلها بعتها إليه مع بنات الصحف والجلالات... ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب...

وسيأتي يوم يدرس فيه أدب فنانية صاحبة الرافعى، وسيجد الباحثون يعندون لونًا لذيذا من البحث إذ يعبرون عن رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها؛ وليس بعيدًا أن يقرأ الأدباء يعند كتبه جدًا بعنوان «رسائلها ورسالتها» تاريدها ورمانها وأسبابها، مقتبسة مما نشر ونشرت في الصحف والجلالات من مقالات وأفكاره بين سنتين 1934 و1936.

أيها الباحث الذي سيأتي أوانه، ابحث عن حكايته الداخلي وفصول الكلام
(9 - حياة الرافعى)
في مقالاتها ومقالاته، وأقرن تاريخاً إلى تاريخ وسيا بسب، لتنشر لنا رسالتها ورسائله في كتاب...

أراني لم أتحدث عن رسائل الأحزان، كما يتحدث كاتب من الكتاب عن كتاب من الكتب، فليس هذا إلى، وإنما قدمت وسائل القول لمن يريد أن يقول. وأحسب أن كلمة سياق عن رسائل الأحزان من بعد غير ما كان يقال، وأعتقد أن الدكتور الشجاع لرسائله حين لن يكز مقالاته التي قالتها فيه من قبل، يوم أشهد الله عليه أن لم يفهم منه حرفاً. وأعتقد أن الدكتور منصور، فيكتصر على قوله فيه من قبل: "إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوروبا، لأنه سيجد مجالاً للقول في غير معانيه وبيانه.

ولكن في رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمت من أشيائه، ذلك لأن الرافعى رحمه الله كان ولعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده.

وذلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب. سيجد الباحث في رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفي هامش بعض الصفحات من الكتاب كلاماً وشعراً لا يتساوق مع القصة التي وردت. إلا أن الرافعى كان يطلب طبيعته الفنية في الكتابة أجهاز كسائر فئاته المنتشرة إلى ما لا يبرد أن يقول. لبنت معنى ينبغي أن يفوهه، أو ليذكر حادثه يراها بالحادثة التي يرويها أشبه، أو لا تعبيراً جميلاً وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها.
وساعد في بعض الرسائل حديث إذ فضلا عن لبنان، وأيام فيه، وما عرف الرافعي ساحبته إلا في مصر وإن كان مولدها هناك. فليذكر من يعلم أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حباثها، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جزيلان. وكان بعض من أحدهم قبلنها فيها أدبية يعرفها في لبنان، وهي اسماء ساحبتنا هذه. وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في أوراق الورد، وهي التي أشارت إلى أبلغها كتابه حديث القمر، على أن عمر الحب لم يفل بينهما، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة السامية. والزوال - فما زال - فما زال. في رسائل الأحزان من حديث لبنان، وذكر أيام هناك، فهو بقية من ذكري صاحة حديث القمر. أقفه في رسائله حرصا عليه وخلا به على الجواب.


لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه عاش حديثا في فكره. ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب، على أن قارئه يقرره فما يعرف هو رسالة عاشقة أتجه عليه الحب. أم زهرة مغصوبة تلده البغس قلبها. والحق أن الرافعي أنشه وهو من الحب في عمرة بلغته بين الغزي وحق أن يخيل أنه قادر على أن يغض من كان يحبه، بما يرد عليه كبرياء وينتمى له؛ ففعل إلا أن أعلن حبه في أساليب صارخ عنíf كما تبدو الأم على وليدها في عفونات الحب تفصيه، وإذن ترقب أن تقبله، أو كما تقوس ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عفون وما بها إلا الترفق والحنان! وطبع الرافعي كتابه وأسفحت إلى صاحبه، فكتب إليه. وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر السحاب الأحمر.
السحب الأحمر

لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول الآخر: يا أنا . . . ومن هذه الناحية كان النبي محمد صل الله عليه وسلم يقع - أعذب ما في المصمومة، إذ هو يفتق رؤوين على تحليل أحوالهما المترجأ، وأكبر خصائص في عالم النفس، معاذ بن بني آدم: 

«إذا ما كانت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحجار فأثارت نفسه بعد كُناها وردّها من الغيظ والحنق إلى أن يقول: يا هذه لا أدرى ما تقولين؟ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا انسخت كان كلامها في حاجة إلى أن ينسل بالماء والصابون وهبات . . .! ويقول: يجب على المدرس حين تعطم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضا كيف تثبت عن بعض كلامها. 

من لب أن أعرف ما كان وقع رسائل الأحجار في نفسها وما رقت به؟ 

إنه يتحدث في السحب الأحمر عن التهمة والظنون، والكلام الذي لا ينسمه المسلمون، والصابون، والنجوم الهاوية، وخداع النظر في الحب، وفسادات الرأي في الحوض، وطاش القلب في الاستسلام، ثم . . . ثم يحاول أن ينذر . . .! 

هنا الحلقه المفقودة في تاريخ هذا الحب، فلست أدعى المعرفة، ولقد كنت مع الرائعين مرة في مكتبه، وعند السحب الأحمر يقرأ إلى بعض فصوله، فأشارت إليه عند فقرة من الكلام ليجئني على سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره: فوضع الكتاب إلى جانب وحذق في طويلا ثم سكت وسبحت خواطره إلى عالم بعيد، وراح أصابعه تعبث بما على المكتبة من أشياءه، ثم قال: 

أرأيت النص الذي تراءى له السحب الأحمر في نصبه بين عيني والصابحة . .؟ 

ثم دس يده في درج المكتبة فأخرجته ودفعه إلى وهو يقول: ضع النصاب!
بين عينيك والمصاحب والنظر، ألسنت ترى سهاماً يترقص بالدم كأن قلبًا جريحاً ينزف؟ في شعاع هذا النور تراءات لي هذه الخواطر تقروها في السحاب الأحمر ...

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأثناها ومردها، ولكن فصول الكتاب تحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام.

لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحمر ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه، وليس أشد أن صاحبته حين تأذت إليها رسالته قد فهمت ماعنيه وعرفت ذات صدرها، وأحسب - وهي الأدبية الشاعرة - قد سرّها أن تكون هي تلك الرحيماً في رسائل الأحمر من كل معنى جميل. أفترضاً قد بدا لهما أن تهجه بالإلقاء والإغراء وقموة العنب وصنع العضب لنتفهم وتزيده وحياً وشراً وحكاً...

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبراه وانثارت نفسه، فكتب كتابه ولكن لنير ما أرادت وما قصدت إليه...

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد، حول فلسفة البغض، وطيش الحب، ولؤم المرأة ...

على كل أنماهيف لا يشير إلا لمعنٍ واحد: هو أن قلبًا وقع في أسر الحب يحاول الفتك فلا يستطيعه، فما يملك إلا أن يصبح محل ما فيه: إنني أبغضك...
أيتها... أيتها المحبوبة!

وَكَيْ يَفْرَعُ الشَّخْصُ إِذَا حَزَّبَ أَمَرَهُ إِلَى أَصْدَاقَتِهِ يُسْتَعِينَهُمْ وِيَسْتَلَّهُمْ الرَّأْي

فِي بَلَاوَهُ، كَذَلِكَ فَزْعُ الْرَافِعِي فِي السَّحَابَ الْأَحْرَرِ، وَلَكِنْ إِلَى أَصْدَاقَهُ مِن

ِغِيرَ عَالِمْهُ يُسْتَعِينَهُمْ عَلَيْهِ. فَهَذَا صَدِيقُهُ الشَّخْصُ عَلَيْ صاحِبِ السَّماكِينِ، وَهَذَا

صِفْهُ وَصَاحِبُ نَشَأَتِهِ الشَّخْصُ أَحْمَدُ الرَّافِعِي، وَذَلِكَ أَسْتَاذهُ وَمَلِكِهِ الْعَالِيِ فِي دِيْنِهِ

الْإِسْتَاذُ الإِمَامُ الشَّخْصُ مُحَمَّدُ عِبَّدُهُ، وَهَذَا أَمْضِى وَلَدَاهُ الْحَبَيْبُ، وَذَلِكَ

زُوْجُ يَفْرَعُهَا زَوْجَهُ الحَبِيْبُ إِلَى السَّجْنِ؛ وَهَذَا، وَهَذَا، وَذَلِكَ يَحْتَمُونُهُ جَمِيعًا

حَدِيثُهُمْ عِنْصَرَ الحَبِيْبِ فِي رَأَى الْعَيْنِ، وَفِي رَأَى الْقَلْبِ، وَفِي رَأَى الْعَقَلِ، وَيَهْتَمُونُ

حَدِيثُهُ... فَفَشَّا تَلْبِحُ مِنْ أَحَادِيث هُؤُلَآءْ. جَمِيعًا إِلَّا أَنَّ الْرَافِعِي فِي جَهَاد

عِنْفِ بَينِ قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ يُرِيدُ أَنْ يَنْبُثَ الْغَلْبَةَ عَلَى هُوَا لِيْخْرُجُ مِنْ أَمَرٍ

صَاحِبِهِ؛ بِرَأِيْهِ وَفِكْرِهِ وَكَبْرِيَّةِهِ، ثُمَّ لَا تَنْهَنُ الْغَلْبَةَ فِي النَّهَانِيَّةِ إِلَّا لِلَّحْبِ عِلَيْهِ

رَأَيْهِ وَفْكَرِهِ وَكَبْرِيَّهُ.

عَلَى أَنْ كَتَابَ السَّحَابِ الْأَحْرَرِ لَيْسَ كَلْهُ خَالِصًَا لِصَاحِبِهِ إِلَّا يَكُنْ مِنْ

وُجُبًا: ذَلِكَ أَنْ نَسَقِعَ الْعَجِيبَ، وَمَحاوَلَةَ الْرَافِعِي بَهْ أَنْ يَنْصُرَ عَنْهَا، قَدْ شَرَعَهُ

فِي الْكَتَابِ مَسَالِكَ مِنْ الْقُولِ لَمْ تَنْكِنْ مَا يَقْتَضَهُ مَانِيَهُ وَبِنِينِ صَاحِبِهِنَّ.

١٣٤  

في الفصل الأوَّل من السَّحَابِ الْأَحْرَرِ، يَتَحْدِثُ الرَافِعِي عَنْ فَنَّاءٍ، عَرْفَهَا

قَدِيمًا فِي بَرِوَةِ لِبِنْانِ، يَبْتَغُي الْوَقُفَ إِلَى جَالِهَا ثَمَّ يَقْفُ إِذَا جَاوِهَا، وَهُوَ يُعْتَيْ صَاحِبُهُ

الَّيْلُ أَفْلَى عَلَيْهِ، جَدَلُ الْقُلْبِ، وَإِذَا لَنْتَقُرَْ أَحْدَيْهِ عَنْهَا، وَوَصَّفَهَا لَهَا، وَمَا كَانَ

مِنْ أُرُشَّهَا فِي نَفْسِهِ، فَتَسَألُ نَفْسًا، يُعَايِشُهَا أَيْ شَيْءًا رَدَّهَا إِلَى هذِهِ الدَّرْكَ لِيُبَدِّلَهَا

فِي نِفْسِهِ بَعْدَ اعْتُقُدَ عَشَرَةَ سُنَّةٍ مَا الْزَمَانُ بِهَا فِي قَلْبِهِ وَأَتْبَثَ إِذَا تُجْدِ
الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل:

إن من النساء ما يفهَم ثم يعفو في معاني الجلالة إلى أن يتعن، ومن النساء ما يفهَم ثم يسفل في معانيه الحسية إلى أن يبذل... إن من المرأة ما يكّب إلى أن يلمع بالإيمان، ومن المرأة ما يكره إلى أن يلمع بالكفر...

"من المرأة حلو الذي يوكل منه بلا شبع، ومن المرأة مر كريه يشتيع منه بلا أكل..."

أراه بهذا يزاون بين واحدة وواحدها، ليقول لهذه: إن تلك كانت خيراً منك؟ وهل تحسบท كان يعتقد ذلك؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الراقص أن هذا منعاً لم يكن يعينه، ولكنها متساوية في الحب يريد بها أن يهيج غير صاحبتها ليزدهر إليها، أو أنه أراد أن ينقد كبرياته فزعم لصاحبتها أنه لم يكن يعينها برأسات الأحرار، لأن هناك أخرى...

وتقرآ النجمة الهواوية، في الفصل الثاني، فنصمه يقول. "تتم آمالنا حين لا تومن!" فاذا تشك أن هناك رسالة إليها، رسالة يلمعها الحب المغطى الحق، يحاول فيها أن يوهها أنها لم تعد شيئاً في نفسه، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه ليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رJAVA; ثم يستدرك في معانى البغض والحجر والقطيعة بأسلوب قاس عنيف، ولكن قلب العاشق المفقود ينشد في كلائه; فاذا نتمي الفصل حتى يستمع حبه من وراء كلابه البغض وهو يقول: "أأشأ النساء على نفسها من لا يحب ولا يبغض، وأشأممهم على الناس مر إذا عدت مغرضها لا تندع إلا الذين أحبوها...!"، وإنى لاعرف
لا يدعوا إلى عودته، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول:

"هل أنا أحبك يا أشام الناس؟"

اقرأ في آخر هذا الفصل الصاحب قوله:

"إذا كنت في الحب ينساننا وذكرا، سوف تذكرنا يوما ونساكم إن ظلام الذي يحلوك يفرق له صباح متي تدرك أخفاكا"

ويتحدث في الفصل الثالث عن السجين تحمه عربة السجناء إلى قضائه، وزوجته التي تعبة تشيع بنظراتها الجافة. فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين، أي خاطرة في الحب أتهمته هذا الفصل البديع، وكأنه تسمع الرافع يتحدث فيه عن نفسه ما فعل به الفراق. ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحببتها بمسر الحنان لتأيرا أخرى فارقتها. ففي الموت يعده وجدنا ليتحطم، وفي الفراق يمس ليلنا. وكان الذي يقبض الروح في كله حين موتها، وهو الذي يلمس عند الفراق بأطراف أصابعه.

"وإذا الحبيب وجد حبيبه فين فيه عوطته، فعند الفراق تنزع قطعة من وجدنا فترفع بالكين وجلس في كل مكان محرز فين في القلب معنى من المناحة على معنى من الموت.

"ترا العمر يتقود يوما ولا نشعر به، ولكن معنا فارقا من نجهم. نبه القلب فينا بعث معنى الزمن الراحل، فكان من الفراق على نفوذنا انفجار

"كتطير عدة سنين من الحياة . . . ."
ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب (1)، وعن المناقش، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفضح عنه، وإنه لسبب ما كان ينه وبين صاحبته: أقره يشير به إلى شيء من أسباب القطعية؟ وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة فلدا وليدا الصغيران ثم أهتمت إليها:

"الحب! ما الحب إلا لهفة تهدت هديها في الدم، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب الأم على طفلاها... حب الأم في النسمة كالشجرة تغرس من عود ضعيف، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بحذورها وتتم بدفوعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تُغفُّ عنا أوراقها لِبَلاً وأياماً... حب العاشقين كثرة: ما أسرع ما تنتبئ، وما أسرع ما تنتجي، وما أسرع ما تقتف، ولكنها تُنسى الشفاء التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القاتعة..."

"... لا لدة في الشجرة ولكنها مع ذلك هي الباقية وهي المنتجة، ولا بقاء للشجرة ولكنها على ذلك هي الخمرة وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها... وهكذا الرجل أعواه الشيطان في السما، شجرة تنسب الله حينا، وبثغية الحب في الأرض شجرة أخرى فننها الأم أحياناً!"

(1) هذا الفصل في السحاب الأحمر بعنوان «الربطة» كتبه الراقي عن صديق من خريجي جامعات أوروبا، هو الدكتور حسن الهراوي، وكان في صدر شبابه كأكبر وارى ينقارن أوروبا - زيفا في الدين، وزيفاً في الحق، وزيفاً في الرجولة؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حيلة لديه وحفاظاً على تراث قومه؛ ولله مقالات في الإسلام وفي الرد على جهال المسترشدين تشفع له يوم الدين.
وراء في الفصول الثلاثة البقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ويعتبر أن الحب ليس هو رجولة الرجل، وليس هو إنسانية الإنسان، وليس هو كل ما في الحياة من لذة ومتاع، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه: الشيخ علي، والشيخ أحمد، والشيخ محمد عبده؛ يحاولون ويجاورونه قتمع في هذا الحوار إلى التوالي بينه وبين نفسه، وإلى الصراع بين عقله وروحه.

إن الرافعي كبريائه وخلقه ودينه واعتداده نفسه، لم يخلق للحب، ولكن أحب، فإن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام، وصراعًا دائمًا بين طبيعته التي هو بها هو، وفطرته التي هو بها İnsan، وإنك تلحظ هذا الصراع الدائم في كل فصل من فصول السحب الأحمر.

وفي كتاب السحب الأحمر، تقرأ أرأي الرافعي في القضاء والقدر، وإنه ليشرح برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته. فتره يؤمن بأن الإنسان في ديناه ليس له كسب ولا اختيار فيها يعمل، ولكن قضاء مقدر عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه. وإن ذلك لموقع بأن الله حكمة في فضيّ وقادر، وإن ذرت حكمنه على الأفهام:

ألا يا ماء البحر، ما أنت على أرض من الملح، فإن صفحت زعاقا لا تخول ولا تساغ ولا تشرب؟ إنك ليست على أرض من الملح، ولكنك يا ماء البحر ذات فيك الحكمة المليئة...

قلت في الفصل السابق: إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شيء...
من البيان المصنوع تكلفته كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنا في العربية لم يوقع إلى تجويده... لأنه بقية قصة لم تنشر معه...
أما السحاب الآخر فهو كتاب كامل. أخذ منه فصلا أو فصلين في أوله، وشيئا من فضول القول في سائره، تجد فتى في العربية لا يقدر عليه إلا الراقي، مجردة من قصته أو أنسبه إليها، فإذاك واجد فيه أديبا يستحق الحلو، ويبقىه على البيان، وشعراء وحكاية مازال الأدباء يدورون عليها حتى وجوههم في أبو الراقي.

في رسائل الأحزان أراد الراقي أن تعرض صاحبه من حاله ومن خبره ما أراد، فأغمرا بالترفع والدليل عليه؛ وفي السحاب الآخر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهانة وما له عنده إلا اللهجة على ما كان من أباه. أقراء في السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد؟ وهبائه أن يقتني الهوى!

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهجة ويوقظ الخنين ويؤجج البغض. ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينرى ما قد قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول:

ويلي علي مستدل ما تنفق علي فونه؟
كيف السلم ؟ في قوا دين لاتفق في عيونه؟
يرحمك الله يا صديقي !
أوراق الورد

لا يسع معي إلا ظلالها، ولكنها ظلال حياة تروج وتقيء في ذا كرتي. وكل ما كان وضيوعه هو في هذه الظلاليات الحياة كان لا يعبث. وكما يرى الشاعر المله، كلم الطبيعة بأسره مرتنا إلى لقاء عينيه، أصبت أرآها في شيء طبيعة حسن قائن مرتنا بجمالها إلى لقاء فكرتي.

«كان لها في نسيب، ظهر الجمال وحمة حنانة الرجاء وجنونه، ثم خذوها لها خضوعا لا ينفع، فبدأ هاجر منها ظهر الجمال وحمة وقار البأس، وعهده، ثم خضوعها للخيل خضوعا لا يضرها».

وهما أريد من الحب إلا النين، فان جاء من الهجر عن فهو الحب...

كما أ يحدث في صدقة خطواتين رجع إلى صوان خطره.

لقد أصيبت أرآ أبلى العنان في أمي الهجر، وإن أرضي بالاسم الذي ليس بالرضا، وإن مخن عندي ما لا يمحى، وإن أظلم الحب إلا في عيني الحب، أرديها عضية، فهذا جمال بلا، طبيعة الشبدة، وحيب نانسي كربيا، ودق جريح يرشد دما، فهذه لمرى قوة الجسم الذي بيد عن المض وشوك الحليب، وما هي بواد يذك.

إن لم تقو أول شيء على الألم...

أريدها لأن تعرف ولا أعترفها، لامن شيء إلا أنها تعرفي وأعرفها... تتكتس ساكنة...

وارد عليها بسكونى، صمت صادف كالميت ولكن له في القلمين عم علم طويل...

(الوازى)

هدأت ثائرة الراوية هونا ما، وفازت إليه نفسه، واعتقدت مقايير الأشياء في عينيه، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب، وبين الحب والسوان؛ فاستراح إلى البأس... لولا آثارها من الحين تنزعه إلى المضاي، وبقية من مشوقة واللطفة على ما كان؛ وفرعت أيها من الحادة تنقلل من بعد بالشعر والحككة والبيان... ومضت سه ستين والحياة تذهب به مذاهبها، والذكرى تغشاه في خلواته وتداعبه في أحلامه، والأمان التي بعثرها الكبرياء بذا في أودية النسيان تتخالله في شكل وألوان، وخواطره من وراء ذلك تعمل، ونفسه الشاعرة
تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والإحلام. وأتمّ نظم قصيدها
البارعة في أوراق الورد، سنة 1931.

أوراق الورد هو طائفة من الحواض المشورة في فلسفة الحب والجمال، أنشأها
الرافعي لوصف حالة من حالاته، وثبت تاريخها من تاريخه، في فترة من العمر
لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخا ولا من بعد.

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائله ورسائله. أما رسائله فتعم
ولكن على باب من المجاز، وأما رسائلها فإن أدرى أن موضوعها من الكتاب؟

بلا، إن في أوراق الورد طائفة من رسائلها إليه، ولكنها رسائل لم تذهب
إليها مع البريد، بل هي من الرسائل التي كان ينافها بيا في خلوته، ويتحدث
بها إلى نفسه; أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة النسي، ويرسل بها إلى طيفها
في جلوة الأحاسيم، إلا رسالتين أو ثلاثا مما في أوراق الورد. فلما
أتم تأليفها وعاق عقيدتها، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين
من تاريخ الفراق!

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي «فلاينة»، ولبس كل رسائله في
لكتبها إليه، فهناك الأخرى، هنالك صاحبة «حديث القمر»، تلك التي
عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة، وهنا فلانة...

هنا انتان لا واحدة: تلك يستمد من لينة وسماحةها وذكرياتها البعيدة معاني
الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة، وهذه تستوحيا معاني الكبرياء والصدّ
cوالقطيعة وذكرات الحب التي أشرقت في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم!
لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته، فلانة، كان قلبها في أثاثها خالصًا لها، ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر ينتميه من هنا ومن هناك؛ فلاجئت له ما أراد، ضم أوراق الورد إلى أشواكها، وأخرج كتابًا كتبته للفن أولاً ثم لها من بعد.

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقوها وما زال منتبة في هواها، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر الفن والشعر، عقل الأديب وحيلة الفنان.

وإلى، إنه كان يحبها حباً لا يتسنى القلب لأن يشرك فيه غيرها، فكان (قلبه) لها من دون الناس جمعاً، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحي إليه من هنا ومن هناك وما يستجد على خواطره من بعيد في معاني الحب والغض والودة والقطيعة.

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب، ثم يصور فنه وبيانه في لغة الحب. ثم لا يصور شيئاً من بعد ما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته، إلا أن يبتكر قارئه ويسأل لمستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة في البحث والاستقراء.

فما رأيت من رسالة فيها اللهمجة والخنين، وفيها التذكار والاستعطف، وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبراء، وفيها الميزة الحالية تتوالى بين السطور في خفة الفراشة الطاهرة؟ وما رأيت من معنى تناول أن تمسك فيغلب؟ فهو فصل يؤدى أداه في قصة هذا الحب العجيب.

وما قرأت من رسالة تصف ما كان في خاوة نفس إلى نفس، وتقص عليك في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب، وتكتشف لك عن سر الإنسامة ومعنى
النظرية وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون، فهو ذكرت
من الماضي البعيد. وكان حبا في القلب فصار حديثا في الفكر، ثم استتبع
شيء، شئاً،
وما قرأ من قول ثموق، وبيان منمق، ومعني، يد معني، وفكر.
تستخرج فكرة، وعبارة تندو على عبارة، فهو من أداء العلم وولادة الفكر.
ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة، أو حادة، أو ذكرى، أو فن من الفن.
ولقد تجد كذلك رسالة عبرها تجمع هذه الثلاثة في قرن، ففي قلب ينفض،
وذكرى تعود، وبيان مصنوع.
فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة، عرفت الكتاب، وعرفت صاحبه،
وخرجت منه بشيء.

بدا أوراق الورد بمقدمة بلغة في الآداب تتحدث فيها عن تاريخ رسائل
الحب في العربية. أسلوب هو أسلوب الراقي، وإحاطة هي إحاطته، وسعة
أطلالا لا تعرفها له، وهذه المقدمة وحدها هي باب في الآداب العرب لم
ينبض على منفه ولم يكتب مثله. تذكرك، تذكرك. فليرى ذلك النهج البارع الذي يبه
الراقي العالم المؤرخ في كتابه، تاريخ آداب العرب، فكان به أول من كتب
في تاريخ الآداب وآخر من كتب...
وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل، وفيها سبب تسمية الكتاب، وهو
شيء ما كان بينه وبين صاحبه. يقول إنه كان في مجلسه يوما ومعه وردة،
فأخذته تحدثه عن الحب وعمر الحب، وعن الورد، وعن الورد، وكأنها تقول له
احذر أن تجعل حظك من الورد أكثر من أن تستنشقها على بعد من دون مدة
البان، واحذر في الحب، قال: ثم دنت الشاعرة الجميلة فناظت وردتها
إلى عروة صاحبها، فقال لها: وضعتها رقيقة نادية في صدرى، ولكن علي
معان في القلب كأشواكها... فاستضحكت وقال: فإذا كتبت يوما معاني
الأشواك فسَّمِها أوراق الورد... وكذلك سَمِّىها... 
ويمضى في هذه المقدمة يتحدث عن حبه، وآلامه في الحب، ورأيه في
الجميل، وشى، مما كان بينه وبينها، ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل.
وما أراد بها وما أوحاه إليها؛ في أسلوب كلّ حنين، وكله شوق وألم.
ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتب متتابعة على ما أوّلها طرقه من قبل:
فيها حنين المشروق المهوجر، وفيها يُنَفِّذُ الالتماس، وفيها ذكريات السال، وفيها فن
الأدب وشعر الشاعر؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها...

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيتا، ومن
أراده رسول وجوابا في معنى خاص لم يجد شيتا، ومن أراده تسيلة
والإجابة للفراغ لم يجد شيتا؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يعتني به في رسائله
إلى من يجد لم يجد شيتا؛ ومن أراده قصة قلب ينعش بمعانيه على حاله
في الرضى والغضب، ويتحدث بأمانه على حاله في الحب والسلامات... 
وجد كل شيء.

وهو في الفن ف الخوفي، لا تجد في بيانه ومعانيه ضريرًا له ما أنشأ الكتاب
وأنشد الشعراء في معاني الحب؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالٍ وفكرته
السامية في الحب، لا يعرف قراءه في العربية. وكم قارئ استمر به عنوان الكتاب
وموضوعه حثِّلاً بشوق ولهفة، فما هو إلا أن يمضى فيه صفحات قليلة.
حتى سلله ينمى إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبه، ثم لا يعود إليه... وكم قارئ كان لا يعرف الرازي الشاعر الثائر العنيف في حبه وبغضه وكبره، فلما قرأ أوراق الورد، عرفه فأعطاه لنفسه فذوته فعرفه في الأدب، إلا أنه مؤلف أوراق الورد.

وكم وكم... ولكن أوراق الورد ما يزال جهولا عند أكثر قراء العربية وإن كان في مكتباتهم، لأن القارئ الذي يلقى أوراق الورد ما زال يتعلم في المدرسة كيف يقرأ ليستفدي ويضم فكره إلى فكره لا ليس عبءا وحرب من فكره! لأن العربية ليس لها قراء...!

للت شعراء أغى العربية كلهما شاعر يستطيع أن ينظم وقفة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معاناتها في قصيدة? أبحثوا عن جهور هذا الشاعر وقارئه يوم تسمعون قصيدته...

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلب بعرض الذهب؟ إنه كنز، ولكن مثلاً يصب على المعاناة في استخراجه والبراءة إليه إلا أن يكون صاحب أغلى وقفة؟ إنك كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحوله من طبقات الأرض إلا الرجل الواحد المحترم الذي يكون مدير الصبر.

إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية، لو عرفه المتأدون من شبانا لوضعوا يدها على أثمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان.

وكان الرازي - رحمه الله - يعتز بأوراق الورد اعتزازاً بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء، ويباهي ويفتخر، وما أحسب تقرر عن صاحبه بقليل إلا تعزراً (10 - حياة الرازي)
بما لقى من النجاح والتوافق في إنشاء أوراق الورد، وكما تجد الأم سلوتها في ولدها السرور عن الزوج الحبيب الذي طواعه المتورع، وجد الراوي العزاء في أطفال معاناه عن مطلقاته العنيفة... لقد فارقه، ولكنه أحتوىها في كتابه.

إن الأم لا تنسي زوجها الحبيب إذا فارقها وخلخت بين يديها بشعة منه، ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبا ليخفف بذكره برفع في عيني هذا الحبيب الصغير، وكذلك لم ينس الراوي، ولكنه وجد السلوان... لقد أفلت من يده، ولكنها خلفت ذكرها معه، ذكرى حية ناطقة تمثل معانى وكلمات في كتاب.

يقرأها كلما جل به الحنين فكأنه منها بسمع ومشهد قريب! يرحمه الله! لقد مات ولكن قلبها ما يزال حيا ينفض يتحدث عن آلامه وأشواغه في قلب كل حب يقرأها، يجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله...

يرحمه الله!
في النقد

إبراهيم وطه حسين - تحت راية الفرقان - كلية ودمعة - شاعر الملك
الرافق والآبازة ياشا - إبراهيم وعبد العزيز - الراقي والراقي - علي السويد - وحى الأرونين

... سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن شيء ما كان بين الرافعى وأدباء عصره، وإن لم يحدي شائق، وإن كانت له حرب شديد؛ لقد بلغ الرافعى ولكنه خلف وراءه صدى بعيدًا مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية؛ فما أحد منهم إلا مع له عده ثار وصهره عليه حفيظة أو له عليه معتبة؛ ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لعلى الرافعى وما اختلفت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهلها عزة، إلا راجعًا وأحدها كتب برقية إلى ولده، هو الدكتور طه حسين بك: فلأ جرم كان بذلك أنه خصوم الرافعى وأعترف بالادب اللائق!

ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعى دنياه؛ فهل رأيت أحدًا منهم كتب شيتاً عنه يناله بالمدح أو المذمة؟ وهل رأيت اللجنة التي تألفت لتلائمه قد استطاعت أن تعمل واحداً من هؤلاء، أو أن يشاركا فيها تعمل لتأييد الرافعى، أو أن لم يتأخرا عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعوامنا ويريد أن يضيع في مدرجة النسجات؟...

ليت شعرى أكان الرافعى من الهواة في المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي، وما ينقطع على موطه بضعة أشهر، وليت تجمع لجنة التأييد وتنفض وتحدد الموعد لها ثلاث مرات ثم لاتجد من
يتقدم إليها ليقول في تأبين الرافعى، فنناشد أن نتأمل الأجل إلى غير ميعاد... حتى إذا مضى العام فاحتفت فلسطين، واحتفت سوريا، واحتفل العراق، واحتفل العرب في المهاجر من وراء البحر بذكرى الرافعى؛ أقامت لجنة التأبين في مصر. حفلتها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغي أن تكون؛ تخرج من التهمة بالعقوبات ونكران الجليل!

ولكنه هو - يرحمه الله - الذي أُلب على نفسه هذه العداوات حقيقة ومتنا، لقد كان ناقداً عنيفاً حذراً للسنا، لا يعرف المداراة ولا يصنف الآداب في نضال خصوصه. وكانت فيه غيرة واعتداد بالذين، وكان فيه حرص على اللغة من جهة الحرص على الدين، إذا لم يزال منهما شيء. كان الأسأس والبناء. لا منفعة فيها معاً إلا بقياهما معاً. وكان يؤمن بأكمله "لن تجد ذا دخلة بخيبة هذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً، يهاجم خصوصه على طريقاً ينطبعه ينخلو له قلب الشجاعة!

أقرّاً له في أول كتاب المعرفة: "إذا نعمل على إسقاط فكرة خطرة إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه، فقد تكون عدا فيمن لانعرفه؛ ونحن نرُدّ على هذا وعلى هذا بزيد سواء، لا جهلنا من نجحه يلطف منه، ولا على فننا من نعرفه يبالغ فيه... فإن كان في أسلوبنا من الشدة، أو العفن، أو القول المؤلم، أو التهمك; فما ذلك أردنا، ولكنا كأذى يصف الرجل الضال لينفع المهتدٍ أن يضلل، فما به رجل الأول بل عظة الثانية... وأولما ما أعرف للرافعى في النقد، مقاله في "الثنايا"، عن شعراء العصر في سنة 1905 (1); ثم مقاله في الديد على المرحوم المتفوقي في المبر... وكان

(1) انظر ص 54 من هذا الكتاب.
نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعي في الشعر. ويتنصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكري، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعي يقول: قد وست أمر تأديته إليك...

ثم كانت محاولات أدية بينه وبين الجامعة المصرية عدّة نشأتها في سنة 1908-1909 (1) ثم مقالات عن الجديد والقديم، والعامة والقصصي في مجلة البيان والزهراء (1) و خصوصية بينه وبين جنة النشيد القومى في سنة 1921. ثم وقعت ENCOUNTER مع الدكتور طه حرب رسائل الأحزان في سنة 1924 (1). في السياسة الأسبوعية: فكان هذا أول ما بينهما: ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد، وبينه وبين عبد الله عفني، وبينه وبين زكى مبارك، إلى ما لا ينتهي من المحاولات بينه وبين أدباء عصره.

على أن أشهر هذه المعارك شهرًا هو ما كان بينه وبين طه، وبينه وبين العقاد، بل لعلها أشهر وأقوى من المعارك الأخرى، وإنها جنرية بأن يكون بها في تاريخ النقد كما كان العرب يؤذرون بأيهم...

وإنني لا أشعر أن علياً، أني أكتشف ما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التي نشأت بها هذه الخصائص الإدبية أو انتهت إليها، وإنني لا أشعر بجانب ذلك أني أكفل نفسى بهذا فور ما استطاع.

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعي كان له هو وحده، فلا على مأتمتة نفس إلهام إلى ما أكتب: أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعي أسماء، وإنهم لذوي حول وسلطان، فلا أدرى أي ضرون ما أكتب عنهم أم يخطوون. وقد رأيت ما فعلت بالرافعي شجاعته فضائى لم يذكره أحد منهم.

المعركة تحت رأية القرآن.
أو يترجم عليه؟ وما أنا كفء لهذه العداوات، ولست لها أهل، ولما طاقة بالدفاع عن نفسه، ولا لأنصار ذوو لسان وبيان، وما تهون على نفسه؟! ولكن... ولكن من عذرى يوم الحق من كتبت الشهادة؟ ولكن... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ماراً لا ماراً. ولكن... ولكن فلاناً وفلاناً اليوم أنا مسؤول وتيجول، وإنها غير لصفحات من التاريخ تتحدث... ولكن... ولكن التاريخ قد وقع فلان سبيل إلى تحته في أو إثبات ولكن... ولكن التدم على ما كان لا يرحمه من تاريخ الإنسان ما كان... فهذا عذري عند فلان وفلان من يقتنوفيهم حديثي بما يغضب أو يسوء؟ فإن كان لي عذرهم عذر من الكذبان إن كتبت الشهادة فإن على الاهبة لأن أعوى من هذا الحديث ما قد يغضب أو يسوء... أما وإن تاريخ الرافع في هذا الفصل هو تاريخ الأدب في جيل من الأدباء؛ فإن كان من حق أحد أن يعتب على لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لا يجب! وما أريد من فلان وفلان شيئاً، وما لي عندهم حاجة ولا لهم على يد فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا على من غضبه أو رضاه، وإن لمباش فينا أنا بسبيله...
بين الراوي ووطه

في سنة 1922 كانت السياسة الأسبوعية هي ساحة الأدب والثقافة، وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين في الأدب وفي السياسة معاً، ولم يكن بين الراوي ووطه يوجد شيء يثير ثأرة في الصدر، أو يدعو إلى عتاب وملامسة، ولكن إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة.

كان طه حسين في سنة 1909 هو الطالب المرموق في الجامعة المصرية، وكان الراوي الشاعر ماضياً في الشعر على سنته، للاعتراف به أحد ممنا غير الشعر، فلما نشر مقالة المشهورين في الجريدة، نقد بها أسلوب الأدب في الجامعة، تنبعث إليه العيون، فلما أنفأ كتابه تاريخ أداب العرب في سنة 1911، عرف الأدباء الراوي العالم المؤرخ الراوي، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة.

أدرك أن الطالب طه حسين يشرح نفسه في يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة، فنفسه على الراوي أن يؤلف كتاباً في تاريخ أداب العرب، فكتب ينده ويرجع أنه لم يفهمه ثم يقرر هذا المعني ثانية في نقده حديث الاقتراع، وتأله في رسائل الأحزان؟

الحق أن الراوي كان يطمع في أن يكون إليه تدريس الأدب في الجامعة منذ أن أسئلت الجامعة، وقد كشف عن رغبته هذه في مقالاته بالجريدة، ولكن طه يومئذ كان طالباً في الجامعة، ففي الإسراف في المراح أن ينسب ما كان بينهما من بعد إلى النضال أو المنافسة على كرسى الأدب في الجامعة! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه!
ومثة حديث آخر يشير إلى أول ما كان بين الرافعي وله، رواه لي صديقنا
الدبيب عبد المعطي المسيرى، صاحب "الفهوة والأدب". قال:
"زار الرافعي إدارة الجريدة مرة لبعض شأنه، في سنة 1908 (أو سنة 1909)؛ فلا مثيل له أن ينصرف طاف بمحروى الجريدة، يجيهم
ويبنهم طه حسين - ولكن الذي كان يصحب الرافعي في طواله لم يعره طه
ولم يقدم أحدهما الآخر؛ وعرفه الرافعي على الرغم من ذلك؛ إذ كان مثله
لابقى واسمه على جبينه...... ولكن لم يجي ولم يظهر له المعرفة؛ رعاية
لعاطفته، وخشية أن يفهمه طه أن الرافعي لم يعرفه إلا بعدها فامن وتتأدى
نفسه؛ ولكن طه طوي صدره على شى للمرافعي من يومه؛ لأن الرافعى
انصرف دون أن يعجب كما حبا زملاءه العاملين معه في الجريدة.

وتفخت السياسة الأسبوعية في الأدب رواحة جديدة، واتخذت لها أساليباً
في الدين وفي العلم وفي الأدب قال عنه جماعة من الأدباء: إنه إلحاد وكفر
وحلا، وقالت ظاهرة: إنه المذهب الجديد في الدين والعلم والأدب، ثم
مضت السياسة بما تكتب وما تفضح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء
إلى فرق ومعسكرات، وفقيدين جديد، ورفعت في الجهاد راية...
والرافعى رجل كان - فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم - فأيقن منذ
قرأ العديد الأول من السياسة الأسبوعية أن سكون له شأن مع السياسة
وكتاب السياسة في غد...
ونال الرافعى رشاش من بعض المعارك وإنه بعيد عن الميدان، فاهم في
نفسه رغبة في الكفاح فتحفزه للوثبة...
ودس كلمة إلى طه يهتم أسعده بما يشبه المريح، ويبع عليه التكرار...
وضيف الفكره (قال الراحفي): فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاه...
وما زمر إليه ثم عرف...
وتهبأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان... وتربص الرجلان في...
انتظار السبب المباشر لبدء المعركة...
ثم أصدر الراحفي رسائل الأحزان، فسعى راجلا إلى دار السياسة ليهيده...
إليها كتابه... وهناك التق الراحفي طه حسين ووجه له... ونظر الراحفي...
إلي طه، واستمع طه إلى حديث الراحفي، وتصاحب الخصان قبل أن يصعدا...
إلي حلبة المصارعة، وتفخ الدكتور هيلك في صفارة الحكم، وبدت المعركة...
كانت مشادة حادة خرج الراحفي يتحدث عنها وصمت طه...
لمن يري كأن الغلبة؟ الراحفي يقول: أنا... وطه لا يتكلم... والدكتور...
هيلك صيني بالحديث...
ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان، في السياسة...
الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب، ورد عليه الراحفي يقول:
"سلم عليك المني وقول لك:"
وكم من عاب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم...
ثم مضى في رده يهزا ويسخر وينجني ويشددي، في مقال طويل...
وطرت الشرارة الأولى فاندلعت ألسنة النار، فما خمدت حتى أحدث...

(1) المعركة تحت راية القرآن.
أزمة ودارية، وأشتدت جفوة بين سعد وعدل، وأرشقت أن تؤدى بعض
ماهر إلى المحاكة، ووزّرت دورات البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية...

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه، فما كانت في أوها إلا خصومات
بين مذهبين في الأدب وأسلوبين في الكتابة، فما لبثت من بعد أن استحالت
إلى حرب شعواء. يترافض فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلالة والإهدام
والغفلة والخوف؛ انقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن،
ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان، ثم إلى ميدان القضاء. والدكتور
طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه في الأدب ومذهبه في الدين، ولا
بينهما وبين مذهبه في السياسة، والراقي رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب،
ولأ يعرف شيئاً منهما يفصل عن شيء آخر منهما، ولكنه في السياسة كان
يتحلي بفضيلة الجهل التام، فلا يعرف له رأياً في السياسة تؤخذه به أو تنافسه
فيه، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بماسبها، لا بأسبابها;
وكم جز عليه هذا الجهل السياسي من متاعب! ومكم أثلص به من تهم! ولكنه هنا
كان من عوامل توقيفه في هذه المعركة.

في سنة 1925 كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولاصدقاءهم
والأخير الدستوريون حرب ط حسین، نشأ بينهم ووقف قلبه على الدعاية
لهم. فلما رأى على ماهر باشا -وزير المعارف يومند - أن يضم الجامعة المصرية
إلى وزارة المعارف، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربي
بالجامعة؛ على شرط الواقف.
ومضى الدكتور طه باحثًا طلابه في كلية الآداب محاضرات في الأدب الجاهل على الأسلوب الذي رآه لهم فلم استدر الزعم جمعه في محاضراته في كتاب أخرجه للناس باسم في الشعر الجاهل، وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منتجًا في كلية الآداب، فقرأوا رأيا جديدا في الدين والقرآن رجح ما كتب عندهم طنا بالدكتور طه حسين وكتاب السياسة الإسبوعية. فقال الآخرون من القراء: هذا كفر وضلالة. وقالت طالتها: هو خطأ في الفكر وإسراف في حرية الرأي. وقال الآخرون: بل هو الأسلوب الجديد لتاجدي الآداب العربية وتحرير الفكر العربي ؛ وظل الراقي ساكنًا: إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد، فما نبه إلى خطره إلا مقالات نشر أحدهما الاستاذ عباس فضل القاضي في السياسة الأسبوعية، وكتب ثانيهما الأمير شكري أرسلان في كوكب الشرق: فكان فيهما الإنداد للراقي بأنه قد آن أوانه ... وانتهى الراقي قبله وكتب مقالته الأولى بعده إلى جريدة كوكب الشرق، ثم مقالات ثلاثا بعده ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا يعرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره: فكانت المعركة بذلك في ميدانها الأول: خصومة بين مذهبين في الأدب وفي الكتابة وفي طرق العلم. على أن الراقي لم ينس في هذه المقالات أن له تأثر عنه، جعل إلى جانب النقد الأدبي إلى هذه المقالات شبه من أسلوبه المز في النقد: ذلك الأسلوب الذي لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يتأثر وينتقم. ثم تلقى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه، فثارت ثائرة لأمر جديد ... لقد كان نبيتا منكرا أن يزعم كاتب أن له الحق في أن يتجزى من دينه ليحقق...
مسألة من مسائل العلم، أو يناقش رأياً من الرأى في الأدب، أو يخصص رواية
من الرواية في التاريخ. لم يكن أحد من كتاب العرب ليترخص لنفسه في ذلك
فجعل حقيقة من حقائق الدين في موضوع الشك، أو نص من نصوص القرآن
في موضوع التكذيب؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخص لنفسه، ومنح نفسه
 الحق في أن يقول قالة في القرآن وفي الإسلام وتاريخ الإسلام؛ وقرأ الراقي
ما قال طه، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين، وتقل المعركة من
ميدان إلى ميدان:

وكان طه في أول أمره عند الراقي كانتا يزعم أن له مذهبًا جديدًا في الأدب،
فعاد مبتعدًا مپًا لله مذهب جديد في الدين والقرآن؛ فكما ترى البدوئ الثائر
لعرضه أن يتمّهك، كان الراقي يومتدن؛ فضى يستعدي الحكومة والقانون
وعلماً الذين أن يأخذوا على يده ويمنعه أن تسع بدعته في طلاب الجامعة...
وترادف مقالاته تأثرة مهنة تفورد بالفيض وبالحماية الدينية والعصبة للإسلام
والعرب، كأن فيها مغني الدم!

ومن في هذه المقالات كلٌّ اعتبار مما تقوم به الصلات بين الناس، فما
كان يكتب نقدًا في الأدب، بل يصب لهيبًا وحياً وقتافف لا يُتقن على شيء.
وكان ميدانه في جريدة كوكب الشرق، وكوكب الشرق يومتد هو جريدة
الأمة وجريدة سعد، وجريدة الشرق العربي كله؛ فن ذلك لم يبق في مصر
قائرة ولا كتاب إلا صار له رأي في طه حسين وفي دينه، وإن للإمة من قبل رأياً في وطنية ومذهبه، وحسبك بها من وطينة في رأى الشعب، وطه حسين
هو عدو سعد!
ووقفت الدواعي السياسية إلى جانب الراحى تؤديه وتنشد أزره، وإن لم يكن له في السياسة باع ولا ذراع.

وبذلت الصبيحة آذان شيوخ الأزهر، فذكروا أن عليهم واجبًا للدفاع عن الدين والقرآن لجتمعوا جمعتهم إلى جهاد.

وتواصلت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال؛ وإن طه لأثير في وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم؛ ولكنها لم تستطع أن تن تجاهل إرادة الرأى الإسلامي العام...

ومضى الراحى في حملته تؤديه كل القوى وتنشد أزره كل السلطات.

وشنت البيعة العمومية لتنظر في شكاوى العلماء وتُحدد الجريمة وتقترح العقاب، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقت أن يقول شيئاً، فكتب كتابًا إلى مُدير الجامعة، يُشتهى أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته ورسله، واليوم الآخر... ولكن الراحى لم يقع قضى في النقد على جاذته. ولم تجد الجامعة في النهاية بُدأًا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتقع تداوله، لعل ذلك يشد الفتنة التي توشك أن تعصف بكل شيء حتى الجامعة، ولكن الراحى لم يقع فاستمر في حمله على الدكتور طه حسين:

ولا ظهر له يومًا جلْغرَنَّيج الدكتور زي مبارك...

ليست من شأنى أن أنص الحكم في هذه القضية، فإن وثائق الدعوى مانزل بين أبدى القراء، ولا يهمي من كان الطليعة؛ فهذا كتاب للرواية لم الرأى... ولكن الذي يجب أن يعرفه القراء، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعًا سلبيًا فأوثر إلى الصمت؛ ويِزعم الدكتور زي مبارك...
أن الدكتور طه حسين كان معقولاً للعلم واللغة في هذه المعركة - بفضل الإشارات التي صدرت إليه بأن يترك العاصمة ممز، حتى لا يضيع أنسابه أمام الحكومة وأمام البلدة! وهو قول لا أدرى أينقصد به الدكتور ذكي مبارك أن يتنصر له أو للراعي؟ ولنキャン قول صديق عاقل على كل حال! 

لقد كانت هذه المقالات التي ينشرها الراضي في كوكب الشرق صيحة مدوية وصلت إلى كل أذن: فذكر أحداً في أدباء العربية وقرائنها قد قالت منه شيء: وكان المصريون وقتنا مجموعهم أفواههم عن السياسة والحديث في شكلها فجعلهم وجدواً في هذه المقالات ما يعبر عن شيء. إذ كان طه عندما يرمى ما يزال هو طه حسين عدو» سعد، ومحرر جريدة السياسة، وصديق الأحرار الدستوريين ...!

لا أزعج أن اهتمام الناس جميعاً في مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم في شتى الأدب رأى، أو لهم في الذروة عن الإسلام حية: لا؛ ولكنه نوع من التعبير السياسي جاء اتفاقاً ومصداقة في الوقت نفسه، ليكون تأيداً لقول الله وانتصاراً لكلماته؛ على أن هذه المقالات إقبال الناس عليها - لسبب أدبي أو لسبب سياسي - قد بعث روح دينية كانت راقية، وأدرك حبيبة كانت خائدة، وألفت قلوبها إلى قلوب كانت متأفزة، وهنئ طوائف من عباد الله كانت أشترتها لتنمل للذروة عن دين الله.

وإلى لذكر مثلها ما كان من إقبال الناس على هذه المقالات، أنا - كنت طالباً في دار العلوم - لم أكن أطلق الانتظار حتى يجيء breadcrumbs بالصحف إلى الحلي الذي أسكنه لأخذ منه كوكب الشرق، بل كنت وجمعية من الطلاب تستعجل
قطع الطريق من المينورة إلى باب الولق، راجع إلى الشئري من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان، لنقرأ أبداً على أن يقرأ أنه الناس.

وتطورت السياسة المصرية، وتلقي زبارة عن الحكم، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد، وعكف زوراب الأيام على ترات الخرونة المشاركة يفتشون عن أخطائه، وما يزال في آذانهم صدى ينفع كما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين، فأيدياً البرلمان رغبه في محاكاة. وقال النواب: نحن نريد... وقالت الحكومة: أنا لا أريد. وتشهد عدل رئيس الحكومة وسعد رئيس النواب مفيش زواية، ونحت نضجة، وحدثت أزمة وزارية، وله حملة بالاستقلال وأصر سعد على وجوه تنفيذ رأى الإمة، وتتمت المشكلة...

وسعي الوسط بين الزعيمين: فما كان الحل إلا أن يتقدم المتقدم، عبد الحميد البتان (1) نشكوته إلى النيابة العمومية، فسبق قليلة عن الحكومة، وينفذ رأى الأمة، ثم تتسر القضية إلى غايتها أمام القضاء، وكان بعد ذلك ما كان. وإذا كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عمل من أعمال وزير المعارف، فإن ما نادر حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا انطلاقاً أو نواباً إلى اقتراح محاكاة على ماهر مما فعل للجامعة، وما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حق الدستوري... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ.

---

(1) توفي سنة 1944 فيما أذكر.
ليس كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي، ولكنها شيء ينتمي تاريخه وله فيه أثر في المعركة، فإلا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه، لما قامت هذه الضجة، ولا ثارت هذه الثورة، لولا كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء ما كان.

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغل وأعمق، ذلك هو كتاب:

المعركة تحت راية القرآن، وهو جامع رأى الرافعي في القديم والجديد.

وهو أسلوب في النقد سنتحدث عنه بعد.

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه، بل أحسها ستظل قائمة مابقت العربية وبقى تاريخ الأدب، فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بها؟ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً، قدام في العربية حياة وقدرة على البقاء.

وأما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمر طه في أديه، أو وجد طه ساحة لينال من الرافعي في فله ومذهبه، إلا أن أغثر كنما مات جيبته. وكم قال من مقالات طه حسن قرأها على الرافعي فقال: استمع إيه، إنه يعنيني. وكم قال أملاه على الرافعي أو قرأ أنهه له وجدته في شيأ أعرف من عننيه به. ومرة أو مرتين قال الاستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعي: أرجو أن تعدل في أسلوب هذا المقال، مما ينشر في الرسالة، فإن لا أحب أن يظل طه أنك تعبني بشيء، تنشره في الرسالة وعلي تغطيته عندنا.

ولما ثارت في الجامعة مسألة المسجد والمصلحة في الدروس الدينية، وفضل الفتيا عن الفتيا، قبل موت الرافعي بأشهر، كتب مقالاً للرسالة عمر فيه طه.
وحياً شباب الجامعة، ولم يجد صاحب الرسالة بدأ من نشره. وفَنَفَن الرافعي بقاله ذاك وفَنَفَن عنده وقعة، فأشن تتم له بنوائش شيطان وشيئانة يغمر بها الدكتور طه حسين، ولكن صاحب الرسالة وقفة واحتفج حجة، رعاية صديقه القديم. وكان أول مقال يكتب الرافعي فرده له الرسالة. وقد اغتاظ الرافعي لذلك غيظًا شديداً، وأحسبه مات وفي نفسه حصره منه! ولهنأ على أن أعرف أن أجد صورة هذا المقال لنشرته بحق التاريخ الذي لا يجاب الأحياء ولا الأموات، ولكن: أين أجد؟ صاحب الرسالة يقول: لقد رددته إليه. والدكتور محمد يقول: لم أجد عليه مكتب أبي. وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل (1).

ولم يتلق الرافعي وطه وجهاً لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب في الشعر الجاهلي، ولكن المعارك بينما ظلت مستمرة من وراء حجب، تنتقل من ميدان إلى ميدان.

ولما اشترك الرافعي في المبارزة الأدبية في سنة 1936، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يعطع، لم ينسب ذلك شيء إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة...

وط السهم عنيد...

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبتته على مافيها، ليس فيه رأي ولا رأي أحد معي؛ ولكن شيء مما حكاه لرافعي أو قرأته في كتبه، فكبتته في موسعه من هذا البحث بضمير المتكلم وماله في إلا الرواية، وذلك حسب من العذر إن كان على معتبة أو ملام.

(1) كتب هذا الفصل قبل أن تقع على مسودة هذا المقال، وقد نشرته من بعد في الجزء الثالث من وحي الفيلم.
تحت رأية القرآن

الجديد والقديم ...! هذا ميدان الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره؛ فمنذ
تحلّل أدبهم زعامة المذهب القديم في مقال كتبه مجلة الهلال سنة 1933،
نشط الرافعي ليجادل هذه الدعوة التي يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم
وأديب؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عندنا إلا وسيلة إلى التلاقي في النّيل من العربية في أرفع
 أساسها، وسبيلا إلى الطعن في القرآن وإعجاز القرآن؛ وبابا إلى الزراعة بتراث
الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان. ومن ذلك اليوم نصب الرافعي
نفسه ووقف قلبه على تنفيذ دعوى التجديد، نجعل همّه من بعد أن ينتمي آثار
الأدباء الذين يتسكنون إلى الجديد ليردد عليهم ويكشف عن باطلهم. وما كان
يرى في عمله ذاك إلا أنه جهاد الله تحت رائعة القرآن؛ ففي ذلك كان اسم
كتابه الذي جمع به كل ما كتب في المعركة بين الجديد والقديم، من سنة
1902-1932.

يُلم كتاب لم ينشئه ليكون كتابا، ولكنها مقالات تفرق أسبابها واجتمعت
إلى هدف واحد، وكانت مرّة مبعثرة في عدد من الصحف والمجلات بجمعها
بين دفتي كتاب، فاجتمع بها رأى الرافعي في القديم والجديد على اختلاف
أسبابه ودواعيه وما كتب له؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب
إلى الصفحة المائعة من أربعة آلاف، حتى يختوي الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلا
واحدا هو الدكتور طه حسين بك، ويتوجه إليه الخطاب والرد في كل ما يقال
من صفحات الكتاب؛ فكأنا أنشأه الرافعي وجمع كتابا للرد عليه هو وحده.
وكان هو وحده الذي يدعو إلى الجديد ويتصر له ويدعم رأيته؛ فإذا أوصكت
أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعي ومن رأيه ومن حديثه، لقرأ جلسة
من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن
طه حسين ورأى طه حسين في الأدب في الدين وفي القرآن، ويعتبر فيها
الجدل بين حكومة عدل وبرلمان سعد في شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى
السياسة: وإنها جلسة متناهية خليقة بأن تكون في موضعها من كتب الأدب و
تاريخ النقد الأدب.

وليس الكلاب على استواء واحد في أسلوبه: ففي المقالات الأولى منه
تقرأ رأى الرافعي هادئاً مرتنا فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأي ورحابة صدر
النافذة البريء: فإذا وصلت من الكتاب إلى قدر ما، رأيت أسلوباً وبياناً غير
الذي كنت ترى، وطالعتك من صفحات الكتاب صورة جهينة للرافعي
الثائر المفضّل المثقف، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول، مُرمَّد الشدقين
كابلل الهائج، منتفخ الأنف كأنما يردد الدم، سريع الوُتَب كأن خصا
تراى لنهب ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفز، وهو هنا يعي
طه حسين وحده!

وليس جديماً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دقي
كتاب، فإن هذه المقالات وإن صوَّرت إلى هذين واحدهما مختلف دواوينها
وأسابيع ومن كتبته له، وقد كان يتناولها في التاريخ الزمني سنوات وسنوات،
والكتب المتجددة لا تثبت على لون واحد من عام إلى عام.
على أنك تقرأ للرافعي من هذا الكتاب رأيه في طريقة تدريس الأدب
بجامعة عدادة تأليفها سنة 1908، فقراء يدبو إلى مذهب جديد في تدريس
الآداب، وتقرأ له من الكتاب نفسه ردًا في سنة 1932 على طه في طريقته الجديدة لتدريس الآداب، قرر أن يقرأ عليه هذا الجديد، فعلم من هذا وذالك أن الرافعي لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد، بل كانت غايتها أن يرده إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوته الجديد أن ينقص من القديم ليحصر من ذلك إلى البيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأواخر.

ليس يعني هنا أن أختصر رأي الرافعي في الجديد والقديم، فراجع البحث عن رأيه في ذلك واسعة مستفيدة، إنما قد صدرت إلى تعرف هذا الكتاب إلى قراء العربية في عرض موجز ووصف كافح، أما ما دون ذلك فله من شأن من أهل الرأي والنظر، ولم يغب هذا المجال من الحديث.

واليان سأتراها والفصوص الأولى من الكتاب لتحدث عن أساليب في سائره ويدأ هذا الجزء، بعد الصفحة المائة، وفيه تفصيل ما كان بين الرافعي وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول رسائل الأحزان، إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب في الشعر الجاهلي، وهو فصول عدة، فيها ألوان من النقد مختلفة، وأساليب في البيان متباينة، فيها التحكم المز، وفيها الهجوم العنيف، وفيها المصانعة والحيلة، وفيها رد الرأي بالرأي، وفيها تقرر الحقيقة على أساليب من فنون النقد، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع، وفيها الوقية بين فلان وفلا، وفيها زلفى إلى فلان وفلا، وفيها العلم والأدب والإطالة الواسع العميق، وفيها شطب اللسان ومر الهجاء، وفيها متنا بديع طريف، فيها حكي الرافعي عن كليلة ودمية...
ولكن أكثر هذه الفصول يطرد عن مثال واحد إذا أنت نظرت إليه في جملته، فبدا كل فصل منها بأسلوب أليف من التهكم يقول: الرافع في فنونها عجيبة، حتى بيلغ نصف المقال، ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المقدوم، فيتناوله على أساليب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغي أن يكون عليه النقد الأدبي، لولا عبارات وأساليب هي لازمة من لوازم النقد في النقد إذا كان بينه وبين من ينقده تأري... كتب لها نموذج عال في النقد العالي الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب!

كليلة ودميمة

إن مبادئه الرافع في التهكم قد شققت له فنونا من المعاني والأساليب، لولا الناحية الشخصية منها لكان نماذجها تبدي تعظيم قيمة في أدب الإلهام، وبدع هذه الأساليب حديثة عن كليلة ودمنة وما نقلهمها من الرأي فيها تناول من فنون الأدب. كليلة ودمنة كتاب في العربية نسيج وحدة، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكي منذ كان ابن المقفع، إلا مصطنع صادق الروسي، وكانت أول هذه المقالات اتفاقاً ومصادقة، في مقالة من مقالات الرافع، في طه حسين؛ إذ أراد أن يتهم بصاحبه على أساليب جديد، فبعث كليلة ودمنة ليقول على لنستهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه، فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرأه، فإذا هو عنده يكاد ممن دقة المقالة وقرب الشبه أن يبسطه على المراح، إلى ابن المقفع فلا يشكي أحد في صدق روايته، فنشره
بعد ما قدم له بالكلمة الآتية: "عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنة ليس مثلها عند أحد... ما شئت من مثل إلا وجدته فيها؛ وقد رجعت إلى اليوم فأصبحت فيها الحكاية..."

قال كليلة: "أنا تضرب ل المثل الذي قلت بادمنة؟ قال دمنة: زعموا أن سمكة في قدر ذراع... وهو ضعيف في اختراعه وتهكمه حتى أتهم إلى رأى دمنة في الدكتور طه حسين (1)...

ثم استمر ينقل عن نسخته الخاصة. من كليلة ودمنة ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيها إلى من مقالات في الرد على الدكتور طه حسين، فنشر منها مقالية فصول طريفة متحركة في كتاب المعركة، وإن قارئ هذه الفصول التالية ليرى فيها لونا طريقا من أدب الروائي، الو ن أن الظروف واتنها فائت فأنشأ به في العربية إنشاء جديدا له خطر ومقدار، على أن الرافاعي لم يكن يقصد أول ما قصد أن يشبه كتابا، إنما دفعت إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول، ما لئ من استحسان القراء لهذا اللون الجديد من أساليب التهكم في النقد؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان يعجب بهذا الفصل الثانية من كليلة ودمنة مع ما ناله فيها ما ي험 وبيس، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لما فيها ما ومقدرة...

واتنها الروائي من حدث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة، وظل هملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك، حتى تذكرها في سنة 1933 في إبان المعركة بينه وبين العقاد حول، وحتى الأربعين، فنشر الفصل التاسع منها في البلاغ بعنوان: "الثور والجزر والسكنين" ثم نشر في السنة 1935 الفصل العاشر

المعركة تحت رأية القرآن.

(1)
بعنوان: كفر الذباباء، يعني بها مصطلح كمال (كالأتورك) وحركته الدينية، غفر الله!

وقد كان في مذبحة الرافعى أن يتم هذه النسخة من كلية ودمنة يعارض بها كتاب ابن المفعى أو يلمعه، ولكن لم يوفق، وكان في ذلك خير، فإنها الفصول في موضعها من الكتاب الذي نشرت بها بأجل وأخف، وإنها بالنثر يحملها على تكلف الصناعة، ونبعا بينه وبين أذواق القراء. على أن هذه الفصول للاتصال ببعضها في موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوية متابعة كما تتناوب الفصول والأمثال في كتاب ابن المفعى.

... 

هذا مجلد الرأى وملخص الموضوع في كتاب المعركة تحت راية القرآن، وما أحتواه. وهو كتاب على السفود، خلاصة مذهب الرافعى في النقد وأسلوبيه في الجدل، وفيهما أشياء المراكز الطائتين بينه وبين طه وبيته وبين العقاد، بدائمهما، ورامهما، ولهما المستغرق، ودخانهما الحائر، وغبارهما الكثيف...

لوجد هذان الكتبان من بعض مافيهما لكانا كلاً خير ما أنجبت مرية في النقد، وأحسن مثال في مكافحة الرأى بأ.absolute مع الإطلاق الواسع والفكر الدقيق. ولكن وا斎، فإن الإطار يحجب مافي الصورة من جمال، فنذا غير مالك الصورة. يستطع أن يحكم هذا الإطار لبجل الصورة في جمالها على عين الناس؟

(1) وحى الفيلم - الجزء الثالث.
شاعر الملك

وهذا فصل آخر ما يتصل بموضوع الحديث عن الراقي في النقد، إذ كان هو أول من رفع الراقي، وعبد الله عفيفي. فانئ لاقدم به للقول عن خير ما كان بينهما من الخصومة التي مهدت للراقي من بعد أن ينشئ كتابه على المسقود في نقد ديوان العقاد.

في سنة 1929 كان ناظر خاصة الملكية هو المرحوم محمد نجيب باشا، وكانت السياسة المصرية تسير في طريق ذي عوج، من المهد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشروا حزبا ينسوبون إليه الولاء للقصر، فهوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يعموا أنهم أولا على حقوق الشعب، بحرص على سلطة الأمة؛ فنشأت بذلك قوة إياك قوة، وتناظر سلطان وسلطان، وكان لكل طائفة لسان ويان...

في تلك الأونة تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الراقي أن يكون شاعر الملك، فلقي ذلك العطاف الكريم بحق من الشكر والرضا وعرفان الجميل. وشاعر الملك، أو شاعر الأمير، لقب قديم في دولة الأدب، وله في تاريخ العربية تاريخ، منذ قرن التانتة والنعية، وزهير وهرم بن سان، والأخطل، وبو آمنة، والناشأة وأبو العثماة في بني الوعاب، والخبري في إمارة المتوكل، والمنفي في بطاطس مومل ميلوك لا يحبهم العدو، ولا ننس في تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشعراء: أبا النصر، والليثي، وليس بعيدا ثنا

[النص باللغة العربية]

[النص باللغة العربية]
أمير الشعراو، المرحوم شوق بك، شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية، وقد كان من الولاء والحب لموالاه بحيث لم تطمس النتائج الحاكمة إلى بقائه في مصر، فبعد خلع الخديو عباس فتحه إلى الأندلس.

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعى هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصري، فلما مات تمتلكت الشعراء على وضعه: وكان أكثرهم زلّى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم، إذ كان ما يزال في نفسه شئ يلقي به إليه، ما كان بينه وبين شوق من المنافسة الأدبية في صدر أيامه على رتبة شاعر الامير.

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل، إذ كان آخر مانشر من الشعر هو ديوان النظارات في سنة 1908، ثم لم يقلم بعده إلا قصائد متفرقة في آماد متفرقة. لحادة تبعت لها نفسه، أو خبر ينفهله بجوانبه. وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك، بما سنة 1924، في إبان العاصفة الهوجاء في حب لاختياره، وأكثر شعره منها منشور في كتب الثلاثة التي أنشأها للحديث عن هذا الحب؛ ثم انتهى البلبل ينثى أهازيجه من جديد، على السرية الفينائية في حديقة قصر الملك، فسعت إليه القلوب وأعرفته له الآذان.

واستمر يرسل قصائده في مدح الملك لمسانداته، من سنة 1922 إلى سنة 1930، حتى وقع بينه وبين الإبراشي إبا شا أبا، بعد موت المرحوم يُجيب باشا، فسقط وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة. ويجريان، بعدما أنسى الحسومة بينه وبين عبد الله عفيفيه...

---
وقصائد الرافعي في مدح الملك فؤاد نظام وحدها في شعر المدح، تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر يبت فيها، فتقرأ قصيدة في موضوع عام من موضوعات الشعر، ليس من شعر المدح ولا يبت إليه؛ فولا يبتان أو آيات في القصيدة الحسينية أو السبعية يخص بها الملك ومدحه، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر، تسلكها فيها نداء من أبواب الشعر إلا باب المدح. اقرأ قصيدة الخضراء - يعني الرأية - وقصيدة الصحراء، في رحلة الملك إلى الحدود الغربية، وقرأ أو غيرها؟ فإنك واجد في هذا الذي ذكرته، وواجدنا في الشعر تعرف به الرافعي في المدح فوق معرفة من فنونه، فإذا إحققت هذه الملاحظة في مداخر الرافعي وثبتت عندك، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم تفسيرا من التفسير، أو فارجع إلى تاريخ الرافعي نفسه وذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها.

لقد كان الرافعي يجهل السياسة جهلًا تاماً، ولكن كانت فيه أخلاق السياسة ناضجة تامة: من الاحترام، والروحان، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة، بدليل أنه أخلاق السياسيين في إبداع الحياة والاستعداد للخرج، ولكن لم يكن له في يوم من الأيام إفروئ مع أحد من أقطاب السياسة، أو يعرف له رأيا فيها، أو يندر من خبرها أكثر مما يدرى رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء.

وقد يكن للرافعي أجر على هذا المنصب في حاشية الملك، إلا الجاه وشرف النسب، وجواز مجانى في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد، ودلالوازدها.
على الموظفين في محكمة طنطا الأهلية، حيث كان يعمل جنبا إلى جنب مع مئات من الكتب والمخطوطات وصغار المستخدمين!...

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكي فوائد كبيرة؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتابه "إعجاز القرآن" على نفقة: كما أن في إرسال ولده محمد في بعثة علمية لدراسة الطب في فرنسا; فظل يدرس في جامعة ليون على نفقة الملك إلى سنة 1934 حين شاء الإمبراطور باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر، فقام أبواه بالاتفاق عليه ما بقي. ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر في فرنسا من نفقات الدعوى ورسوم الجامعة، كان يكتب، للرسالة بأجر، وإن عليه من أعماله الخاصة ما ينويه به جسدته وَتَمَهٌّه أصاباه!...

قلت إن الرافعي ظل في حاشية الملك فواد إلى سنة 1930 ثم كان بينه وبين الإمبراطور باشا أمرًا - بعد موت المرحوم نجيب باشا - فسكك، إذ خشي أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس قررته به إلى تلمسا...

حدثني الرافي قال: كنت في عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقاني بوجه طلق، ويتفت بي، ويبسط لي وجهه وجلسه، ويتلغ صدرني بما يروي لي عن عطف الملك ورضاه; فما أعاد القصر إلا وأنا أشعر أن نفي تزداد عمقا وتمتد طولا وتستب سعة; ثم جاء الإمبراطور فلم تُدعني داعية إلى لقائه، حتى كان يوم وجدتني فيه منطقًا إلى هناك، لأسأله في أمر من الأمر (1)... قال: وذهب إلي الساعي بالبطاقة ودعاني إلى الانتظار، جلست وما أظن

(1) يأتي تفصيل ذلك بعد.
إلا أنها دقائق تم أُدْعِى إليه ... وطال بِهِ الانتظار، ومضت ساعة، وساعة، وساعة، وأنا في هذا الانتظار بين الصبر والرِّجَاء؛ وحول من ذوى الحاجات وجوهها طرَافًى ليس على وجهي منا، ونظرت إليهم، وإلى نسيتُم فضجرت؛ ففدت أستأندن عليه وقد جاء بنفيِّي أنه قد نسي مكاني، فعاد إلى حاجبه يقول:

الباشا يعتبر إلى البقا واحدٌ ويسألك أن تصر على غدا في الساعة كما كلٌّ.

قال الرافعي: «وأتي إلى ذلك وقتٍ ونازلتِها، ولكن أعتذر عنك. فأنت كان الذاكر جاهز بالنبي يبعث إلى رُونِّ الناشِب المرحوم أمين الرافعي بك؛ فأذن الهمْ ونقل على، وضاقتُ نفسي بما فيها، وتوزعتُ الوساوس والآلام، وما نسيتُ وأنا أمشي في جنزة الفقيد العظيم أن على موعدا بعد ساعات، فنا هيل على التراب حتى كنت في طريق عُدُوَّا إلى القصر وفَعَّاءُ الهدى الذي استهدَّت، وجعلت من وراءِ خُفْرٍ ما علي من واجب الجاهلية لم تَحْزَبْنِي في أخني وابن عم وصاحب الحقوق على. لقد كان الذي لم يُعْطَه من زعام الوطنِية ومقداره، ولكن جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علي من الواجب للزم يِنَّاه مات: وإن لك أخرى، وإن في أعرافه من دم وفي أعراف!...

قال: «ووقفت بالباب أنظير أن يؤذن لي فأدخل، وطال بِهِ الانتظار كذلك وإن في دمي جمرات تنهب، ومضت ثلاث ساعات وأنا في مجلسٍ ذلك أطلعت وجهي الداخلين والخارجين في غرفة الباشا ولا يؤذن لي ...»

قال الرافعي: «وهاجت كبرياني وثارت حماني؛ لا أشكرك يا بني، إن في حافلة ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد ازدادت إلى في أصلاب أجدادي من النسب البعيد؛ ولكن صرامة عمر حين اندلعت إلى صارت حافة;...»
فهذه الحماقة عندى يابني هي تلك البقية من صرامة عمر، بعد ما تنطق إلى هذا الزمن البعيد في تاريخ الإيجال...!
قال: "ولما بلغ الحنق في مبلغه نهضت وفهي يدى عصى، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مخض محقق، فإذا أنا أمام الإبراشي باشا وجهًا لوجه، وإلى جانبه رجل أوريبي يخطبه... فلم أقابل، ولم أكثرت، ولم أذكر وقتذ أين موضعى وموضعه، فقال: ما كنت أريد أن أقول، وانتصفت لنفسى، وتأثرت لكبرياء. وأحسنى قد خرجت يومن ذ عن حدود الأدب اللائق في الحديث معه، ولكنني لم ألق بإلا إلى شيء من ذلك. وما كان في نفسي إلا أنني قد قلقتما ينبغي أن أقول لأحفظ كرامتي وأصون نفسى، ولا على بعد ذلك من غضبه أو رضاه...
ولكن... ولكنه مع ذلك لم يغضب، ولم يعتب، بل اعتذر إلى وألح في الاعتذار... وصدقته حين أنبى...

وأسرها الإبراشي باشا في نفسه: فلما كان الموسيم التالي نظم الرافعي قصيدته وأرسل بها إلى القصر، وشرفت حروفها مسكونة في مطبعة دار الكتب، كما جرت العادة - ثم أرسلت بحروفها مجموعة إلى الجريدة المحتركة، ومعها قصيدة أخرى مرسومة مسكونة مرتبة، من نظم الأستاذ عبد الله عفيفي الحجز العربي بديوان جلالة الملك، ونشرت القصيدةتان جنبًا إلى جنب في جريدة واحدة، وعلى نظام واحد، وكلاهما في مدخ الملك، فما يفرق بينهما في الشكل

(1) تشبه هذه السلكمة أن تكون هي كلة الرافعي بنصها كما حكاها لبود كتبها في مذكرتي بعد حديثي بسياح تاليم أنقلها من هذه المذكرة.
لا توقع الشاعرين في ذيل الكلام.

وقرأ الرافيعي قصيدة مناشفة الجديدة، فثار وزجر، وقال لمن حوله: أترون كيف يصنع بي؟ إنه يريد أن ينال مني (يريد الأبراشي) أهذا شعر يُذكر إلى شعرى؟ أيناني وإياه على سواء؟ أيحسب أرئ الادباء سيخدمهم هذا الزخرف في الطباعة فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقى أو يجعلونني شاعراً من طبقته؟ أيناني من الهوان بنزيلة الذي يرضى عن هذا العمل؟ أفهم أن يمهل لصاحبه حتى يخلع عن مرتبته، شاعر الملك، ليجعله مكاني؟ أه يراه أهلا لقياسى النزلة والمقدار عند صاحب التناج...

ومضى الرافيعي يوجه يفكر ويقدر، وما كان إلا في مثل حال الرجل الذي يعود إلى داره التي يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعدة لاحقة، فما يجد له حيلة في إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضى... وكان القاضى عند الرافيعي في هذه القضية هو الرأى الأدبى العام، فرفع أمره إليه...

وتحدث بينه إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور، فأوسع له صفحات من مجلة ليبدأ الحلة على الأستاذ عبد الله عفين في مقالات عنيفة صارخة بعنوان: على السفود!

وما كان الرافيعي يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر؛ فإنه يريد علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات، فتنكر وأخيته نفسه...
الرافعي وعبد الله عفيفي

لم يكن عبد الله عفيفي خصاً للرافعي على الحقيقة، ولا أحبس أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعي إليه؛ ولكن عبد الله عفيفي في مكانه من ديوان جلالة الملك، وفي موضعيه عند الإبراشي باشا؛ قد دارت به المقادير دورتها حتى وقته مع الافاعي ووجها لوجهه، وجعله بالموضع الذي لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظهر به. ومن هنا نشأت الخصومة بين الافاعي وعبد الله عفيفي.

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التي نشبت بين الافاعي وأدابه، إذ أنهما لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة شاعر الأمير؛ على حين كانت أكثير خصومات الافاعي ذبابة عن الدين وحفاظات على لغة القرآن، فما كانت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزنى والمروق والإلحاد: أما هنا فكانت المعركة تدور ومافيا إلا التهمة بالغفلة وفساد الدوق وضعف الرأي وقلة المعرفة... وما بد من أن يكون في نقد الافاعي أحد هذين اللونين: الاتهام بالزنى، أو الاتهام بالغفلة، ولا ثالث لها. ومن هنا فقط نستطيع أن ندعم أن الافاعي لم يكن موقعاً للنقد، مع أهلته واستعداداته وإحاطاته الواسعة وإحساسه الدقيق؛ إذ كان أول ما ينبغي أن يتصف به الناقد هو عفقة اللسان والقصد في التهمة وضيق النفس...! وثمة شيء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات: هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد، على حين ظل الطرف الثاني صامتاً قاراً في
موضوعه لم ينس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع...

كتب الرافعي مقالات ثلاث بعنوان "على السفود"، في نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفي في مدح الملك — والسفود هو الحديثة التي يشوى عليها اللحم — وهو عونان له دلاله، وفيه الإشارة والرمل إلى ما حوله هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والندق الحامي، وإن لم يكن توقيع الرافعي في ذيل هذه المقالات، ولاكان يريد أن يعرَف أن كاتبه — فإنه خرج عن مأولته في الكتابة وفي نمط الكلام، فاسترسل ما شاءكأنه بحثته في مجلسه إلى جماعة من خاصته، لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عرية اللفظ، بقدر ما يعني أن يتآدى معناه إلى قارئة في أي أسلوب وباية عبارة، فكثير الحشو في هذه المقالات من الكلمات العامة، والنقاط الدائعة، والأمثال الشعبية، ولكن لا يستطع أن يتخلص من كل لوازمه في النقد والكتابة، فقيت له خفة الظل وحلوة اللفظ وقوة النقد، إلى بعض عبارات في أسلوبه تم عليه وتكشف عن سره.

و لم يذكر الرافعي حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصره حظوة عند رئيس الديوان الملكي، وأن هذا الشعر الذي يُذْقه ويكشف عن عينه إما أنه أنشأه ناظمه في مدح الملك. أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بناجاً من التهمة لأنهم لم يوقع بإمتهانه على هذه المقالات؛ فلم يتحجَّز ما كتب وألذي القول على سجيته في صراحة وعنف وقوسوا، ولم يست嘱 الأدب اللائق وهو يتحدث بما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذي يقال في مدح الملك ولا ينبغي أن يقال، جاء في بعض كلامه عبارات لا يسغيها الدوق.
الأدب العالمي

الدبي العام

الأدب العام عندما يتصل موضوع القول بالملك الحا، الذي يحكم ويدين له الجميع بالولاء، وكما ركبت طبيعة غير طبيعية حيث حتى أنه يكتب في تقد شاعر من المناظر يبذع ملكاً من ملكolv التاريخ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبي الخالص من دون ما ينبغي أن يراعي من التقاليد واللقاء السياسية عند الحديث عن الملوك...

وانتهت أول هذه المقالات إلى القصر، فالتآلف إلى الآذان، وتشاس القراءة، همسا خفيف، ثم جهروا يتساملون: من يكون هذا الكاتب؟ ولكن أحداً منهم لم يفتين إلى ولم يعرف الجواب، وأنذروا دسوسا إلى الإستاذ إسماعيل مظهر وصاحب العصور، يستفسر: هل يطلب منه الجواب.

وُنشر المقال الثاني والثالث، فلم يثبت أن أنكشف السر، وعند الراهي على نفسه بلسانه في جالسية الخاصة... أو لم على أسلوبه وطريقته في النقد.

وجاءت سائل من القصر يسأل واليَ بوصفه من ساحة الخير في أسلاو السياق البارع: «كيف أتأذن لنفسك أن تقول ما قلت في شاعر الملك؟ وくん تكتب عن هذا الأسلاو؟ أتفيق مع الولاء لصاحب العرش إن لم تكتب ما كتب لتصرف الشعراء الخواص عن ساحة الملك؟ أم ترى ألا ينطق أحد بالنائط على صاحب النجاح؟ أو لا يكون اسمه على لسان شاعر؟ أم هي دسسة

تصنع الأدب لنفس المشاكل من رعيه من بابه...؟»

وغض الراهي وبيته، وتبتين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة برعة، وأنا الإبراشي بابا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف ليتمل لكبربه، إلى مسأة الراهي يحقوه منذ بضعة أشهر...

(17 - حياة الراهي)
وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبئئة، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه. وانقطع ما بينه وبين القصر من صلاته، إلا الصلوة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته. وكان أخوف ما يخفى الرافع أن تكون خامة ذلك هي أقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين.


لقد كثرت ما استغل خصوم الرافع السياسة، لينالوا منه، ولقد كثر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشي باشا في م昼夜 سلطة الأمة، وأنه صنيعته وموهته؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافع والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة. فا انقطعت صلة الرافع بالقصر إلا في عهد الإبراشي، وما كان معه يوما على صفاء؛ على أنه كان تلبدًا معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافع.

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافع غداً دخل دولة الإبراشي، فضلاً مؤثرًا.. بعبارات بلغة في صحيفة من صحيف الشعب (1) يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب، وكان من براهيته على ذلك أنه أصلع الرافع لحربه بقلمه وسلطة الأمة، وقرأت هذه المقالة مع الرافع، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مريرة، ثم قال: هذا أدبي يتحدث عن جناية السياسة على الأدب...

(1) هو الدكتور طه حسين في جريدة الوادي، وكان يصدرها في تلك الوقت، للدفاع عن سلطة الشعب بعد أن فسر ما بين طه حسين والأحرار الدستوريين فعزلته حكومة إسماعيل صدقي من وظيفته في الجامعة!
أرأيت ...! صدق! لقد جنت السياسة على الأدب(1)

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة؛ على أنها أنشأت بينهما خصومات صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه، وظلت مع الاستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالازهر...

فلم تأت شوق أمير الشعراء في خريف سنة 1932، كتب الرافعي عنه مقالة المشهورة في مجلة المقنطرية، وذكر فيها ذكر فيه أن شوق لون مصر لمصر شاء المقصود، ولأن الطبيعة المصرية لا تعبر على إنضاج المواهب الشعرية ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس.

هو رأى أبادها في أباد من الرأى، لم يقصد به التعريض بأحد أو الخط من مقداره، وقد يكون رأى إلى الخطايا أو إلى الصواب، وقد يتكافأ نه نكتنا الخطاء والصواب، ولكنه رأى أباده الرافعي مجرد من الهوى، لا يعني به إلا أن يستوفي عناصر بجنته؛ ولكن خصمه تداولوه على ألوان وفوق.

أما طائفة تمالت به إلى السياسة، وقال قائلهم: هذا رجل ليس منا، يريد أن يشرك فضل مصر عليه وعلى الله، فيبتهما بالعقل وركود الذهن وجود العائلة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعاه. ذلك سلامه موسى!

(1) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا ؛ المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء، الذي نرجو أن نستطيع تهيئته للنشر قريبًا، إن شاء الله!
وأما ثانية فقالت: وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين لجربنا من
الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثنى أبدا إلا من أخدود إلى مصر وفي أعراضه دم
غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعائهن وتسننه رأيه بما تسوق من
الأمثال وتذكر من أسماء الشعراء المصريين.

واستناد عبد الله عفيفي قلبه ليكتب في جريدة "البلاغ" مقالات أسبوعية
عنوان "مصر الشاعرة"، يذكر فيها من شعراء مصر في مختلف الأجيال
منذ كانت مصر العربية، ماراه رداً على دعوى الرافعي. ومض في هذه
المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد، ثم ملّ هذه النغمة فراح
يتصدّق موضوعات أخرى من مشاهداته وإرائه في الناس والحياة: ولكن
عنوان "مصر الشاعرة" ظل على رأس هذه المقالات يبحث عن
موضوعه ... فكان حسبه في هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان في الرد
على الرافعي!

... 

وقد ظل الرافعي إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك، ثم ما كان
بيته وبين الإبراشي وبين عبد الله عفيفي. وما كانت تظهر للأساتذة عفيفي في
الصحف مدبحة ملكية، في موسم من المواسم أو عيد من الأعياد، حتى يتناولها
الرافعي فيقرأها إلى آخراها، ثم يلفتت إلى جلبه فيقول: ماذا رأيت فيها
من شعر ومن معنى جديد؟ ثم يسترسل فيها تعود من المزاوج والتندير.

وقد ذكرت فيما قدمت من هذه الفصول أن الرافعي كان يسمى كل جميلة
من النساء "شاعرة"; فهنّ كالمتنبي، ومنهنّ كالبختري، ومنهنّ بشار بن برد،
ومهن عبد الله عفيفي.
فهذه الأخيرة عنده هي ذلك النوع، البلدي، من نساء الطبقة الثالثة، التي تبدو مفروسة بحبوكة الأطراف، في ملاءتها السوداء، غضة بضعة، تستويك بجمال الجسم دون جمال المعنى، وفيها أبوة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقم الخمال...

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيف - فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ، وما شهدت إلا بما أعلنت وعلى تبعة الرواية وعلى غير تبعة الرأى. والأساتذة عفيفين في نفس على الرغم من ذلك كل إجلال واحترام!

...

حاشية: كتب هذا للطبعة الأولى من هذا الكتاب، فلما تكرد تلك الطبعة تظهر لقراءتها حتى كتب إلى المرحوم عبد الله عفيف رسالة على الشعر الملكي يطلب إلى فيها أن أحدث زماناً ومكاناً للفقاهة؛ فلم ينبغ على أنها دعوة للحديث في موضوع يتصل بما نشرت عنه في هذا الكتاب، فقرر أنها تكون جواباً على هذه الدعوة أن أذهب إليه، تكرمة له. وكانت يومئذ من العمل في زمالة، ففي أيام قليل أن أذهب إليه، واستبطأ المرحوم عبد الله عفيف جواباً فتحدث إلى بعض أساتذته يسأله أن يكون رسولًا إلى، ثم استبطأ فبعث رسولًا ثانياً... وحسب الرسولان بما لاحظهما على من حق الأستاذية في المدرسة وما إلى آخر من حق الرياسة في عمل بالحكومة، ولقد ذاك أنهم يملكون أن يقولان لم يرام إلى حيث ألقى السيد عبد الله عفيف وأعتذر إليه، ولكن ردتهمما رداً جميلاً، ولكن المرحوم عبد الله عفيف - فيها يبدؤه، كان حريصاً على أن يلقاى ليحدث إلى حديثاً ما، فبعث إلى رسولًا ثالثاً مترفقاً في حديثه، فلبيت الدعوة ولقي الرجل في منزل الأستاذ
عبد اللطيف المغربي بالعباسية، وجلس إليه أستمع إلى ما يقول... قال: "لقد ذكرتني بما لا ينبغي في كتابك وكان حقاً عليك أن تسألني قبل أن تكتب عن لتعرف وجه الحق فيها رويت!...
قلت: "إني في كتابتي لم أكن صاحب رأي، وإنما أستندت ما كتبته إلى راويه!...
قال: "ولو كان راويه كانذا دجالاً...
قلت: "صهر! ذلك رجل مات فدع عند ذكر، وحدثي بخبرك ووجه الحق فيه!...
قال: "قد علمت أنك على نية إصدار كتاب عن المؤثرات السياسية في جيل من الآباء: فصحح عن بعض ما رويت وذكر أنني لم أكن صناعة الإبراشي باشا، وإنما عرف مكانياً، وهم لا أسبابي توافق نسيم باشا...!
قلت: "ولكن ذلك ليس من شأني: فسأذا يعني أن يكون الذي هو أيك الأسباب هو الإبراشي أو توافق نسيم وإنما حديثي عن الرافعي أو عن المؤثرات السياسية في الآدب...
فمس الشيخ على شفته وترثي برها، ثم لطف أسولبه ورقه، وقال: "أنا أعني... ثم عاد إلى الصمت ليستأنف حديثه بعد قليل قائلًا: "أنت تعرف أن الموظفين في القصر ينغيي ألا تعلق بأسمائهم شبهات سياسية، فلست أحب أن يذكر اسمه إلى جانب اسم الإبراشي باشا...!
قلت: "قد فهمت!... فهل فهم القراء؟
نعم، فقد كان الإبراشي باشا يقوم منذ موضع السخط، على حين كان المرحوم
الرافعي والعقد

لقد مات الرافعي - رحمه الله - فانقطع بموعده ما كان بينه وبين خصومه من عداوات، وما أريد أن أوقت فتنة ناهية ينتونا همها أول ما يتناول، فما في طاقة إلا حمل العداوة، ولا استنكر على عنت الخصومية، ولا احتفال على مشقة الجدل، وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جده الجاحدون فهبطت له الوقوف، فإنه كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يقول أو يبنى، فما ذلك أردت ولا إليها قدصت ولا به رضيت، ولكنها أمّة

وفيما يلي نص من المكتوبة:

توفيق نسيم باشا في موضع الرضا والحظوة، فلا أسان أن يذكر أن عبد الله عفيفي كان صنيعة توفيق نسيم لأصبيحة الأبراشي.

وقد قلت في التمهيد لهذا التاريخ إلى راوية لإحصاء رأي، فلذاذر إذن أن كل ما كانت بين عبد الله عفيفي رحمه الله من الخلاف هو من الذي اصطنه!

الرافعي والعقد

هل تبقى هذا الكتب من أحلام البيات؟
ما لا يبقى منه لكتب من كتب العربية في صدر أيامها؟
عباس قمر الغداد.

ذلك كان رأي العقلي في أدب الرافعي قبل بضع عشرة سنة من هذه الخصومة التي أروى خبرها، وشتان بين هذا الرأي يودي العقد سنة 1917 في مقال ينشره لعرف كتاب من كتب الرافعي أنشأه في ذلك العهد، وبين رأيه الأخير في المهداة الأصم مصطفى صادق كما يصفه في سنة 1933.

لقد مات الرافعي - رحمه الله - فانقطع بموعده ما كان بينه وبين خصومه من عداوات، وما أريد أن أوقت فتنة ناهية ينتونا همها أول ما يتناول، فما في طاقة إلا حمل العداوة، ولا استنكر على عنت الخصومية، ولا احتفال على مشقة الجدل، وإنما هو تاريخ إنسان له على العربية حق جده الجاحدون فهبطت له الوقوف، فإنه كنت أكتب عن أحد من خصومه أو أصحابه بما يقول أو يبنى، فما ذلك أردت ولا إليها قدصت ولا به رضيت، ولكنها أمّة
أصلها كارها، وأضطلع بعبيها مضطراً، لاؤدتها إلى أهلها كما نأدت إلى. وإن لاعلم أن بما أكتب من هذا التاريخ أضع نفسي بالوضع الذي أكره، وأتعذر بها لما لا أوقع، ولكن حسي خلوص النية، وبراءة الصدر، وشرف القصد؛ ولا على بعد ذلك مما يكتب فلان، ولا ما يتوعد به فلان، فإن كان أحد يريد أن يصل في ما كان بينه وبين الرافع من عدوانة فأنقطع، أو يربط في رابطة كانت بينه وبين فلان فانقسمت، أو يتحذ من الاعتراض على زلني إلى صديق يلمع ودته، أو يجعل ما يكون بين بينه وبينه سيلى إلى غرض يرجم النفاذ إليه، أو وسيلة إلى هوى يسعى إليه. إن كان أحد يريد ذلك فليس يمضى على إرادته، وإن لنهج الذي رسمت، فلتفرق بما الطريق، أو تلق على سواء، فليس هذا أو ذلك بما نعني من المضى في سبيل،

ومن الله النور ورفيع

وهذه خصومة أخرى من خصومات الرافعي ومعركة جديدة من معارك، وإنما لأشعر حين أعرض لنبي المشتري فأذكر ما كان بين الرافعي والعقاد، أن كمن يدخل بين صديقين كان بينهما في سالف العمر شاملاً، ثم مسحت على قلبهما الأيام فنصاف، فإنه ليدكرب بما لا ينبغي أن يذكر. والموت يحمي أسباب الخلاف بين كرام الناس؛ فإذا كان بين الرافع والعقاد عدابة في سالف الأيام فقد انقطعت أسبابها ودواعيها، فإن بينهما اليوم لبرزها لاتجتاز الأرواح إلى آخرها إلا بعد أن تترك شهواتها وأحقادها وعواطفها البشرية؛ فهنا ناموس وهناك ناموس، ولكن عالم قوانينه وشريعته؛ فما خُلُص ضوضاء الحياة إلى آذان من في القبر، ولا ينتهي إلى الأحياء من عواطف الموتى إلا ما خلقتها من الآثار في دنياه.
هنا رجل من الأحياء، وهناك رجل في التاريخ، وتشان ما بهما وểnاء؟ قُل للآخربة اليوم عن خصومة قاتمة، ولكن أخذت عن ماضي بعيد، والرافع الذي يبي بر ذكرته اليوم بينما غير الرافع الذي كان، فأنا ينفي أن تحدد ذكراء ما فكره.

لم يكن بين الرافع والمعقد قبل إصدار الطبعة الملكية من إنجاز القرآن غير الصفا والود: فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئا كان هو أول الخصام...

حدث الرافع قبل: سعيت لدار المتطرف لامر، فوافق الرافع هناك، ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقائي بهم فاعتنى بديلا من ذلك إلى نفسه بما ألمتني نفس، وقلنا نتحدث، وسأله الرأي في إنجاز القرآن، فكانت واشتهيت حجر في ماء آسان... فضيه يتحدث في حاسة وغضب وانفعال كان تأرا بينه وبين إنجاز القرآن. ولما كان لطمته وترجيته في الكتاب نفسه لحن على، ولكن حديثه عن الكتاب جرى إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إنجازه وعيمه بهذا الإنجاز... أصدق القول يأني: لقد ثارت نفس سايعت ثورة عنيفة، فكدت أفنى شيئا، إن القرآن لاكم ومعه...

ولكني آثرت الأناء...

قال الرافع: دوأخذت أناشقه الرأي وأفاده الحوار في هدوء، وإن في صدرى لم يلببه؛ إذ كنت أخفض نفسه فأزعم لها أنه لم يتخلي نفسه هذا الأسلوب في الهجوم على فكرة إنجاز القرآن إلا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف.

وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعا به؛ فأخذت مهله في الحديث، على هدوء، وثورة أعصابه... ولم أفهم إلا من بعد ما كان يدعو إلى ما ذهب إليه...
قال: "لقد كان العقاد كتاباً من أكبر كتب الوفد، ينفع عنه ويدعو إليه بقلبه وسناه عشر سنين، وإن له يعرفه عند سعد بن مالك، ليرى للكتاب من الأدب، وأيدهupon سعد حقاً، ولكن سعدا مع كل ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه، وكأنه يتنزل من النزيل، أو قبض من نور الذكر الحكيم، وكتبها للرافعي وليس له عليه حق بما عليه للعقد.
قال الرافعي: "... من هنا يسبي كنت تثورة، كانت ثورة الغيرة، لثورة الآداب النافذة الذي لم يقع بما كتب الكتاب عن إبجاع القرآن فهو ينسف المعرفة والاعتقال. وعرف ذلك من بعد، فما بدأ على ما فيه نسب من الانفعال، وميضت معه في الحديث في وجه جديد. قلت: أنت تفجع فضل كتابه، فهل تراك أحسن رأياً من سعد؟.
قال الرافعي: "وهم ما أعنيه فقال: وما سعد؟ وما رأي سعد؟
قال الرافعي: "وتطويت الورقة التي كان يكتب فيها حديثه(1). فقبضت عليها، جديت يم قلته: أقتراها تصرح برأيك هذا في سعد لقرائك وأنت تأكل الحب في مدحه والتعلق بذكرائه... قال: فكتب إلى هذا السؤال في صحيفة من الصحافة تقرأ جوابي كما عرفته الآن...".
قال الرافعي: "وابتسمت لقوله ذلك وأجبته: يا ياسين، إن الرافعي ليس من الحقيقة بحيث يسأل هذا السؤال في صحيفة من الصحافة فتنتشر السؤال ولا ترد عليه، فيكون في سؤال وفي صمتك تهمة بي، وتصلك أنك عند قراءك حازماً أرياً بريتا من التهمة خلصاً ذكرى سعد!".

(1) كان الرافعي أعمى كما يعرف القراء: فن ذلك كان أكثراً ما يدور بينه وبين الناس من الحديث كتابة في ورق...
قال الرافعي: وما قلت ذلك - وإن ورثته في يدي أشد عليها بأنامل - حتي تقصّب وجهه، وتفقّلت عضاتته، ثم قال في غيظ وحين. ومع ذلك فسأ لك أن وسعد؟ إن سعدا لم يكتب هذا الخطاب، وكذلك أن كتببه ومروّرده، ثم تحلّته إياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب.
قال الرافعي: وما أطلقت الصبر بعد هذه التهمة الشنيعة، ولا ملكت سلطاني على نفسي، فهممت به... فدخل يبني الاستاذ صروف. فدعا العقاد أن ينادى المكان ليحمّيل العراق ويفض الثورة، خرج والباب يصح في فتى (1).

هذه رواية الرافعي، حدث فيها غير مرة في غير مجلس، كما تحدث بها إلى غير من أصدقائه وخاصته؛ فسأ له فيها إلا الرواية والتصرف في بعض الكلام، تأدبًا مع العقد وكرامة لدى الرافعي.
وقد بدا لي أن أسوق من حديثي به الرافعي، فقد قصدت إلى الاستاذ صروف - محترم المقتطف - أسأله الرأي في هذه الرواية؛ إذ كان من شهود الحادثة على ما رواها الرافعي؛ فقال:

هذا الحدث في جملته وفي موضوعه لا اعتراض لي عليه، وبقدر ماقطعوني الذكر أستطيع أن أجزم بأن شيئاً من ذلك قد كان؛ ولكن الذي

(1) عرضنا لدعو العقد أن الرافعي إذا أصفع كتاب سعد وحلف إياه ليروج
به عند القراء؟ إذ كان اسم سعد كطالب التجاري لبيضة لا تبورة؟ وقد رجعنا إلى
الاستاذ محمد إبراهيم الجريزي سكرتير سعد تزعم فأكد لنا صحة هذا الكتاب، وزاد
إلى هذا في مذكراته عن سعد.
رواه لك الرافعي من حديث العقاد في هذه المناطرة لا يشبه نصه؛ فقد يكون هذا形成的 ما قال ولكنه ليس به، والرافعي - رحمه الله - كان أصح، ولم يكن كل الحديث بينهما مكتوباً، وقد قال العقاد في مناظره كلاماً لم يكتبه ولم يسمعه الرافعي ولكنه تخيله على ما أحسب، فكانت روايته للحدثة من بعد معنى
يرويه لا لفظاً يعكسه.

... ولكنني مع ذلك لا أتساءل ما كان من حديث العقاد في هذه المناطرة
عن القرآن وإيحاء القرآن، ورأيه في ذلك يعرفه أصحابه.

ثم لا أدرى من أي جاه الرافعي أنني دعوا العقاد أن يغادر المكان.
فأنا ينبغي لي هذا ولا هو من آداب وإنها لضيفان في دارى؛ وأحسب أن الرافعي قد فهم ذلك خطأ حين رأى العقاد يغادر المجلس.
قلت: وقد أطلعني الرافعي على ورقات قال إن العقاد كان يهدده كتابة
فيها، وفيه عبارات تبرهن على صدق الرافعي في روايته. ... كما أشار الرافعي
في كتابه على السفود إلى طرف من هذه المحاوره، وإلى هذه الورقات التي
يجتنب بها برهاناً على بعض ما يصف به العقاد (1).

(1) على السفود: ص 12
على السفود

وفق الراقي من مقالات عبد الله عفني التي كان ينشرها بعنوان "على السفود"، ذهب مرة لزيارة صديقه الاستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور وما يزال في نفسه شيء ما كان من المحاورة بينه وبين العقاد، فسأله الاستاذ مظهر تسليمة هذه السلسالة في نقد الاستاذ عفني، فأعتذر الراقي وقال: حسب ما كنت عنه وحسبه، قال مظهر: فافتك عن غيره من الشعراء، إن في هذه المقالات لما يذرؤه الذين يريدون أن يخرحو بالندع عقولهم من عادة الشخصيات ووسائل الصحافة.

فانتبه الراقي إلى شيء في نفسه، وجلس إلى مكتب في دار العصور فكتب مقالة الأولى عن كتاب على السفود في نقد العقاد، وتوالت مقالاته من بعد في أعداد المجلة متتابعة في كل شهر، فلما تمت هذه المقالات، نشرها الاستاذ إسماعيل مظهر في كتاب قدم له بمقدمة بإمضائه بينها ما دفعته إلى نشر هذا الكتاب الذي لم يكتب على غلافه اسم مؤلفه، ورمز إليه بكلمة "بقام إمام من أمة الأدب العربي"

•

إن هذه الخصومة العنيفة بين الراقي والعقاد قد تجاوزت ميدانها الذي بدأ فيها وفصولها التي كانت تدور عليه، إلى ميادين أخرى جعلت كلا من الأدباء الكبيرين ينسى مكانه ويغفل به، ليلغ في عرض صاحبه ويأكل له من غير أن يتذم أو يرى في ذلك معاية عليه، وكان البداية بإعلان هذه الحرب هو الراقي في مقالاته على السفود...
هم ثلاثة أو أربعة من كتاب العربية في الجيل الحديث كانت لهم هذه الحلقة المرئية في النقد وفي أساليب الجدل؛ هذين اثنين منهم، وكان للرافعى مع كل واحد من الاثنين الآخرين معركة، على أن أشد هذه المعارك عناها وأبعدها عن حدود الأدب اللائق هي المعركة بينه وبين العقاد!

وكان بد. هذه المعركة هو ذلك الحديث الذي دار بين الرافعى والعقاد في دار المقططف، حول حقيقة إجاز القرآن، وكتاب إجاز القرآن؛ وكان للعقاد فيهما رأى غير رأى الرافعى، فكانت غضبة الرافعى الأولى لكرامة القرآن والعقاد ينكر إجازه، ولكنها والعقاد يجد فضله: فكانت الغضبة الثانية للنخبة التي رماها بها العقاد حين وجهه بأنه افتري كتاب سعد وخلقه إياها في تقريط إجاز القرآن ليروج عند الشعب...

فترة سبب عام أنشاء هذه الخصومة، هو إيمان الرافعى بإجاز القرآن إيمانا لا يتناوله الشك؛ وسبحان خاصان: هما رأى العقاد في كتاب الرافعى، ثم تهمته له بأنه مفتر كذاب ...

مرأى أي هذه الأسباب الثلاثة هو الذي أثار الرافعى فدفعه إلى الخروج.

عن الوقار والأدب الواجب فيها أنشأ من مقالات على السفود ...؟.

الرافعى يقول: إنها غضبة الله والقرآن. والرسول رأى لست أدرى أيفارق هذا الرأى أو يثبتن وإياب على سواء ...

ولكن كتاب على السفود مع ذلك لا يتناول مسألة المسائل في هذا الخلاف، فلا يحدث إلا عن شعر العقاد وديوان العقاد، ثم عن أشياء خاصة تعترض في فضل قول وحشو الكلام؛ فأين هذا ما دارت عليه المعركة من أسباب
الخصام ... الرافعي يقول : هذا أسلوب من الردة قصدت به الكشف عن زيف هذا الأديب والزراية بأدبه؛ حتى إذا تقرر مزلته الحقيقية في الآداب عند قراء العربية، لتراميم يستمعون لرأيها عند ما يهم بالحديث عن إجاز القرآن. وهل يحسن الحديث عن إجاز القرآن من لا يستقيم منطق العربية في فكره ولا يستقيم بحثها على لسانه؟... هكذا يقول الرافعي! .. وهم تم بدأ المعركة على أعين القراء...}

يقول الاستاذ إسماعيل مظهر في مقدمة كتابه على السفود :

« أردنا بنشر السفود أن نرضي من أنفسنا نزعتها إلى تحرير النقد من عبادة الأشخاص، وذلك الداء المستعنى الذي كان سببا في تأخر الشرق عن لحاق الأمة الأخرى... 

ونقدم بهذه المقدمة تعريفا لما قمنا من إذاعة هذه المقالات الانتقادية التي أعتقد بأنه لم ينصح على مناها في الآداب حتى الآن. وعسي أن يكون السفود (مدرسة) تهذيباً من أخزائهما كبراءة الوهف، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة! ... 

أما أن تكون هذه المقالات الانتقادية لم ينصح على مناها في الآداب الحديث ففقم، وأما أن تكون مدرسة للتهذيب ومثالاً يحتذيه التقدمة فلا فليس بما من حاجة إلى أن يحتذى النقد هو هذا المثال في أسلوب النقد والجدل فيزيدوا عيباً فاحشاً إلى عيوب النقد في العربية. »
والحق الذي أعتقد أنه في هذا الكتاب - على مافيه - نموذجا في النقد يدل على نفاذ الفكر ودقة النظر وسعة الإحاطة وقوة البصيرة العربية وأساليبها، ولكن فيه مع ذلك شيئا خليطاً بأن يطمئن كل مافيه من معالم الجمال فلا يبدو منه إلا أدم الصور وآفي الألوان، بما فيه من هجور القول ومر الهجاء.

ولنكن هذا مذهباً معروفاً في النقد للرافعي وخصمه واثنين آخرين من كتاب العربية في هذا الجيل - إنا لنريد الناقدين في العربية أن يكونوا أصح أدباً وأعف لساناً من ذلك ...

ذلك رأى قلته للرافعي - يرحمه الله - فها أنكره على ولا اعتذر منه؛ فنا يعنى اليوم شيء أن أعلنه صريحاً إلى الأدباء. ولقد هم الرافعي منذ سنوات أن يجمع كل ماكتب في النقد بعد كتاب، المعركة، في كتاب واحد؛ فأبدت له الرأي أن يضم إلى هذا المجموع مقالات على النفس، بعد أن يجردها بما يعيبها حرصاً على مافيها من الفن؛ فارتجل هذا الرأي واطمأن إليه، ولكنه لم يفعل، إذ حالت الحوائل دون تنفيذ فكرته.

ولنكن لحصارها أن ترى الثقل الفنى البديل مموراً في الوحل فلا تصل إليه إلا أن تخوض له إجابة المنتمي، وهبات أن تقبل عليها النفس؛ فإنها لحصارة على العربية أن ترى هذا الفن البديل في النقد يكتشفه هذا الكلام النازل من هجر القول ومهرجاءها.

ولقد كان الرافعي نفسه يعترف بأن في الكتاب لم يكن ينبغي أن يقول، ولكن خطسه بما قال فيه كان يملك أن يسوقه إلى المحاكمة؛ ولكن الرافعي مع ذلك كان مطمتعاً إلى شيء آخر ...
قال الرافعي: «... قال لي قائل: لقد قلت في العقد ما كان حريا أن يقفه ول يكن أمام القضاء! ... قلت: ولكن كنت على يقين بأن العقد لن يفعلها! إن كنت أباح العقد بمثل أسولته في النقد، وإن معى لورقات بخطه لا يبره أن أجعلها دفاعي أمام المحكمة فيخبر أكثرنا يرج: ولقد قرأ من هذه الورقات على مستشار كبير فأيقن بما أنا موافق به وحكمت لي حكمته!...!

إذاً الذي الحديث الرافعي ... فهل كان هذا حسبه من العذر فيماكتب على أن كثيرا من قراءه «على السفود» يضعونه في غير هذا الموضوع الذي أضعع؛ مؤمنين بأن في الأدب طائفة لا يمكن مناقشتها إلا بمول أسوله على السفود!

انتشر كتاب «على السفود» وتناوله القراء على أن كثيرا منهم لم يعرف كاتبه إلا بعد سنين ... وكان في هذا خير للرافعي ولسمعته الأدبية ولمكانه من نفوس القراء; إذ كان العقد يمثله هو كان الوفد الأول، والوفد هو الأمة كلها، قرأها واعته وشيوخها وشبابها; فكان العقد بذلك هو عند الشعب 잔م الكتاب وأمير الشعراء، لا ييعدي إلا خارج على الأمة أو مارق من الوطنية، ولو كانت عداواته في مسألة أدبية لانتمى بالسياسة، ولو كانت مناقشته حول إيجاب القرآن.

ثم كانت هدية بين الرافعي والعقد، صمت فيها الخصمان طولا وكل منهما يترقب تخصمه ليضربه الضربة القاضية، حتى كان خريف سنة 1932. مات المرحوم شوقى في أكتوبر سنة 1932، فاعترفت لموتته الجامعة الأدبية (13 - حياة الرافعي)
في مصر والشرق؛ فاتحاد من كاتب أو أديب من أبناء العروبة إلا اهتم هذا
النبا واحتفال به. وتهيأت المقتطف، للكتابة فصل أديب عن أمير الشعراء
فأفرغت لبضع عشرة صفحة من العدد الذي كان موشكا أن يصدر، وأبرقت
إلى الرافعي في طنطا أمر يكتب هذا الفصل ويرسله إليها في أيام قبل أن
يتم طبع العدد.

ولم يكن بين الرافعي وشوق من صلات الوعد ما يفتح له أن يعرف شيئاً من
حياته يُعينه على دراسة أدبها؛ ولا كان الرافعي مستعدا لهذه الدراسة، ولستهات
له من قبل أسابيع ودعاها لينشئ موضوعه على الوجه الذي يرضاه في ذلك
الوقت العاجل. وإن الرافعي لكثير الأنثة والتألق فيها يكتب، فلا بد في
إنشاء موضوعه حتى يخليّه فكره أياماً وليل، يبحث وبوازن، ويزاوي
ويعتبر؛ ثم ينتهي للكتابة وقد استوى الموضوع في فكره كما أر أقتسه
في كتاب؛ ولكن كل أولئك لم يمنع الرافعي أن يجب محور المقتطف إلى مطلبه
ويرسل مقالته في الموعد المضروب. وكانت دراسة أعتقد أن أحداً من كتاب
العربية لم يكتب مثلها عن شوق أو يبلغ ملابع الرافعي بمقابلته؛ فأناصف شوق،
وجل البصرية، وكشف عن أدبه وفنه ومذهبه. دع عذك بعض هنات قليلة
لا تغفي من قيمة هذا البحث الفريد.

وكان مما أخذ الرافعي على شوق وسطاء غلطات في النحو أو اللغة، أن
شوق أخطأ في رفع جواب الشرط من قوله:
إن رأت تقبل مفيّ عين كان لم يكتب بيني وبينها أشياء.

ويها هيئة صغيرة قد يجد لها بعض العلماء بقواعد العربية وحها من التعديل
وباباً من العذر.
والعقد أدب لها شهرته العريقة في عداوة شوق والزراعة بأدبها وفقهه؛ فما يعرف أدباء العربية أحدًا كان أبلغ عداوة لشوق أو أحد لسانًا في نقده من العقد؟ ولكن العقد لم يكد يفرغ من قراءة مقالة الرافعي في المقتطف، حتى تناول قلبه ليكتب كلمة يردي بها رأى الرافعي في نقد هذا البيت ويعتدر عن شوق.

ولكن للعقد نصيب من التوفيق فان كتب:

"ليت شعري أفعلها العقد دفاعا عن شوق وهو من هو في عداوه؟ أم تحديا للرافعي؟..."

أعلم يجد العقد في بضع عشرة صفحة يكتب الرافعي مبابا بشوق، مفاخرًا بأدبته وقته وعبقريته، شيئاً يحقق الرد والتعليم غير هذه الكلمة؟ هذا سؤال سألته نفسى يومئذ، وأحسب أن كثيرًا من القراء سألوه أنفسهم؛ ولكن جواب هذا السؤال معروف لكل من يذكر ما كان بين الرافعي والعقد، ثم ما كان بين العقد وشوق من قريب.

وقال الرافعي: "ماذا ترى فيها كتب العقد؟..." هل Iterator: "أنا وهو على رأي واحد فيها ردًا عليه..."

فطشفيته سناً وهو يقول: "أخطأت، وأخطأ العقد، وأخطأ المتأخرون من علماء النحو في العربية... ليس الرأى ما يقول العقد وتوقعه عليه..." وتملديه عادته وكبره ناوئه: "أنا لم يبدأ تدلا طويلة مسابقة يردي بها رأى العقد ويرفض على تخطأ شوق في رفع جواب الشروط من هذا البيت، وتتهم المتأخرين من علماء النحو واللغة وقتة البصر بأساليب العربية؛ ثم يُفيض ويسترسل في بيان الاوجه التي يجوز رفع جواب الشروط فيها، وما يصيب منها وما يخطئ."
وإذا لم يكن لي في هذا المجال أن أصرح بالرأي فيما كتب الرافعي في هذا الموضوع، فإنني لاحظت أن أردت كل شيء إلى أساليبه فأزعم أن الرافعي لم يكتب ما كتب خالصًاً لوجه العربية، ولكنها الكيبرية والاعتداد بالنفس وخوف الهزيمة أمام العقاد في معركة أديبة!...
ولست أكمن هنا أن الرافعي كان يسيء الظن بفهم العقاد لقواعد اللغة، فا يرى له شيئاً من مثل ما كتب في ذلك الموضوع مما يشير إلى بصره بقواعد العربية إلا أنهه بأنه يستعين فيه بأصدقائه من أهل العلم بهذه اللغة وأحبسه قال لي مرة: إن الذي يعين العقاد في ذلك هو صديقه الأستاذ عباس الإجلي!
وانتهت هذه المعركة الصغيرة ولم تسفر عن أشياء، ولكن أحسب أن الرافعي نفسه لم يكن مقتنعاً بما كتب في الرد على العقاد، فبقي في نفسه شيء يحسسه إلى معركة جديدة، فلم يلث إلا قليلاً ثم كانت المعركة الفاصلة...

وحي الأربيعين

وكانت هدنة استمرت بضعة أشهر، ثم أصدر العقاد ديوانه "وحي الأربيعين، ومضة أسبوع أو أسابيع بعد صدور الديوان: ثم كان عيد من الاعياد، ففندت على يد الرافعي لاحته، ثم خرجنا نظر جنوب نظر ببوب بعض الأصدقاء؛ حتى انتهينا الطواف إلى دار صديقنا الأديب الأستاذ حسين خلوف، والاستاذ خلوف أديب مطلع، لا يفوته كتاب مما تخرج المطبعة العربية. فلم يكن مسمة بـُد من الحديث في الأدب، وفي الشعر، وفي المطبوعات الجديدة؛ وهو حديث يعلو...
للرافعي ويحاول تخلوه، ولدي استغرق هذا الحديث سناعية يوم العيد من الضحايا إلى العصر، والبلطخ يأخذ يطلب الطعام، وراقصة الشواء تفرح في بيت المضيف وفى بيوت الجيران.

وأتى الرافعي مضنيه: "ماذا عندك من الجديد في الكتب؟
وهل يوجد مخلوق وهو ينام بعينه ويقول: "وحتى الأربعين!"
ووجد الرافعي طلبه: فدعا بالديوان الذي يود أن يقرأه منذ أيام ويمتعه
من شرائه، أنه كتاب العقادات...
وجاء الديوان، فوضع له الرافعي بين يديه، وقال: "لست أريد أن أتجه على العقادات الشاعرة أو أحكم في ديوانه بأي قليل أن تثبت لي أسبابه، وإن لم أكن
أفتح الكتاب فوقع إياً أولاً ما تقع على أردة ما فيه فأحكم على الديوان ببعضه،
وقد يكون فيه الجيد، وما هو أجمل، وما تقتصر أعنف شعراء العربية دون الوصول إليه. وإن بين وبين العقادات لسابق عداوة، وأتت بريثان من الهمة وسوء الظن: فهكذا الديوان فقثبُ في النظر، وتداوَلا فيه الرأي، ثم دلَّاه على أردة ما فيه لقرأته مما فتح له أو عليه جميع; ثم يكون ما أتفقنا عليه
من الرأى في هذا الجدل المختار هو الرأى في الديوان كله، من غير أن يغلب الهوى أو تنحكر الشهوة...
ورضينا رأى الرافعي، فأخذنا الديوان تقلبه صفحة صفحة، نتقرؤه
بينا بينا؛ والرافعي منصرف عنا إلى كتاب بين يديه... ومضت فترة،
واستطعنا الرافعي فيما دعانا إليه فقال: "أحسبي لم تجدا ما طلبان! ولن تجدوا...
إذن فلنقرأ الديوان معاً من فاتحته؛ فمن أحسب الشاعر يختار فاتحة الديوان
إلا من أجود شعره..."
وتناول الديوان يقرأ منه ونستمع إليه، ووقتنا عند أشياء، وتقادعنا
الرأي في أشياء، وكان الأستاذ مخلوف أكثرنا حساسة في النقد، ومضت
ساعات ونحن نقرأ، ولكن رأي يديه، ثم طويلا الديوان وأخذ مخلوف
يتحدث في موضوعه...

وقال الراقي يحاطبه: وما دمت على هذا الرأي في الديوان فلبذا لا تنشره
إن لك لسانا وبيانا، وإنك لنقد يستحق أن يقرأه أدباء العربية...!
وتزداد مخلوف قليلا ثم سمع مشورة الراقي...
ويبدأ الكتابة نقده...
وصعد أسبوع، ثم نشر المقطم، في صدره مقالا موجزا للأستاذ مخلوف
في نقد ديوان وحي الأربعين، تناوله بأدب وهدوء، في بضعة عشر موضا،
وأرجأ بقية النقد إلى عدد تال... ومضى يومنا وكتب العقاد في صحيفة الثلاثاء
من جريدة الجهاد ردّه على مخلوف...
لم يكن مخلوف حين كتب مقالة الأول للمقطم مقدّرا أن العقاد سيتناوله
بهذه القسوة، ولكنه فوجئ مفاجأة شديدة بما كتب العقاد...
لم يرد العقد في ردة الآديب على ناكه، ولكنه راح يهجم عليه ويسخر منه
ويستهزئ بعله وأديبه ومقدره على فهم الشعر. وإذا كان مخلوف من مدرسي
اللغة العربية في مدارس الحكومة، فإن العقاد قد اتهمها ساحة ليعلن على
مدرس اللغة العربية في مدارس الحكومة، ويلح في كفايته وعلمه، ويعد
بالسبب في ضعف اللغة العربية في المدارس على مخلوف وزمالة مخلوف، ولم
تسلم مدرسة دار العلوم التي تخرج فيها مخلوف، ولم يسلم واحد من مدرسي
اللغة العربية، من تهم العقاد وسخريته في هذا المقال، لأن واحدا منهم كتب
ينقده ويتناول رده إلى الصواب فيما رآه أخطأ فيه...!
كتب مخلوف مقاله الثاني يرد مطالع العقاد، ويتمين ما بدأ في نقد وحى الأربيع، ولكن المقتوم أغلقت دونه الباب ولم تنشره، كرامة للعقاد، وحرصاً على مودته...

وغضب مخلوف وتامل، ولكن طوي صدره على ما فيه، وكنا جمعةً من مدرسي اللغة العربية نصل الجمعة كل أسبوع في مسجد المنتهاوي بطنطا، فلقينا هناك مخلوفاً فما رأه المدرسون حتى انهاوا عليه وركوه بالعناب القاسي، ولهم قرأ مقال العقاد في الطعن على مدرسي اللغة العربية بسبب مخلوف، وقيل منهم من قرأ مقال مخلوف، وحاول مخلوف أن يعتذر، ولكن اعتداره ضاع بين ضحيج إخوانيه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد.

وقلت للرافعي مازحاً وقلت له: لقد كنت أنت السبب في هالملحوفا من إخواني، وفيها نال مدرسي اللغة العربية من لسان العقاد، فأنى الذي غبت مخلوفاً إلى هذه المعركة، فانتهت إلى ما انتهت إليه بينه وبين إخوانيه، وكانت سبباً فيها كتب العقاد عن دار العلوم ومدرسي اللغة العربية...

وكانت مخلوف عند الرافعي منزلة، ولدار العلم في نفسه مكان، ولكن أجابني: وماذا عليّ أنا فيها كتب مخلوف، وفيها ردة العقاد؟، صمت مخلوف حينما ذكره، لولاك لم كتب مخلوف في تعرض لما تعرض له من لسان العقاد، ومن تعب إخوانيه، لولا ما كتب مخلوف لبقت دار العلم بريئة من العيب.

لم يطن فيها العقاد ولا غير العقاد، وقصدت فيها قلت: ومعنزة إلى الأستاذ العقاد - أن أهيج الرافعي للكتابة عن العقاد، فشهد أدبنا العربي معركة جديدة بين الأدباء الكبيرين، يكون لعمّ
من ورائها تفزع ومتاع ولدته... وبلغت ما قصدت إليه، ووعد الراقي بأن يكتب مايأته نفسه من ديوان وحی الأربعين، ولكن على شرط: أن أشتري له نسخة على حساب من الديوان، لأنه يبدي أن يدفع قرشًا من جيبه في كتاب من كتب العقاعد...!

ونفذت الشرط، وتبعت الراقي للكتابة عن وحی الأربعين، ومضت أيام، ثم دعاني لي dõله على مقاله الأول في نقد الديوان...

صدر "وحی الأربعين" في سنة 1933 والسياستة المصرية يومتقد تسير في طريق معوج، وحكومة صدقى باشا تمكن لنفسها بالحديد والنظر، و"الوفد" ومن ورائه الأمة كلها يقاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص، والعقد يومن هو كاتب الوفد الأول، يكتب المقالة السياسية فترن رنينا وبلطفها ألاف القراء بللهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية، فلا يعجب أن يكون العقاعد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب، وأشعر من نظم، حتى ليئنل أمره من بعد إلى أن ينحلا الدكتور طه حسين لقب أمير الشعراء!

ولقد يكون العقاعد يومتقد على حقيقته هو سيد الكتاب وأمير الشعراء أولاً يكون، ولكن هذه هي كانت منزلته عند الشعب يومتقد، فلا يعاده أحد إلا كان عدو الأمة، ولا يعرف له أحد بالقد في أي منشآته الأدبية والسياستة إلا كان في رأي الشعب، دسية وطنية.

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي امترج في الأدب بالسياسة امتهنها جمل طائفة كبيرة من الأدباء، يؤثرون صممت واعتصال الأدب على أن ينزلون بأنفسهم إلى معركة لا يعرفون أن تبلغ بهم عواقبه، ولكن الراقي رجل كان، لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها، فهو لا يعتبر إلا مذهبه في الأدب.
وطريقه: وسواء عنده أكان رأيه هو رأى الجامعه أم لا يكون مادام ماضيا
على طريقه ونهجه، ولقد قدمت القول بأن الراقي كان يتربع بالعقد
لنزل إليه في معركة حاسمة تنقع عليه وثير ذات صدره. فأنا تهافت
له الأسباب بصدور وفي الأربعين، حتى تحرز للعرك، وكان ما بين العقد
وخلوف هو أسباب المباشر الذي ألهب حية الراقي، فنزل إلى الميدان
مستكلا أهبه مروحا بسلاحه، غير مكرضا بما قد يناله من غضب
الآلاف من القراء الذين يقدوسون العقد الكتاب تقديسا أمي أنا يفرقون
بين العقد السياسي والعقد الأديب...!

... وأرسل الراقي يستدعين إليه ذات مساء. فرحت إليه بعد العشاء
بقليل: فإذا هو جالس إلى مكتبه، وعلى مقربة منه وحى الأربعين، وإن
عليه عباءة حمراء في لون عرف الديك، وفي عينيه نور وضعف بنبي
عن السهر والجهد العميق؛ فإنه يبدو في مجلسه ذلك كأنه عائد لساعته من
معركة حمراء....!

قال: لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل، وإن لي فيه رأيا: فهل
تساهرين الليلة حتى أمل عليك ما أعدت في نقده؟

كانت هذه أول مرة يلقى الراقي على فيها من مقالاته; فكانت فرصة سعيدة
لي، أشهد فيها الراقي حين يلتقى الوحي، وأصبح في سببائه الفكرية يقتضى
شنوار الفكر وأواده المعاني. وكانت فرصة سعيدة له: أن وجد يدا غير يده
تحمل له القلم حين يكتب لنفسه، ويخلو بفكره، ومتعود قبلها أن يكتب وفي
مجلسه إنسان؛ وإن أنقل شيء عليه أن يكتب يده، ولكن أنقل من ذلك عليه
أن يعرف أن عينا تلاحظ وهو يكتب، فما زال يكتب لنفسه منذ بدأ، مثيرا
لولا توجهنا إلى القصة، لما نجده عدوًا لا يُهلك في الكتابة من جهد، وإن خلقه لارداً خطً

ة في العربية ... حتى اصطفائي لهذا الواجب، قررتها ثلاث سنين لايهم

ابة مقال إلا داعي لليمليه علي، حتى انتقلتُ من طنطا فعاد إلى ما كان من عادته،

وترك نفسه وكتب نفسه، ولم يستخرج إلى كتاب بعده يشارك في جولة الوحي

لولا الكتابة!


... وجلس فألما على مقاله من قصص من كتبت في يده لا تريد إحداها على قدر

كف، فما فرغ من الإملاء حتى أخذت النذر، وحتى كانت هذه القصص بضعة

شرين صفحة كبيرة، تشغيل بضعة عشر نهارا من جريدة البلاغ. وكانت ليلة

ملئت فيها من الجهاد والمشقة ملام أعجل في ليلة غيرها، فقنت من هوذ القرن

تان، وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في غفوانه، كبدا كان عليه عباء

وباها عن كفته...

 وكان بين البلاغ والعقاد خصام، وكان بينه وبين الرافعي وودة، فاكادت

صل إليه مقالة الرافعي في البريد المستعجل ظهر ذلك اليوم، حتى أعلنا عنها

شر الأقراء أن ينشرها في غد. وشملت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين...

كان نقدًا ممًا حامياً اجتمن فين الرافعي، ثورة نفسه، وحيدة طبعه،

لحرارة بعضئ.

أستطيع أن أقول وبعده تصدع كثير من أدباء العربية: إن هذه المقالة هي

خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر وأقرها إلى المثال الصحيح، لولا هفوات

الملية يعفيه من تعبتة أنه إنسان!
من قرأ على السفوقد، فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان ينزله من نفسه فلقيأ مقال الرافعي في نقد دوحي الأربعين، ليبري الراوي المجرد في شعر العقاد عند الرافعي...

ومضى يوم واحد، وظهرت صحيفة الثلاثاء، من جريدة الجهاد فيها رد العقاد على الرافعي، وقد نفد إليه من باب لم يحسب الرافعي حسابه، فنفر وجه الحق، ودارت المعركة حول محور جديد...

كان عنوان مقالة العقاد، أصنام الأدب، فيها أذكر، وكان مدار القول فيها هو الطعن على رجليه: هما إسماعيل مظهر، والمهندس الأصم مصطفى صادق الرافعي، وكان أكثرهما سباباً وشبيحة وأفلاها في الرد والدفاع، على أن العقاد لم يرد رأى الرافعي فيما أخذ عليه من آخاذ إلا في مواقع قليلة، وترك الرد في أكثر معاون عليه الرافعي، مستعياً عن الرد بالشتام والسباب...

وإذا كان السبب مظهر في طعن العقاد على الرافعي وشتمه إليه، فإني سبب حل العقد على أن يشرك إسماعيل مظهر مع الرافعي فيما وجه إليه من الشتم والتهمة؟

جواب ذلك يفهمه من يذكر أن إسماعيل مظهر صاحب العصور؟ هو طابع كتاب «على السفوقد»، ونشره، ومواجه. أفترض أن نفهم من هذا بأن العقاد لم يكن يعنى الرد على مقال الرافعي الآخر وحده؛ ولكنها وجدتها فرصة ساحرة لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعي وصاحبه الذي أقرره.

وكان الباب الذي نذمه العقاد في الطعن على الرافعي، هو اتهامه في وطينته، وإنهاءه قراءته بأن الرافعي لم يكن لينقده إلا لأنه هو العقاد...
السياسي الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس بالحديد والنار، وحسبه، حسب ما تمسه ناتجاً من نسيان يدفع الرأي بالرأي والبرهان بالبرهان.

وكرأت مقالة العقد في الردة على الراقي، فوجدت أسلوباً في الردة يتم، ولا يفعل، ويدخل الجرح بالجرح للاسحاق: فلما فرغت من قراءة المقال إلى تعليل الراقي مبرد وجه من غيظ وغضب، مريد الشقدين من حقق وانفعال: فسرى أن أسعي إليه قبل منع داعي لأراة في غيظه وحققه وانفعاله، فانتهت ساعة وراغ في الظهر، فلقيت إليه في المحبكة: فما كانت رداني مقلاً عليه حتى هتفت وهو يبسامه المسور ثم قال: "أقرأت مقال العقد؟" قلت: "نعم، قال: "فإذا رأيت فيه؟" قلت: "لقد كان شديدًا مؤلمًا!" فضحكت وقال: "وأعتد مارأيت كاليوم! لقد ضحكته حتى وجهي قلبي من شدة الضحك... إن لم يكتب شيئاً ولم يرده على شيء: إن سبابه وشتهما لن يعجل به عند القراءة شاعراً كما ينتهي أن يكون، وإن حسب أن يحكب المعرفة: وقد حق على ماقلت فيه، وإن ليعترف: إن فراره من الردة إلى السباب والشتمية ليس إلا اعتراضاً بالعجز..."

قلت: "إذن قلت لانتنو الردة؟".

قال: "أوه شيء تراه يستحق الردة فلا كتب?".

قلت: "ولكن القراءة لن يفهموا سكونك على وجهه، ولن يسموه إلا انسحاباً من المعرفة...! أفترض أن يقال عناك...؟".
وبدا على الرافعي كأنه اقطع، وهاجته كلمات مرة أخرى إلى النضال.
ومعذرة ثانية إلى العقاد!
إن معركة تدور رحاها بين العقد والرافعي جديرة بأن يحتفل لها الأدباء.
ولأن نزال من اهتمامهم أوفي نصيب وإن لهم فيها من محال ولدته وفائدة، وما كان
لي أن أقطع وقد سجنت هذه المعركة بما فيها من ماتع ولدته وفائدة بأن تتبنى
من أول شوط.

وقال ل الرافعي: هل توافقين الليلة لأحم على؟
فوعده: وذهب إليه في اللمس فأنا عليه فلاً من نسخته الخاصة
لكلية ودومة بعوان، الثور والجزر والسكين! ثم أنه مقالاً في الرد
على العقاد. وكان فصلاً فاصلاً عنفناً، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه،
إذ لم يكن المقصود به النقد وحساب، بل الردة والتخريب والإبلام، ثم قطع
السبيل وتدعم الدليل وتقرير المعنى فيهما قائم من مواضيع النقد.
ثم رد العقاد ليعلن انحسابه من المعركة شاكراً للذين آبدوه، معذراً
من عدم الاستمرار في مناقشة دعوى الرافعي! واستمر الرافعي يكتب
حتى فرغ.

وكان النصر للرافعي عند طائفة، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقائه
العقد الكتاب الوطن الكبير. إذ لم يروا عداوة الرافعي له في الأدب
إلا دسيمة سياسية من خصوم العقد!

****

واتبعت المعركة الأخيرة بين الرافعي والعقاد، ولكن الرافعي لم يتبع ما
نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرعون بين الأدب والسياسة،
إذ كان علي يقين أنه وإن كانت له الغلبة، قد خسر أكثر الطالبين من قرائه لأنهم على مذهب العقاد السياسي، فظل يضط paperback إلى حين...
ومضت ستان، وتمتبت السياسة المصرية من تقاليدها، فإذا العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول خارج على الوفد، نجم عنه وعلى رئيسه، وأنصار الوفد ما يزالون إلى مهمذ أكثر الأمة. ووجد الرافعي الفرصة سانحة لينقم، ولديهم السياسة في التليل من خصمه في الأدب فينكيل له صاغ بعضاً وبراءة بثل سلاحه، فكتب مقالاً، يغلي توقع في كوكب الشرق...
جريدة الوفد، بعنوان أحق الدولة، وكان مقالاً له رنين وصدى...
ونشر في الرسالة، يهم كل ليات تحت عنوان كلمة وكلمة، عرض فيها...
بالقادناء الخارج على الوفد تعريضاً أناه يؤذيه، لم يتبه له إلا القليل...
وكان مقاله عن العقاد في كوكب الشرق، ولكلماته في الرسالة، سبباً في أن يدعو الاستاذ توفيق ديب ليحرر في الجهاد، بأجر كبير، ولكن لم يتم بينهما اتفاق...
ولم تكن تنسحب للرافعي ساحة لنفيق العقاد إلا اتهمها فيما كتب الرافعي عن شاعر من الشعراء. بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً بشعر العقاد...
ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه في المقتوم، ومانشره عن الشاعر محمود أبو الوافد في الرسالة. ومقالته «بعد شوقي، معروفة مشهورة» وكلها تعريض بشعر العقاد الذي نخله الدكتور طه حسين إمارة الشعر في يوم من الأيام بعد شوقي!

***
والعداوة بين الرافعي والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل، ولا أثر أو أثر فلما أنجز كل من الأدباء الكبيرين في أدب الوصف، ولا نداني هذه العداوة في الشهر إلا العداوة بين الرافعي وطه حسين.

وأحسب أنه كان في الإمكان أن يجمع العقاد والرافعي في تحرير الرسالة ولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة. قال لي الاستاذ الزيات قلبي الرسالة مرة قبيل موت الرافعي: "وددت لو كتب العقاد في الرسالة، ولكننا نعني من دعواه إلى ذلك أنه لا يستطيع أن ينشر له والرافعي في عدد واحد.

قلت: فماذا يمنع؟

قال: أنت تعرف أخلاق الرافعي، وأنا أعرف أخلاق العقاد، وإن لكل منهما اعتقادا بنفسه بإزاء صاحبه، فأي المقالين أقدم وأيهم أقوى في ترتيب النشر؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بأس، ولكنه مع الرافعي والعقاد للشأن أي شأن؟

وهكذا صاحب الرسالة معنا بهذا الأمر، حريصاً على أن يجمع بين الأدباء الكبيرين في مجلته، وهو يلتزم السبيل إلى ذلك فلا يوقف حتى مات الرافعي وحل المشكلة: ودخل العقاد، ولكن بعد مخرج الرافعي!

رحم الله الراحل، ونفع بالباقي!
فترة جام

نفيَّت الرافعى يديه من المعركة بينه وبين العقاد، ثم فاء إلى نفسه، وعاد إلى داركته يطالع ويقرأ ويغزوّد... واختلى اسمه من الصحف والمجلات أشهرًا. كان في أثاثها يتهىء لإتمام كتابه "أسرار الإجازة"، ويعمل في الوقت نفسه على جمع مانشر من المقالات في الفترة السابقة وترتبها، ليخرجها كتابًا يسميه "قول معروف ...

عليك أن عنيتة بشأن هذين الكتابين: "أسرار الإجازة"، وقول معروف - لم تمنعه أن يكون له في كل يوم ساعات محدودة للقراءة والاطلاع. وكانت هذه الساعات المحدودة في أكثر ليلاته تتمد من المغرب إلى منتصف الليل. وأستطع أن أقول: إن هذه الفترة على ما كان يبذل فيها من جهد، كانت فترة جام وراحة لم ينعم بها فيها بقية من حياته. و كنت بصحته يومًا قريبًا العهد، ولكن كنت ألقض أحيانا به: فكان لي معه كل يوم ساعات: يقرأ لي وأستمع إليه في داره، أو أماشيه في الخلاء، أو أجلسه في القهوة، أو أصحبه إلى السيا. وكان على في هذه الفترة وفيا بعدها من الزمن، أن أقرأ ما يهدي إليه من الكتاب، لا سيَّئه له إلى المواضع التي يجد عليها أن يقرأ أها، ضننًا بوقته على قراءة مالا يفيد; وكثيرًا ما كان يدفع إلى بعض ما ي رد إليه من الرسائل، لأريد رأي فيه وأشير عليه بالجواب، أو أقول ذلك بنفسي. وكانت هذه الفترة ذات أثر كبير في تكوئني وتوحّي في الأدب توجيهًا لم أكن أقصده إليه، كما أنُّها هو بحثي في هذه الفترة تأثرًا ووجه في أدب الإنشاء توجيهًا لم يكن يعرف به منذ نشأني في الأدب
قبل ذلك ثلاثين سنة؛ فبدأ أسلوبه أكثر استواء عند عامة القراء، وكان قبلها
يتهَمّ بالغموض والتعقيد؛ كما عالج القصة فنجح فيها إلى حد بعيد، إذ كانت
القصة - وما تزال - أحبّ ألوان الأدب إلى، على حين كان الرافعي لا يؤمن
بفائدته القصة ولا يعرف بخطرها بين أبواب الأدب الحديث. فما هو إلا
أن حملته على محاولتها فأشنأ قصته الأول؛ ثم كما أكتشف نفسه من بعد
فصار ما ينشئ من القصص هو أحبّ منشأته إليه، وخطا بها إلى نفوس القراء
خطوات...

ومن طريق ما يذكر في هذا الباب أنتى كنت أنثىّ القصص لمجلة الرسالة،
لا أكيد أنني بشيء من موضوعات الأدب، وكان حسن وقعة عند القراء
يدفعني إلى الإجادة والاستمرار؛ ولكن قارني وأنا كان يعبّ على ما أكتب،
ولا يرضي عن أن تكون القصة هي كل ما أعلّق في فنون الأدب، وذلك هو
الرافعي؛ كثيرا ما كان يقول لي: يا بني، إن لك بيانا وفكرا ومعرفة، فلاذا
لاحاول أن تكون أبدا; إنه لا يليق بكم أن تكون القصص هي كل محاولة
من ضروب الإنشاء، وإن فك استعدادا لا أكثر من ذلك...! وما زال يلحن
على ويكير هذه الملاءمة، حتى وقع في نفس أني أسي، إلى نفسي محاولتي أن
أكون قصصيا؛ فأنصرف عن القصة وكتبت أحب إلى، إلى فنون أخرى من
الأدب، إلا ما أنثى في القصص المدرسية، التي أوقف لها تلاميذ معي على أنها
وسيلة من وسائل التربية لا باب من الأدب، ثم لم يمض بعد ذلك إلا قليل
حتى كانت القصة هي أكثر ما يعالج الرافعي من أدب الإنشاء، وكان له فيها
فوقاً وسبيلاً، وحلت القصة محلها من تقديره بين أبواب الأدب...!

وإذ كان في أذن الرافعي ذلك الوقتر الذي يقطنه عن دنيا الناس، فإن
( ١٤ - حياة الرافعي)
أسلوبه في الكتابة كان بعيدا عن فهم الكثير من ناشئة القراء، فلم اصطفي أن يشبه ما يقال عنه وما يقرأه في أسلوبه، فكرت إذا فكرت في معينة في جعلها تلبس عليه، حاولت فيها تدق على الأفهام وقبائل القراء، واعتذر عنه تغري القراء؛ ثم لا أزال به حتى يغير العبارة فيجعلها أدنى إلى الفهم وأخف على السمع؛ وكان ينكر ذلك على أول أمره، بما فيه من اعتذاد بنفسه وكبرياء، وكان أحيانا يوشك أن يغضب، وأنا أُطلبه له وأحتال عليه؛ ثم لم يثبت أن رضى ذلك مِن، فكان يغلب على العبارة من المقال، ثم سألتى:

ماذا فهمت ما كتبت؟، إذا كان ما فهمت يطابق ما في نفسه، مضى في إملائه؛ وإلا عاد إلى ما أملاه بالتفصيل والتبديل حتى يتضح المعنى وبين المراض.

وبلغ في النهاية أن يسخِني - على المزاج - العقل المتوسط من القراء...!

لم ينشر للرافعي في هذه الفترة شيء ذو بال، إلا أحاديث كان يتناولها على بعض المؤثرات من كتاب الصحف الأسبوعية. وكان له بطلان من هؤلاء الكتب يعطي عليهم ويعينهم على العيش، فكانوا يفدوه إلى فيه في الحركة ليسألوها حديثا فيهم جوته، ثم يذهبون ليشروه حيث يشاؤون ويقبضوا أجره.

في هذه الفترة، وكل إليه الأدب حسام الدين المجد الوراق تصحح كتاب "ديوان المعاني"، لأبي هلال العسكري، وكان قد وضع منه على نسخة خطية فطمعها بأغلالها وتصحيحها، ثم بدأ له قبل أن يتم طبع الديوان أن يلجأ إلى الرافعي ليصحيح له أغلالها ويتم نقشه، على أن ينشره في الجزء الأخير من الكتاب.

وبقبل الرافعي هذا التكليف على قلة أجره، ليقرأ الكتاب قبل أن يقرأه
الناس، ولمتسع البلدية المطلة حيث تصحيحه وتصور خطاه، وإنها لرياضة عقلية متمكة، لا يستشعرها ولا يقوى عليها إلا القليل من الشيوخ، ومن هؤلاء الفقهاء، فترك للكاتب بعد أن أصلح منه جزء أكبر من كتابه، وقد استطعت في تلك الفترة التي احتلتها فيها الرافع في وهو يحاول تصحيح الكتاب، أن أعرف مقدار إطلاعه وسرعة عمله وقوة نصره بالأسلوب العربي، وقد رأيت منه في هذا الباب أشياء حيوية، من قوة الحافظة، وسرعة الانتقاء، إلى مراجع البحث، ومعرفة الاستدلال، على مواضيع النصوص، حتى كأنه قد أفاد، ومكتبة دقيقة الترتيب منتظمة التجربة، ما شئت من بحث هدفته إليه قبل أن تبحث عنه، على أن كان أحيانا يعرف موضوع النص من الكتاب ثم لا يوجد البحث إلى تأمته؛ فرض فكره موضوع فكر المؤلف ليستشيره من وتلاحر الكلام، وأكثر ما كان يقع ذلك في الشعر المنشور. وقد حدد مرة أن ظل الرافع يبحث يوما كاملاً عن تسامم بيت من الشعر في مطالعه من كتاب العربي، فلما أعرب البحث جعل تساممها من نظمه ثم مضى إلى تصحيح ما بعده من الكتاب، وفجأة ترك ما هو فيه وقال: "ما هو! ناول ذلك الكتاب، فدلت يدي إلى موضوعه من المكتبة فناولته إياه، فأخذ يصفه قليلًا ثم قال: "لقد وجدته... هذا هو البيت الذي كنت أبحث عنه وتساميءه. في غضون ما كنت من قبل لتصحيحه، وعدت إلى ما كنت، ورجمت النظر في الكتاب الذي بين يدي، فإذا تسامم البيت فيما كتب وعند الكتاب سواء، لا يختلفان إلا في حرف الجر... أكان فضل هذا إلى ذاكرة الرافعي، أم إلى قوة نصره بالشعر وتأثره البياني...؟
ولم يكتب الرافاعي في هذه الفترة إلا بضع مقالات: وكان لكل مقال جامعه ودواعيه:

1 - كان السيد حسن القاييني يكتب في جريدة "كوبك الشرق" كليات في موضوعات شتى من وحي الساعة وحوارات الحياة. فبدأ له يومًا أن يكتب في الموازنة بين قول الله تعالى: "ولكم في القصاص حياة..." وقول العرب: "القتل أنيف للقتل! فانزلق إلى رأي..." وكان من حرر الكوبك في ذلك الوقت الدكتور طه حسين، وهو من هو عند الرافاعي في دينه وفي أديبه وفي إسهامه بقدس القرآن... ولم يكن الرافاعي يواكب يوميًا على قراءة كوبك الشرق.

وجاء البريد ذات صباح إلى الرافاعي برسالة من صديقه الأستاذ محمود شاكر يلفت نظره إلى ما كتب الأستاذ القاييني وإلى ضلاله في تفضيف الكلمة الجاهلية على آية القرآن: ودفع إلى الرافاعي برسالة شاكر وهو يقول:

"أتصدق هذا؟ أبى أحد أن يقولها! أم هي مبالية وتهميل من محمود، أوم هو لم يفهم ما كتب الكاتب المسلم وحمب كلامه على غير ما يريد؟

ثم بثت في طلب الجريدة التي نشرت هذه الضلالة جنًا بها: فما كاد يقرؤها حتى أربد وجهه وبدأ عليه النفي والانفعال، ودار لسانه بين شقته بالكلاقل، ثم لم يلبث أن نهى مقضيا إلى الدار قبل موعده. فانقطع عن يومين ثم أرسل يستدعيه إليه، فأمام على مقالة طويلة بهوان: "كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة!" وكانت مقالة من عيون مقالات الرافاعي، نشرتها البلاغ في صفحاتها الأدبية.

وقد أورد فيها بضعة عشر رأيًا في بيان إيجاز الآية ومثلها من البلاغة بإزاء الكلمة الجاهلية، وقد جعلها من بعض فصلا من شواهد كتابه "أسرار الإنجاز".
والذي لا يطبع بعد ...

وقرأ القاضي مقال الراقي في الرد عليه، وأحسبه قد اقتنع بما قرأ وأعترف
على نفسه في خلوته، ولكنه لاذ بالصمت، وكانت كرامته الأديبية أعز عليه من
كرامة القرآن؛ فلا هو رد عليه ولا هو اعترف علانيةً بما كان من خذته فيا
انزلت إليه ...

وفتح مقال الراقي أبوباً من القول لطائفة من الأدباء، إذ كان في ردة به
الراقي أن كلمة القتل أتت للقتل، ليست جاهلية كما يعرف أكثر قراء العربية
ولكنها نشأت في العصر العباسي لمثل ما استعملها له القاثي في معارضة القرآن,
وأسندها محترعهم إلى حكم الجاهلية أكمن بصنيع ليتم له قصده: وجاءت دعوته
على كثير من قراء العربية حتى كشف الراقي عن زيفها بعد ألف سنة!

كان تاريخ هذه الكلمة ميداناً للقول والمعارضة أياماً بين الراقي وبعض
الأدباء، وكان أول من عرض مبدأ قراءة رأي الراقي هو أخونا الاستاذ عبد العزيز
الآزري، ولكنه لم يلبث أن شارك بالإعفاء من أول شوط: فكتب إلى الراقي
رسالة خاصة في البريد يستعفيه ويعتذر إليه بأنه مشغول بالاستعداد للزواج ..!
ثم تدأول الرأي غيره، فكتب الاستاذ الكبير «آزهري المنصورة» (1)
بري في تاريخ الكلمة رأياً غير ما رأى الراقي؛ وكتب شيخ أدب العروبة
الاستاذ محمد إسحاق الشناشيبي; وطالب الشخ والجذب حول تاريخ هذه الكلمة

(1) تحسن الفن كثيراً إذا زعمنا أن هذا الكتاب الفريد في موضوعه وفي تأليفه,
سبق من عدفة أدباء العربية ما يعملهم على محاولة إمامهم في وقت قريب، على أن قيد
نشرت هذا الفصل فيها نشرت من مقالات الراقي في الجزء الثالث من «وحي الظلم».
(2) صبح عندما أخيراً أن الأدب الكبير (آزهري المنصورة) هو أستاذنا
صاحب الآداب علنا الاستاذ محمد إسحاق الشناشيبي نفسه: فمن شاء رهماً على ذلك
فيقرأ الصفحات الأولى من كتاب (الإسلام الصحيح).
وقت هذه الفترة تم إنشاء "المجمع اللغوي". وكان الرافعي يرى نفسه بأن يكون من أعضائه، خال يببه وعده ما يتعنَّى أنه لا يسمع؛ وإن لم يمنع ذلك، فإن يكون عضواً في المجمع العالي العربي بدمشق، وقد اختير له هو والمرحوم حافظ بك إبراهيم قبل ذلك بسنتين، فلم يشهد جلسة من جلساته، ولم يشارك في قرار قرره، ولم يبعث إليه رسالة واحدة في موضوع من موضوعات العلم العربي.
وساء رأى الرافعي في المجمع اللغوي من يوم إنشائه، ولم يمنعه من الحجة عليه أن كان موعوداً بأن يختار فيه عضواً من إسلاطاني أنباء صديقه سهر نمر باشا عضو المجمع.
واقتحم المجمع، وكان أول محرراته الأدبية بروية بالشكر إلى المرحوم الملك فؤاد ولقيت الرافعي ذات مساء، فإذا هو يرفع إلى جريدة البلاغ قائلًا: أقرأ: هذا أديب صغير يهاجم الجمع اللغوي في يوم إنشائه، ويزعم أنه لم يستطيع أن يكتب بروية بrients من الخطأ يشكر بها مشتهاهن!...
وقرأ، فإذا نقد عنيف، وتهكم مر، وسخرية لاذعة. كانت كلها صغيرة ونكنها ذات شأن، وقد اختار كانت أنها يكون توقيعه "أديب صغير"، مبالغة في السخرية والتهكم. وأخذ الكاتب على المجمع بضع غلطات لا ينبغي لها إلا أديب دارس له في العربية مكان.
وقال الرافعي: ماذا رأيت؟، قلت: نقد مر لا يبلغ به هذا البلاغ على الإيحاز إلا أديب كبير، قال: فله تظهيره؟، وكان سؤاله مشروعاً بجواه، ولكني

(1) انظر قصة الكلمة المرجعية: في الجزء الثاني، السنة السادسة من مجموعة مجلة الرسالة.
كذبت نفسى... أيكون هو؟ وما يحمله على أن يختفي عنى؟ فقد كان معى أمس، وأمس الأول. فلم يحثني بشيء في ذلك؟ وقت للرافعى: "أو تعرف كابته؟" قال: "حاول أن تفكر... لقد حاولت فلم أوفق، وكان حسي هذه الكلمة ليس للكل شكل في نفسى، فذاك كذبت على الرافعى قبلها قط... ولم أعرف إلا بعد أيام أنه هو... ورد المحمد الشهير اتنين والعضو المجمع، وعاد الرافعى بردة وتبكيه ويسخر، ويتحدث المجمع اللغوي كله أن يرشد إلى الأطراف الاجتماعية التي مررت بها كلمة (حارة) حتى ساغ للمجمع من بعد أن يستعملها بمعنى (ظفر) في فرقة الشكر إلى جلالة الملك... وسكت المجمع، وسكت الشيخ حسين وآلي، وظل الرافعى (الأديب الصغير) يكتب حتى جاء الرجل أن يسكت فسكت!

مقالات (الأديب الصغير) في نقد المجمع اللغوي: هي آخر ما كتب الرافعى في النقد على أسلوبه وطريقةه.

3- وما كتب الرافعى في تلك الفترة بعده طويل في البلاغة النبوية أنشأها إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق، لنشرها في ذكرى المولد النبوي وقبلن من العناوين، إن هذا الفصل ما لا أحسبه غيره يقوى عليه. وحسب أن تعلم أن الرافعى لم يتأتى لكتابة هذا الفصل حتى قرأ أصحاب البخارى كله قرأ دارس، وأنفق في ذلك بضعة عشر يومًا، وهو وقت قليل لا يتنسق للقارئ العجل أن يقرأ في صحيح البخارى قراءة تامة؛ فكيف به دارساً متهماً يقرأ أبلق بلاغة

(1) كان من نالهم رشاش هذه المعركة الصغيرة، أساتذتنا العلامتان الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع، سلك الرافعى، ففي سن شل على غير قصد ولا نية؛ لأنه اتفق له رأى في بعض ما يجب على المجمع نشره في البلاغ إبان هذه المعركة، ففضل الرافعى أن يبين بهذا المقال أن رد عليه، فكان للرد على الأستاذ المغربي نصب من مقال الرافعى. تقرأ قصة (حتى باللقي) في تفصيل أطوار هذه المعركة، في الجزء الثاني، السنة السادسة من مجلة الرسالة، لا ستاذ جليل.
الأسلوب ودقة المعنى ؟ ولكن ذلك ليس عجباً من الرافعي الذي كان يقرأ
كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل ، فلا يبهض عن كرسيه حيث يرفعه قلبه !
وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام ، ثم دفعه إلى لاكتبه بخطو ولم يمله
على ، فأتفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى .
هذا الفصل بمالا نحو أربعين صفحة من مثل هذا الكتاب ، وصلح أن
يكون خاتمة لكتاب إنجاز القرآن - لا قدر لإنجاز القرآن أن يطبع طبعه
جديدة - فإنه أشبه بموضوعه وفيه تمامه (1) .

4 - وما فكر الرافعي من كتابة هذا الفصل ، حتى أحس بحاجته إلى الراحة
بعد مبذل من جهد ، فأغلق دار كتبه وخرج إلى الشارع يشم الهواء ، ثم لم يكد
بأس المساء حتى جاءه البريد برسالة من جمعية الكشاف المسلم بالشام ، تطلب إليه
أن يعد لها موضوعا تنشره في صفحاتها لمناسبة المولد النبوي كذلك ...
وضاقت أخلاق الرافعي ، فهم أن يلقى الرسالة ليفرغ لنفسه بضعة أيام
للاستجابة ، ثم تخرج ، فعادت إليه ابتسامة وهو يقول : « سأفعلها فرّقي إلى
محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو رأى في هذا الجهد المتواصل إلى تهمثكة ! » ، وعاد
إلى مكتبه وهو متعب مكدود ... ثم أمل على مقاله ، حقيقة المسلم ، الذي أعاد
نشره في الرسالة بعد ذلك وجمعه إلى وحي الفضل .
وله في هذه الفترة بضع مقالات أخرى نشرها في مجلة المنشط . ثم دعته
الرسالة ليكتب فصلا عن الهجرة في العدد الممتاز الأول لسنة 1352 ه ، فكان
ذلك أول نهده بالكتابة فيها ، ثم اتصل بها جبهه .

(1) نشر في الجزء الثالث من ، وحى الفضل .
بعدما أنشأ الرافعي مقالة، وحبيبه في نفسه، أهدي إليه الشاعر المهندس على محمود طه ديوانه، والملاح الثاني، وأحسبه طلب إليه أن يكتب عنه. وكان بين الرافعي والشاعر المهندس صلة قديمة من الود، أظهرت نشأتهما في مكتب الاستاذ صروف محور المقطف، حيث كان الرافعي يقضي أكثر الأوقات فراغه كلما هبط إلى القاهرة لعمل من أعماله. وهناك يلتقي الرافعي، وصروف، وإسماعيل مظهر، ومحمود شاكر، والملوكي، وغيرهم من أدباء الجريدة، فيجتمعون الجدل معًا في موضوعات شئ من الأدب. ولم يكن للرافعي ندوة أديبة يقصد إليها كلهما جاء القاهرة منذ وفاة فلانة - أحب إليه من دار المقطف، ثم صار له ندوة ثانية من بعد حين اتصل سبيه بالرسالة، فكان يقضي وقته بين عيادة الدكتور شيخريفي في الجليد، وعبد القادر حمزة والمازني في البلاغ، وإخوان صروف في المقطف، والراوي في دار الرسالة. ولم يلق إلا مرة أو مرتين بالاستاذ أحمد أمين والدكتور مرزوم في لجنة التأليف والترجمة والنشر،؛ عندما كانت اللجنة قائمة على طبع كتابه، وحبيبه الفيلم، قلت: إن كانت بين الرافعي والشاعر على محمود طه صلة من الود. ومنها أن الشاعر المهندس وضع له رسماً (تصميمه) للبيت الذي كان في نيته أن يبنيه لينقل إليه ويقل دار كتبه قبل أن يموت. وهذا البيت قصة لم تتم، لأن هذا البيت لم يتم... فقد كان كل ما أدركه الرافعي من جهده يضعاً وثلاثين سنة، بضع مئات من الجنيحات. اشترى بنصفه قراريات ليشتري فيها دميزة وبيتنا يسكنه. إذ كان ومازال إلى أن مات يسكن بيته أيه - وبنى معه بعد ذلك قدر من المال لا يكفي نفقات البناء والإنشاء، فأثار أن ينتظر حتى يجمع إليه شيء، وأسلف صهره ما بيق عنده من المال إلى أجل، وفي نفس أمل... ثم جاءت...
الأزمة فأتكلت شروة صهره جميعا لم تبق منها على شيء، وضاعت ذخيرة الرافعي في ضاع ولم يستطع السجن وفاة الدين، فلم يبق للرافعي من جهاده وما ادخر إلا الأرض الخرية، والأمل في عطف الله، وخطوة تبين حدود البيت وحجارته وأبهاء وحديقته، مرسومة على ورقة زرقاء!...

وجاء ديوان الشاعر على محمود طه، وديوان الملاحى، فدفعتهما إلى لاختار له ما يقرأ منه كلهما. ولم أكن أعرف يومذاً ما بينه وبين الشاعر المهندس، ولكن رأي في ديوانه وافق هواه، فأنا فرغت من قراءته حتى دفعته إليه وعلى هامته إشارات بالقلم، وما دفعته إليه حتى تبدأ الكتابة عنه...

وأنشأ مقالة مشهبة نشرها في المقطم، تتحدث فيها عن الشعر حديثا بين مذهبه وطرقيته في فهم الشعر وفي إنشائه: "ثم اثنى إلى الشاعر المهندس يمدح ويثنيه، وينتقد وينصبه... وكان مؤمنا بما كتب، ولكن إيجادات من الوعي الباطنة (1)

كانت تدل عليه بعض الحديث في التعريض بعض الشعراء المعاصرين...

وتداول المازني ديوان "الملاح الثاني"، في البلاغ بعد ما تناوله الرافعي، فعاب عليه أنه كان الشاعر ينمذجها، وأخذ على الشاعر أنه كبير عنيدة بالفعل والعبارة والأسلوب، فكانت مقالة المازني حافزة للرافعي على أن ينثي مقالة للرسالة في الرد عليه، جعل عنوانها "الصحافة لا تسجى على الأدب ولكن على فنّه". فهذه المقالة كان الرافعي يقصد المازني، دفاعا عن صديقه الشاعر، أو دفاعا عن مذهب في الشعر. وكانت هذه أولى مقالات الرافعي في الرسالة بعد فترة من مقالة "وحي الهجرة". وقد أنشأها على نهج القديم، وحاول فيها فنا من التحكم في قصة اختراعها عن الإعامي الراوية.

(1) الوعي الباطنة: هو تعبير للرافعي، كما يسموه بـ "العقل الباطن".
كان الرافعى مفتوناً بمقالاته الثلاث التي أنشأها في هذه الفترة: البلاغة النبوية، وحقيقة المسلم، ووحدة الهجرة. وكان حسن وقعاً عند كثير من القراء، حافزاً لهم على الاستمرار في هذا الباب من الأدب الدينى، فعقد النية على أن يكتب السيرة النبوية كلهًا على هذا النسق الفلسفي، ليجعلها كتابًا بعنوانه "يتناول سيرة النبي معظم – صلى الله عليه وسلم – على طريقه من التحليل والفلسفة، لاعظ نقش الرواية. فأنشأ بعد ذلك مقالاته: "سمو الفقر"، و"الإنسانية العليا"، ثم بان له من بعد أن هذا الفن من الإنشاء عصر الهمض عند كثير من القراء: فطرك إلى موضوعات أخرى يعالج بها بعض مشاكل الاجتماع في الحياة المصرية، على أن يكتب ما تيسر له من المقالات النبوية نجمها في قرات متعددة حتى لا يميل قراءه أن يُقبل عليهم، وأُستحدث من بعد عن كل مقال من المقالات التي أنشأها، للرسالة، في الفترة التي صبحت فيها، لعل ذلك يعين على فهم أدب الرجل ودواجه ومعانيه، وله يبلغ في الوسيلة إلى الذين لا يفهمون أدب الرافعى ثم يحاولون أن يتحدثوا عن أدب الطبع وأدب الذهن، أو الأدب الفني والأدب النفسى"...

ولكن على أى قبل أت أبدأ هذا الحديث، أن أصف الرافعى حين يهم موضوعه، ثم حين يفكر فيه، ثم حين يبدأ كتابته، ثم حين يملئه على من القصص المبعثرة على مكتبه، فإن ذلك من الموضوع فاعته وأوله:

(1) انظر مقالات الاستاذ سيد قطب في جمعية السنة السادسة من مجلة الرسالة، وفيها كل مدار من الجدل حول أدب الرافعى بين أصدقائه وخصومه.
كيف أقرأ في الكتب؟

اختيار الموضوع، كان أول عمل يحتل له الافتراض؛ وإذا كان لم يعمل في الصحفة قبل استغلاله بالرسالة، فإنه لم يتعود من قبل أن يฝت عن الموضوع، إذا لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يضحي في نفسه قبل أن يطلبه، فليما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه، راح يكتب الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها الرسالة، فكان يضحي بذلك ويتجرع، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يسرع عليه وراء كل منظر، ويتمذ إدزنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويلقي بعده إلى كل محاوره، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يهم أن يجمع له فكره ويهب عنصره، إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثا في فكره، وانفعالا في باتيه، وكثيرا ما كان يعرض له أكثر من موضوع، وكثيرا ما كان يتأثى فيه القول فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد إرسال المقالة ثلاثة أيام!

فن خشية مثل ذلك كان دائما في جيه ورقات يكتب في إحداهما عيان كل ما اعتن به من موضوعات الأدب، ليعود إليها عند الحاجة؛ ويتخذ الورقات الباقية مذكره يقيد فيها الخواطر التي تنفق له في أي من هذه الموضوعات أي يكون، وبلغ بذلك أن يجمع عنده في النهاية ثبت حافل بعناوين مقالات لم يكتب لها ولم يفرغ لها، ورقات أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع. ومن هذه
الورقات. ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها — كان يختار كلمة وكلمة، التي كان ينشرها على أوراق الرسالة في قرارات متبااعدة كلا وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة. فهذه الكلمات هي إحدى ثلاث خواطر مبعثرة كان يلقاها في غير وقتها، أو عنوانا موضوعات لم تنتهي له الفرصة للكتابتها، أو عناوين من مقالات كتبها وفرغ منها وبحثت عنده هذه المعاني بعد تسامح الكتابة إذ لم يجد لها موضعاً مما كتب.

وبسبب أنه كان يقيد عنوانا موضوعات التي كان يختارها ليكتبها في وقتها، كان يعد قراءه أحيانا موضوعات ثم لا يكتبها ولا يبقي بها وعد، لأنه لا يملك منها إلا عنوانا في رأس ورقة يضاوء.

ومن ذلك مقالة (الفلسفة الدينية) التي وعد أن يكتبها حين أنشأ قصة "بناء البلاط" (1) ثم مضت ثلاثة أعوام ووافقت الأجل وما تزال مقالة الزبال عنوانا في رأس ورقة تحته نثار من الخواطر والمعاني التي كان يدخلها إلى يومها الموعّل.

وقد وجدت على مكتبه في طنطا غداة نعيه كثيرا من هذه الورقات، تشير إلى كثير من أمل الأحياء إلى كثير من خروج الحياة ...

(1) وحي القيم.
ما يسمعه لونا يراه، وكان في كل شيء شيئا زائدا على حقيقته يميل عليه معنى
أو رأيا أو فكر.

فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف – والقدر الكاف لتجتمع له
هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة – أخذ في ترتيبها معنى إلى معنى: وجعلة إلى
جملة، ورأيا إلى رأي. فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة
ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة – بعد أن ينئي عنها من
الفضل ما يذكره ل وكلمة أو لموضوع آخر – فنظر فيها، ويزاوج
بينها، ويكشف عنها رواها من معان جديدة وفكر جديد؛ ولا يزال هكذا:
يزاوج ويستولل، ويستنتج من كل معنى معنى، وينفرط له عن كل رأي
رأي، حتى تستوي له المقالة فكرة ممتدة ببعضها من بعض، فيكتبها
إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن، وعمل النفس، ويبقى عمل الفن
والصناعة لتنخرج مقالة الراضي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطلع به الأدباء.

لم تكن الكتابة عند الراضي فكرة ومعنى وعاطفية فحسب، بل كانت إلى
ذلك فنًا وأسلوبا وصناعة؛ والأدب العربي منذ ذلك إلى أن يطوى تاريخه بين
الذئب وهو فكر وبيان، ما بدلاً من اجتماع هاتين المزيتين فيه ليكون أداة يستحقق
الخلود. ذلك كان رأى الراضي ومذهبه؛ فن ذلك لم يكن يعتبر المقالة وقد
انظمت في خاطره معنى وفكرة، مقالة تستحق أن تكتب وتنشر إلا أن يبني
لها الثوب الأنثق الذي تظهر به قراءتها؛ وهذه هي المرحلة الأخيرة.
وأول ما يعنى في ذلك هو بدء الموضع وخاتمته؛ لست أعني العبارة التي
بدأ بها والتي يقظ، ولكنني أعني طريقة البدء والختام في الموضوع، شأنه في
ذلك شأن القاص: تجتمع له أسباب القصة بقدمتها وحوادتها وما آلت إليه مركبة ترتيب الحادثة بما بدأت وما انتهت: حتى إذا أراد أن يحكى لم يسمع أو يكتب ما يقرأ قدّم وأخر وأظهر وأخني: وببدأ القصة بما لم تبدأ ليعقد العقدة، ويرصد للهل والنفس مستشرفة إليه متعلقة إلى خانته... وكذلك كان الرحمني يفعل في مقالاته.

فقد اعتقد العقدة وترتيب موضوعه ترتيب الفصول في الرواية، آن أوان الأداء فأخذ له أهبه، فيطوي وريقته ساعة يلي رجع إلى كتاب، أي كتاب من كتب العربية يقرأ منه صفحات كما تنفق، لامام من أمة البيان العربي، فعيش وقت ما قبل أن يكتب في بتة عربية نصية للسان. وخير ما يقرأ في هذا الكتاب، كتب الجاحظ وابن المفقع، أو كتب الآباء لأبي الفرج.

وسألته في ذلك مرة فقال: «أنت يا ابن أعيش في حي عام لا يعرف العربية، ما يحدث الناس وما ينشئ كتاب الصحف في ذلك سواء، واللغة العربية هنا في هذه الكتاب، إنها هي البادية لم يطلب اللغة في هذا الزمان، بعد ما فسد لسان الحضر وال bada،».

على أنه كان لا يفيد من هذه القراءة السريعة قبل الكتابة إلا الجو البيني فقط. أما حروف اللغة وأما أساليب اللغة، فليس لكن تعني في شيء: فيقرأ إجلانان غير ملائمة كما يطلع صحفية دورية، حتى يفرغ من الفصل الذي بدأ: ثم يطور الكتاب ويستعد للإملاء.

وإذا كان كبير من الكتب تزعمهم الحركة والضوضاء، وتعوقهم عن الاستمرار
في الكتابة (١)، فإن الرافع كأنه على ما أذن به - يزعم أنه يمر النسخ على
صفحة خده... كان مكتبه إلى جانب باب الشرفة، وكان لي نضد صغير إلى
جانب مكتبه حيث أجلس ليتليل على... فكان يذني أحيانا والجرو حار أن أفتح
باب الشرفة لستروح، فلا تشكنت نبضه بجانبي حتى يكتب. وعرفت عادته
هذه فكانت أغلق الشرفة والناشدة جمعا، لأصل حز الشرفة أربع ساعات أوزيد
حتى يفرغ من إملائه. وكان يؤذني من ذلك أنني كثير التدنيش، والحر والمجهود
العصي يزيدان الرغبة فيه، فلا تمضي ساعتان منذ بدأنا حتى يفسد جزء الشرفة،
فأفتح الشرفة لتجديد الهواء، برهة نبادل في الحديث... ثم أعود وأغلقها ليتليل
علي... على أنه في غير وقت الكتابة كان يجب أن يقضي في الهواء الطلق
أكثر وقته، حتى في برد الشتاء القارس، فكان إذا فرغ من إملائه خرج
إلى الشرفة البحرية يفتح صدره للهواء يعبأ كما يقبل الشارب الحزان على
الماء في يوم فائق...

ولم أكن أفاعله حين يميل على مقاطعة ما، إلا حين أشعر أنه يهم بالانتقال
في الموضوع من فصل إلى فصل، فأطلق إليه ما أريد أن أقوله مكتوب في ورقة
لاحاوره في عبارة أو للاستعجال معنى... ثم يعود إلى إملائه وأنا أكتب صامتا،
وهو لا يرفع عينيه إلى... كأنما يتحدث من وراء ستار إلى سامع غير متطور، أو
كأنه في نحو خاص لا يسمه سامع ولا حسب. ولقد كان يشيل إلى أحيانا وأنا
صامت في مجلس وداله يجري في يدي على الصحيفة وأذني مرحلة للسمع - كانه
في شبه غيوبية يتحدث إلى نفسه والجلس خال إلا منه، فأنا فيه بشيء إلا

(١) حدثي الاستاذ الزياب صاحب الرسالة، أنه لا يستطيع أن يكتب فصلا
من مثل ما تعود قراءته أن يطالعوه له في الرسالة، إلا أن يخشو أذنibs قطعا حتى
لا ينفد إليه صوت ولا نامة!
إدراكاً غير مبرر، وأحياناً أخرى كانت تتسع روحه وتنسج حتى تشمل، ففاً أكتب كلما يلمس على ولكني تمله نسي وان صوته يثير في ذهن بال ساب إلى خاطر ...

ولم يكن يمل مسترسل، ولم يكن يلغي واننا متمهلا، ولم يكن في كل أحواله سواء: فحين يطاوعه القول، حيننا يتأبى عليه فискوك وهو يدق على المكتب بحديدة في يده ويعمجم بصوت لا بيني: فإذا طال به الوقوف تكون كتاباً ك새 للكتب، فيفتحه فوراً كلها أو سطرها أو جمله: ثم يطور الكتاب ويعد إلى الإملاء، ولقد رأى من يراه في هذا الوقت يحسه مثل ما قرأ، وما به ذلك، ولكنها كانت لازمة من لوازمها تعودها حتى يترجم عليه...

وقد كان عليه القول مرة فطال به الصمت، فديد إلى كتاب على مكتبه وهو يقول ضاحكاً: يا أخي، لقد تعودت وما أجد لها علة، وتعودت بها أن أجد ما أريد عند أول كلة أقرؤها ولو كان الكتاب معجياً لأغريا... وكان الكتاب الذي مد إلى يده هو "القاموس السحري"، قلت: إن في بعض الأشياء مثل المفاتيح العصبية ... قال: هيه هذه الكلمة التي أريدها: المفاتيح العصبية .... ثم طور الكتاب وعاد إلى الإملاء...

وقد كانت له عناية واحتفال بموسيقية القول، حتى ليقف عند بعض الجمل من إنشائه برهنة طويلة تجربها لسانه حتى يبلغها سموع الباطن، ثم لم يجد لها موعداً من نفسه فيرده وما بها من عيب، ليبدئ بها جملة تكون أكثر رياً...

(1) انظر مقالة "تربيه لولؤة"، وهي كتاب الجزء الأول (10 - حياة الرافعي)
وموسيق. وكان له ذوق قفي خاص في اختيار كلماته، يحسه القارئ في جملة ما يقرأ من منشأته، وكتبت أجد الإحساس به في نفسها عند كل كلمة وهو يملأ على. هذا الذوق الفني الذي خصص به هو الذي هبَّإ إلى أن يفهم القرآن ويعرف سر إعجازه في كل آية وكل كلمة من آية وكل حرف من كلمة. وحسب القارئ أن يعود إلى تفسير الراقي لقوله تعالى: واروأده التي هو في بيتها عن نفسه (١) ... ليرى نموذجا من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ.

وبدلاً من المعنى، يقابل وجه آخر من هذا الذوق في اختيار ألفاظه عند الإنشاء. وكان إلمامه بمنزلة اللغة، وإحاطته بأساليب العربية، ومعرفته بالفرف اللفوية في متاعدا الكلام مُعْنيه له عونا كبيرا على البلوغ بعبارة هذا المبلغ من البيان الرفع. احتاج مرة أن يعبر عن معنى في أساليب من أساليبه، فتأتي عليه القول، فأخذ يغمغم برده وأنا منصت إليه: فإذا هو يقرأ لنفسه من ذاكرته بابا من كتاب المخصص لا بن سهيد، ثم دعا بالكتاب فأخرجته إليه؛ فما هو إلا أن فتحته فوقع على مراده حتى طوى الكتاب وعاد إلى إملائه. وهو في ساحة عبارته وسلامتها قلبا كان يلجأ إلى معجم من المعام لمبحث عن كلمة أو معنى كلمة؛ ومع حرسه على أن يكون قوله العبارة عريقة الدياجة قلما كان يستعمل عباره من عبارات الأولين، وكأجده على العربية من أساليبه ومعانيه. وكان له في إنشاء الكلمات إحساس دقيق؛ وأحسب لو أن واحدا من أهل البيان أراد أن يتبع ما أجد الراقي على العربية من أساليب القول، للاخراج قاموسا من التعبير الجميل يعجز عن أن يجد مثله لكتاب من كتاب العربية الأولين، إذ كان مذهب الراقي في الكتابة هو أن يعطى العربية أكبر

(١) سميو الحب: وحي القلم ١.
قسط من المعاني ويشتت تروية جذابة إلى اللغة، وقد بلغ ما أراد.
إنه لم يعرف كاتبًا غير الرافعي يجده جده في الكتابة أو يحمل من همها
ما يحمل. وما أعرفه حاول مرة واحدة أن يتسارع من قراءته أو يشعوه عليهم
ليلاً فارغاً من صفحات يزيد أن يتمثل؛ على أنه أحياناً كانت تدعو دواع إلى
كتابته لم تهيباً لموضوعها أو يفرغ له بالله، فيصبه على عمل بلا إعداد ولا توليد،
ولكنه مع ذلك تجد عليها طابع الرافعي وشخصيته، فتعفر كتابها وإن لم يذيلها
باسمه; والعجب أن هذا النوع من المقالات التي كان الرافعي يكتبها بلا إعداد
ولا احتفال كان أحب إلى كثير من القراء، وكان الرافعي يرتفع به عن منزلته
درجات عند طائفة منهم.
والشاي أو القهوة هما كل المنبهات العصبية التي يطلباها الرافعي عندما يكتب،
وينجحون أوثانًا خصوصًا في هذا المجال الطويل. وعلى أنه في أخريات
أيامه قد وقع بتدخين الكركبة (الشيشة) ويستعوض عنها بالدخان في أثناء
الكتابة، فإنه لم يكن يشترى إلا دخنة (سبيحارة) أو دخانين في مجلس الكتابة;
فكان يشتري العلبة فتظل في درج مكتبته شهرا إذا لم يزره في مكتبه زائر....
فإذا فرغ الرافعي من إملاء مقاله، يتناوله من فطوره قبل أن يقرأه،
ثم يودعه درج مكتبته إلى الصباح ويخرج إلى الشرفة يشم نسيم المساء....ثم
ياوى إلى فراشة ...
وأول عمله في الصباح بعد صلاة الفجر أن يعود إلى المقال الذي أملاه
على في الليل فقرأه ويصححه... ثم يسعى به ساعيته إلى حيث ينشر... وفرغ
يوما لنفسه قبل أن يبكي فكره لموضوع جديد ...
مقالة... هي عمل الفكر، وكذ الدهن، وجهد الأعصاب، وحديث
النفس في أسبوع كامل؛ ولكنها مقالة... ومع ذلك فقد أنشأ كتاب رسول
الله، في بضعة وعشرين يومًا، وكتب حديث القمر، في أربعين،
وكتب السحاب الأحمر، في شهر... 
وقال قائل من خصومة: إنه يقاسى في هذه الكتابة ما تقاسى الأم من
آلام الوضع...!
وقال الواقف يحبه: أتحداك أن تأتي بتلها أو بفصل من مثلها... وعلى
نفقات القابلة والطبية حتى ولد بسلامة الله!
عمر في الرسالة

«أنا لا أعجب بالفتاح اللى بآلي بها يوم وينسجها يوم آخر وكلمة إلى أنها إلى أنا في الأدب، إنما الت نفس الصورة في دنيا وفؤادها، فلا أكتب إلا ما بنيت حية ويزيد في حياتها وسمو عاليها، ويفضن فؤادها وخصائصها في الحياة، وإن إذ لا أسس من الآداب كالآداب إلا نواحها العليا، ثم إنه يجل إلى دائما أن رسول لنوى بثت الدفاع عن القرآن وأغله وابنه، وله...»

الراقي

لم يعمل الراقي في صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل حلي بالرسالة، فإن مذهبه الإذبي لم يكن يعتن به ذلك، وقد قدمت القول عن طريقه في الكتابة، وليس يتسع الوقت من يكون هذا مذهبه، في الإنشاء أن يعمل في صحيفة من الصحف تظهر لقرائه في مواقع قريبة...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات للهلال والمقتطف وغيرهما في قروت متعددة إذا وجد نفسه حافزا للكتابة، أو إذا دعته صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقا بالكتابة...

فلما دعته الرسالة إلى الاشتراك في تحريرها وحدثت له عملة وجزاء، تردد في الجواب؛ لكنه لم يلبث أن لقي نداءها، لعله يستعين بما يحصل له من أجر الكتابة في الرسالة على أمر من أمره...

كان ولده الدكتور محمد يوسف يدرس الطب في جامعة ليون - فرنسا على نفقة جلالة الملك، ولكن الإرشاد بابا لأمر ما سقط عنه المعونة الملكية، ولس بنيه وبين الإجازة النهائية غير بضع أشهر؛ فعمل الراقي بذلك من أهم ما حمله إذ لم يكن له طاقة مالية تعيشه على الإتفاق على ولده في فرنسا، فله ذلك أجاب... الرسالة، إلى ما طلبه...»
كان ذلك في ربيع سنة 1342

فظل يكتب لما كل أسبوع مقالة أو قصة: لا يفرّ عن هذا الواجب إلا أن يمنعه المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة، ومات وهو يتهبًا لكتابة مقالاته الأسبوعية، ولكن القضاء عاجله خلقًا لها على مكتبته ورقة بيضاء...

وسأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أُلهمًا على الرافعٍ في الفترة التي حسبه فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتّى صيف سنة 1350؛ وما يهم القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها اهتمامها وملاساتها ودوفها، وما يهمون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالةً خاصة.

ينظر أثرًا فيها يكتبها، وإلى لاحق أن هذا التاريخ لا يتم بمثابة في نفس الظروف، ولا يتويق مُؤدها إلى قارئه على وجه إلا أن أثبت بعض ما ذكر من دوافع الرافع إلى كل مقال به أملًا عاليًا؛ وإلى بهذا الفصل لحاولنا جديداً في فن الترجمة، فأعرف كاتبًا من كتاب الترجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الآداب، على أن له أثير

أثر في دراسة أدب الترجم يعين على فهمه وتصوب الحكم عليه؛ فذر ذلك كانت عنايتنا بهذا الباب، وإلى لا رجوت أن تعيشوا الذاكرة على تسامه حتى أبلغ...

منه إلى ما أريد...


لم يكن بين الرافع والزيات صلة ما قبل صدور الرسالة، إلا صلة الأدب بالاديب، وما أحسهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسالتهما، ثم صدرت الرسالة فكانت بريد الأدب عامًا إلى الأدب عامًا؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافع، فتعارفا وآيتنا، وإن لم يلتقيا وجهًا لوجه... ومضت أشهر...
وتصقحت الرسالة ذات مساء من صيف سنة 1323 ؛ فإذا فيها كلمة عن أوراق الورد، للزيات، يجيب بها فتاة سألته أن يرشدها إلى شيء مما كتب أدباء العربية في رسائل الحب. ومضت فترة وكتب الفتاة عفيفة السيد ... رأيها في أوراق الورد فاغتنمته ونزلت به منزلة. وكان الرافعى في هذه الائتمان بعيداً عن طنطا يصطف في «سيدى بشر»، وكان على في هذه الفترة، والرافعى في مصطافه. أن أجمع له ما يهمه أن يقرأ ما كتبه الصحف. فلما قرأ ما كتب الزيات وما ردته به الفتاة، قصصته من صحته وبعثته به إليه في سيد بشر ومعه رسالة ضي ... وقرأ الرافعى ما بعثته إليه، فانتفض قلبه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأى الفتاة. وكانت كلمة قاسية لم يجدها صاحب الرسالة إلا فصلاً من على السفود، لا تقوى على لدغته الفتاة الناجعة ... فطوى كلمة الرافعى، ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء، ويرجوه هذه المناسبة أن يكتب للرسالة من منشور أوراق الورد ... ولم يجب الرافعى هذه الدعوة إلا بعد بضعة أشهر.

كانت كلمة الرافعى إلى «عفيفة السيد» عن أوراق الورد هي أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته، ولم تنشر. ثم سعى إليه يوزع شاب من المرتزقين برسالة الصحف، وكان الرافعى يقطع عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ ولهذا كان الرافعى لا يملك أن يحسن إليه بالمال - والمال في يده قليل - فإنه كان يحسن إليه بما يمل عليه من رسائل الأدب، لأخذها فيما يبيعها إلى بعض الجلالة فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافعى!

... جاء هذا الشاب يسأله ويطلب منه الحوار: «لماذا لا تعالج القصة؟»
وأمل عليه الرافعي جوابه، فذهب فنشره في الرسالة بعنوان "فلسفة القصة"، وكان أول ما نشر للرافعي في الرسالة.

ثم كان عبد الهجرة بعد ذلك بقليل، فلقت الرسالة إلى الرافعي أن يكتب فصلا للعدد الممتاز؛ فأنشأ مقالة "وحي الهجرة في نفس".(1)

ومضي شهر، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا "ديوان الأعشاب" وكان مرجو أن يكتب عنه؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان وطابعه غير صاحبه - أن يكون إعالة مادية لناظمه توسع عليه ما طاب من ديناه...!

وقرأ الرافعي ديوان الأعشاب... ثم هزّة أريحته إلى أن يكتب عنه، تحقّقا لرجل الراجين فيه وربّا بصاحبه، وأتى كرباً أن يكتبه مقالاً "يعتنوه بعنوانه ويدبّره باسمه". فدعاني إليه واصطعن حديثاً بينه وبينه فأحلاً على لنشر في الرسالة مدّLAYA باسمه؛ وما كان بيني وبينه حديث في شيء، ولكنها مقالة تواضعت من كرباً قسمت حديثاً، وأرضى كرباً وعاطفت في وقت معا. كان الرافعي في حرج وهو يلبي على هذا الحديث أي كان يخشى أن ينافض نفسه في الأرئ وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصدق، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتسابه، جعل أكثر مقالة عن الشعر بمعانه العام ورأيه فيه ومذهبته منه؛ ثم خص الديوان بكلمات في خاتمة الحديث كانت هي خلاصة الرأي فيه؛ وبذلك برئ من الإسراف في المدح ومن الإيلام في النقد، وخرج من الأمرين معا إلى تحديد معيّن الشعر ووسائله وغايته، فأجاد وأفاد في باب

(1) العدد 40 سنة 1934 من الرسالة.
(2) العدد 23 سنة 1934 من الرسالة.
من القول له منزلة ومقدار

ونشر هذا الحديث في الرسالة، ومضى شهر آخر... ثم جاء الجواب ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة، يعرض عليه أن يكون معه في تحريره، وتحمي له أرجأ... وقبل الرافعي، وما كان له بد من أن يقبل...

وشبيه بهذا اللون من الإحسان الأدبي براء بعض الحاجات - مقدمة  
كتبت لكتاب اسمه، الفاروق - عمر بن الخطاب، ألّفته مؤلفه وهو مدرس في إحدى مدارس الحكومة، وسعى به إليه ليكتب له المقدمة; وقرأ الرافعي الكتاب، فلم يجد فيه ما يفيده إلى إجابة هذا الوجه، فرأى الكاتب إلى صاحبه معذراً; ولكن المؤلف عاد برجه ويستشع إليه; ويبط له من حاله، ويصف حاجته... وأثّرت كلامته وما وصف من حاله في نفس الرافعي، فأجابه إلى مطالب، وكتب كتابه بعنوان، عمر، لم يعرض فيها للكتاب، ولا الموضوع، ولا مؤلفه؛ ولكنها كتبت ووجد فيها المؤلف طلبه ليصدر بها الكتاب وعلى اسم الرافعي...

فهذه الكلمات الثلاث: فلسفة القصة، وديوان الأعشاب، وعمر  
والرافعي كثير من أمثالها - هي حسنات أديبية أنشأتها على أنها لون من ألوان البر والممونة، على مثال ما يتصدق ذوو المال بالمال!

وكانت أولى مقالات الرافعي بعد مادعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه،  
مقالة: لا تتجلى الصحافة على الآدب ولبن على فتنه (1)، وتولى مقالات الرافعي بعد ذلك في الرسالة، فنشر في الأسبوع التالي

(1) العدد 50 سنة 1924 من الرسالة.
مقالة: الإشراق الإلهى وفلسفة الإسلام، وأحسبه اختيار هذا الموضوع
على انقطاع الصلاة بينه وبين الموضوع السابق - احتفاء بالمولد النبوي - إذ كان هذا موسمه.
ثم نشر يوم أم، وهي صورة حية نابضة لصبره فقدوا أنهم وما يزال
أكبرهم في الناحية: وهي صورة حقية مرت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه:
أما هذه الأيام فهي زوج صديقنا الاستاذ حسن خليف، وأما هؤلاء الصبار
فإنها؛ اهتزها الموت في ربعها خفقت وخلقت وراءها أربع، فسكتها
الرافع بالواءダウン: وما أعلم أنه مشى في جنائز قب جنازتها، ودفت في
مقبرة آل الرافع بطنطا. وما عاد الرافع من الجنازة ليعرى صديقه في
داره دعا بولده ليصح علية ويسرى عنه، فكان بينه وبين عيني الطفل
حديد طويل، فأغار مجلسه إلا ورأسه يفيض بشتى المعانى: وقبح يملت
بفيض غامر من الألم: وعينا تترقق فيما الدموع.
وروح إلى داره مجلس إلى مكتبه يفكر... ومضى يوم ثم أرسل يدعوى
إليه فأمال على: وموت أم.
وكان الأسبوع الثاني موعد امتحان الشهادة الابتدائية: فكانت مقالته:
هديد قطين: وإنها لتحدث بنفسها عن شيء من مناسبتها. وإن فيها إلى ذلك
ليست من خلق الرافع لم يكن يعرفه إلا الخاصلة من أصدقاءه: ذلك هو طبيعة الرضا
بما هو كائن: فقد كان ذلك من أبرز صفاته له: فكان دائماً باستمرار الوجه
يقع نفسه في كل يوم بأنه في أسعد أيامه: فإن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل
أللتمال لذته يشعر بها نفسها، ومن كل فادحة تنزف به خيراً تبرقه ويله: ولعل
أحدا لا يعرف أن الرافع لم يكن يرى في تلك العلة التي ذهب تحت، وهو لم يزل
глядان، إلا نعمة هياً! إنه هذا النبوغ العقل الذي أمل يبيه في تاريخ الأدب فصلا
لم يكتبه مثله في العربية منذ قرون! ولا شيء غير الإيمان بحكمة القدر.
وقانون التحول يجعل الإنسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن فلا تأخذ
منه التوازى بقدر ما تعطيه... وذلك بعض إيمان الراضي.
هذا الخلق هو المحدود الذي كان يدور حوله الحديث الذي اصطحبه الرافعي
على لسان القطين، وهو الذي جمله من بعد على إنشاء مقالي: "سمو الفقر"، في
العدد التالى من الرسالة: والشيء، يذكر بالشيء، فلولا ماجأ في امتحان
الشهاده الإبتدائية لذلك العام، ما أنشأ الرافعي حديث قطين، وولو ما أضمه
حديث القطين من المعاني في فلسفة الرضا ما أنشأ مقالي: "سمو الفقر"، في
هذه المقالات الثلاث موضوع واحد مختلف عنوانه وأخذت غاية وكانت
مناسبة ما قدّمت...
وقد يسأل بعض القراء: ولكن ماوجه عناية الرافعي بنقد توجهه
وزارة المعارف إلى تلاذتها في امتحان الشهادة الإبتدائية، وليس الرافعي من
أهل "البادوجية"، وليس المناسبة من الخطر بحيث تحمل مثله على الاهتمام،
لوقال عن هذا السائل الحنفي: "إن عبد الرحمن الرافعي - وهو أصغر في
نحوهم إليه - كان يؤدى في ذلك العام امتحان الشهادة الإبتدائية (1)؛ ومن
ثمة كانت عنايته بهذا الموضوع، وله في هذا الباب نظائر...!
ثم أنشد مقالة "أحلام في الشارع"، وقصيتها أنشق كنت أساور الراقي ليلة،
فلم انتهت السيرة صحته إلى قريب من داره، وما رنا في طريقنا بدار (بنك
مصر - طنطا)، وقد انصف الليل، فلم صننا قبالة (البنك) وقف الراقي
(1) هو الآن ضابط من ضباط المدفعية في الجيش المصري.
هندي ليست من صناعة رافعي، اتت عليها طفلة من أبناء الشوارع ناصراً على عتيبة البنك، وقد توسعت الفتاة ذراعاً وألقت ذراعاً على أخاها ... ووقف الرافعي ووقفت ... أرأي الشرطي ماربنا أسرع إلى الطفلين ...
وفي الغد أمل على الرافعي مقالة "أحلام في الدراسة"...
وكانت المقالة التالية في اللحاب ولاتحتقق ...
... وهي الممثلة الرافعية المغنية في ... وكانت تعمل في فرقة من الفرق المتميزة المتنقلة بين الحواضر، حلت مع فرقته في طنطا في صيف سنة 1934، وسببت ما لم يذهب الرافعي إلى مصيفه في "سيدة بشر" وذلك العام، واستغنى عن البحر والنصب بما قد يكون في طنطا من أسباب الترويج والرياضة ... وإن فيها لفتة وعوضاً.
وكا ثلاثة من أصدقائه الرافعي اسمع به كل مساء، أ، ع، وجلستا حولها ذات ليلة. وكان متعباً ومكدداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إلى نشاطه وانبسطه; قال: "أين تفترمون أن نقضي الليلة؟ ... قال أ: "إن في منزلي البلدية فرقة ممثليه هبطت المدينة منذ أيام، وإن فيها راقصة راقصة: أحسها خليقة من توحى إلى إله بفضل جهد من أوراق الورد! فقبل الرافعي شفته ولم يعجبه الاقتراح، وأحسب أن الصديقين، أ، وع، كانا على رغبة مشتركة في هذه السهرة. فها أحسنا رفض الرافعي حتى قال ع: ...
ولكنها راقصة ليست كالراقصات: إنها صوامة قوزامة، تصوم الشهر وستة أيام بعده، وتقوم الليل إلا أفلله، وتصلى الخمس في مواعيد الخمس، وما أحسب رقصها وغناها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ...! ...
منينة وممثلية، ولكنها صوامة قوزامة ... يا عجبنا وهل في الراقصات كهذه
التي يصفها الصديق العابث ع؟ ولكن الرافعي صدق، وعرف الصديق طريق الإقاع إلى قلب الرافعي. واتفقنا على الرأي. وهذه هي الراقصة التي أعني، هكذا قال الصديق، فأشبر الرافعي ينظر من وراء الصفوف. لقد رآها، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت في عين الناس. كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام. هذا الصدر الناهد، وهذه الساق اللافنة، وذلك الراوي الإهيف، وهتان العينان الحلمان، وهذا الخند الناضر، وهذه الشفقة الباسية، وذلك الشعر اللامع. هذه كلها صور وفترة، تعبير كحو لها شهور الرجال، ونثرتها إليها أماني الشباب، ولكن رجلا واحدا بين النظارة لم يكن يشعر شيئا من ذلك: رجلا لم يكن أحد، ففيهم أعرف أضيف منه إجازة صدر المرأة، ولكن الليلة شخص غير من أعرف، وهذه الراقصة إجازته غيرها إجازة الناس. هي في عين الجميع أمينة، ولكنها بعيدة قديمة، تستحق التjąيل والاحترام.
كانت على عيني الجعج راقصة عيني، وكانت بعيدة عابدة تنبس وتتصلى. كان الناس نظروا إلى الراقصة وهي تفنن في إغراء الرجال بالنعم والحركة والرقة الفائقة؛ وكان الرافعي ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخري رسمها من خياله.
فقالت حياله تريد ما ظر الرافعي!
وانفص الساكنون إلا قليلا تعلقوا حول الموائد يفرعون كأسا بأس، ونهض الرافعي فين بهض.
ومضى يومان، ثم دعا ليلى على مقالة في اللحب ولا تحرق
ولما فرغ الرافعي من شأن هذه المقالة، دعا إليه صديقه، ع، يستبده.
من خبر هذه الياقوتة الكرمیة؛ ویسأل الوضیلة إلى لقائها إن كان بينهما سبب، لعل اججاعاً بينها ویبین الرافعی یفتق ذهنه عن موضوع جديد یكتب لقراء الرسالة؛ فابنهم الصدیق دع، وقد دیر في نفسه حیلة تجمع بينها ویبینه؛ وهل يعطره - وهو من هو - أر یجد وسیلة لمل هذا اللقاء لیضی في مرحته إلى النهیة؟

وذهب دع، يسأل عن الراقصة ویستقصی خبرها فعرف...

لقد فزت، الباقوة، مع موسيقی الفرقة، ومضی زوجها في أثرها، فانحلت الفرقة وغادرت المدينة.

و جاء النبأ إلى الرافعی؛ فا عرف إلا من بعد أنبها كانت مرحة من الصدیق دع، فأسرها في نفسه...

وعد الرافعی إلى المقال يقوله منشورا في الرسالة وهو يضحک ويقول: أهذا ممكن؟ أهذا ما يكون؟ أن يكون في اللهب ولا تحترق؟.

فرد الصدیق دع، قائلًا: لقد احتقرت!... وكانت كذبة، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها في قرأت من روائع الأدب العربي!

كان أكثر جلسات الرافعی في هذه الفترة هم الأصدقاء، دع، ع، ع، فكان لهم سر ونهجاء، وإلى موعدهم معداً ومراحاً؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء...

في هذه الفترة مشكلة لملا فراع رأسه، فهى له في الليل مشغولة وفي النهار مشغولة. أما د، فكان على نية الزواج، قد تزامت أمانیه إلى واحدة من أهله،...
ولكن التقاليد وقفت بينها وبينه مؤقتاً، فأورثه ضجراً ومللالة وسخطاً على الناس وتبرّها بالحياة وخروجها على مأثورات الناس عليها من التقاليد في شتوت الزواج.

وأما فيما كان في عهد بين عهدين من حياة: فقد ودعت ماضيه بما فيه من عبث وفجاعة، وطلّقت شهاواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجه المحبوبة الحليّة؛ فسمى زوجته وعقد عقدّها ثم وقف ينتظر اليوم الذي يبنى فيه بأهله فلقاً جلالان، واليوم الموعود لا يحين لأن التقاليد تبعد كلاً دنا موعده...

وأما ذاك، فشباابه قد انفرد في الحياة من أهله: فقد أله وهو غلام، فكاّد يستوى شبابه حتى مضى يتنامس ما فقد منذ طفولته من حنان الأشوي، فترجّج ثم فقد زوجه، ثم تزوج التانية فا بقيت إلا بمقدار مابقيت الأولى، ولكنها خلّفت بضعة منها بين يديه مصورة في طفولة سلّبها القدر أنها يوم منّها الحياة!

... هو أب ولا زوج له، وهو عزّ وكمان له زوجتان، وهو قى يؤمن بالله ويلح في القدر، وهو خصائص منفصلات تعرف إحداها في المسجد وتعرف الثانية في الشارع؛ وله عنّة عرف في الشارع؛ وله في الحياة تجربة ورأي؛ وله إلى الهوى واللمذات مثل اندفاع الشاب الذي لم يذهب ولم يحكم بعد!

ثلاثة نفر لكل منهم رأيته في الحياة ومذهبه، ولكنهم قد التقوا في مجلس الرافعي على ورقة واحد، فأحلوه من أنفسهم وأحلوه من نفسه؛ فكان له من أحاديثهم شعور الشباب، ولم حمده حكمة الشيخ، واللذة من كل مجلس يجمعهم وإياها موضوع حتى بما كتب الرافعي لقراء الرسالة...

ومن هذه الموضوعات قصة أب،

ذلك هو الصديق ع، كان الله له...
جلس مجلسه يوماً إلى الرافعي يشكر بته وهمه والدموع تترقق في عينيه، واستمع الرافعي إلى شكاوى متألماً حزيناً، فسأ فرغ، الأب، من قصته حتى جمع الرافعي القصص والإخبارات الحديثة جملها في جيبه، وجلس يتفكر ثم كانت قصة أب،...

* * *

وفي الأسبوع التالي كان زفاف ابنه وفيدة، إلى ابن أخيه في حفل أهلي، خاص وصف الرافعي فيمقالة عرس الزهراء، وهو عرض نسيمه أخوه الرافعي، في مجلس الرافعي، وجعل فيه فناته وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدمه إليهما هدية عرس، ولما جلس الرافعي، ذراعاً إلى ذراع في عرس الزهراء، بارك لهما الرافعي ودعاً، ثم خرج ليضي العوارض في القهوة. ولقينا هناك وحدي، فانحنى ناحية على حيد الشارع، لا يتراءى إلينا من أضواء القمر إلا أشعة حائل، وكان الرافعي يؤثر أن يجلس مجلسه في الصيف على ذلك الرصيف في جانب من القهوة، ويسمه براج طنطا، إذا كان انفساح الشارع أمامه، وما يتعاقب عليه في الليل والنهار من ألوان الجمال في الطبيعة والناس - مما يحب إلى العين أن تنظر، وإلى النفس أن تتسطع، وإلى الفكر أن يبدع فيها يخلق من ألوان الجمال...

وكان الليل نائماً يحلم، والطبيعة ساجية لا يسمع من صوبتها إلا همس خافت، وفي الجو شغر يرجع في بحر النسيم وفي حفيف الشجر، وعرائس الخيال تُطير راقصة تنفح بالطرخ والرفق بالنور، ولكن الرافعي جلس جمده صامتاً لا يتحدث إلا كلمات إلى الناس يطلب كوب ماء لشرب أو جمارات... للكركر... واحترم سمته فسكت عنه...

(1) الأستاذ محمود سامي الرافعي المدرس بكلية الزراعة بالجزيرة.
ومست ساعة، ثم رفع عينيه إلى وهو يقول: الليلة عرس ابني... ولم يسمع جوابي، لأن دمعة كانت تتراقص في عينيه وهو يتحدث حبستى عن الجواب...

думة لم أترجم معناها إلا بعد سنين، يوم جاءني يقول والدموع يبلغ تحت أهدابه: إن وحية مسافرة إلى زوجها في أمريكا (1)؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك!

ثم يومٌ جاؤني بعدها يقول وفي يده صحيفة أمريكية: انظر هذه الصورة، إنهم يسمونه هناك: أصغر سائح مصري في أمريكا... إنه حفيدى مصطفى صادق الرفاعى (2)...

لقد كان الرفاعى يحب أولاده حباً لا أعرف مثله فيمن أعرف: ووهبة كبرى أولاده، ذكرى في الديوان، وغنى لها في النظارات، وأذخ زواجهما في عرش الورد...

و كانت المقالة التالية هي: "الإنسانية العليا".

وهى باب من القول في الأدب الدينى تتوارث مع "وحي الهجرة" و "الإشراف الإلهى" و "سمو الفقر" تحت باب واحد...

كان يعتبر الرفاعى كا يعتبر كل إنسان، نوبات من الضيق والهيم تقعد به... (3)

(1) في سنة 1935 سافر الشعبان محمود سايى الرفاعى، وأبن عم وعهره سعيد الرفاعى في بثرة علانية إلى كاليفورنيا; للحفل في بعض فنون الزراعة، ثم لحقت بهما بعد قليل ووهبة، لتكون مع أخاه زوجها، فلم تعدوا ولم يعدوا إلا بدون دابة الرفاعى!

(2) لم يطلب هذا الرفاعى الصغير أرضًا عربية إلا وقد بازَ الشامان من عمره وارتضى للكتابة أجمعة فلا يكاد يفصح في العربية عن معنى!

(12 - حياة الرفاعى)
وتصرفه عما يحاول من عمل؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذي يعتده إلا أن يقرأ قرآنا أو ينظر في كتاب من كتاب السيرة النبوية، فينظر جمهور ويزول ما به، ويكون عليه ما يلبث من دنياه...

في نوبة من هذه النوبات التي تضيق بها الدنيا على إنسان، تناول الرافع كتابا من كتاب الشياطين يسرّ به عن نفسه، فاتفق له رأى... وخرج من مطالعته بمقالة "الإنسانية العليا".

***

وكان للرسائل التي ترد للرافع في البريد من قراء الرسالة أثر يوحي إليه في أحيان كثيرة بما يكتب لقرائه، فهو منهم وإليهم؛ ومنذ بدأ الرافع يكتب في الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متباعدة في موضوعات شتى ولمناسبتها متعددة، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحيانا في اليوم الواحد ثلاثين رسالة؛ وكان يقرأها جميعا ويفتحها في درج خاص من مكتبته؛ وللحديث عن هذه الرسائل باب آخر، ول إذا بيني اليوم أن أتحدث عن الموضوعات التي استملاها من رسائله. ومن هذه الموضوعات مقالة "ترجمة لولوية".

كانت تصدر في القاهرة في ذلك الوقت مجلة "الاسبوع"، وقد تحت صذرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحى عقولهم وقولهم و... وشهواتهم.

وكتبت صفحاتها لها شبان وشابات أوسع من صدر الحلم، فلم تثبت بهذه السباهة أن صارت - كما يقول العامة - بطن حمار! وأصبحت ميدانا للغزل البريء وغير البريء، ووعدا من مواعد التلاقى والوداع.

وفي صبيحة يوم، حمل البريد إلى الرافع رسالة من سيدة كريمة، تلتفت إلى
محوره دائرة تعرّف فيها أفلام طائفة من الشباب في مجلة "الاسبوع". وبعث الرافعي في طلب أعداد المجلة فيها؛ فما قرآها حتي تناول القلم وأمل على مقالة "تربيه لولوية".

في هذه المقالة، خلاصة رأي الرافعي في حرية المرأة وحقها في المساواة; وترى لهذا الرأى بقية في نشر مقالات الزواج، والطائفة، والجمال الباهت، وغيرها، وهو يزعم أنه بهذا الرأى من أنصار المرأة عند من يعرف أن يكون انصار المرأة. وللرافعي حين يتحدث في هذا الموضوع حجة قوية، وبرهان ماض، إلى روح رفاحة وشعر ساحر. ولست واجد أحدا يرد عليه في ذلك على قلة من تجده من أنصاره، وقد جلس مرتة إلى المري الكبير الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداًًد الرأى في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي مناسبة ما كتب الرافعي للرسالة في موضوع المرأة، فقال لها: "إنك لن تجد أحداً من أنصار الجدي برغي هذا المذهب، ولذلك لن تجد أحداً - أيضاً

يستطيع أن يصادق الرافعي في هذا الميدان بعث حجته وقوة إقناعه ا"... وأرضي الرافعي بهذا المقال السيدة الكرمته التي كتبها إليه، ولكنها أعضب من القارئات وأطراف من القارئين، فانتهت عليه الرسائل من هؤلاء وهؤلاء غاضب مستبشره، إلا بضع رسائل... ولما كتب مقالة "تربيه لولوية" وأرسل بها، ردّ قطار البحر إلى الإسكندرية ليستفيد يوماً هناك يتزود فيه لفته وأدمنه من عرائس الشاطئ...
كان قد كتب مقالة السالف وأرسل به، ولكن معانيه بقيت في نفسه، فانها ذهب إلى الشاطئ وجد تسام موضوعه، فقد انتهى على مقالة "حوم البحر" وهي قصيدة مترجمة عن الشيطان على نسق من الشعر الفضائي.
في الرافعي وغلمب...

كان للرافعي عادةً حين يعجبه موضوع مما كتب أن يسأل عنه كل من يلقى من أصدقاءه: هل قرأتم مقالتي الأخيرة؟ وما رأيكم فيها؟ هل يملك أحد أن يعرض لأرآي فينا بالنقـد؟

وكان يعتد كثيراً بمقالة ترنيه جلولية، ففي ذات مساء بعد نشر تلك المقالة قصد إلى القهوة لبريج أصدقاءه؛ فضادف الأصدقاء س.أ.ع. (1)؛ فما كاد يستقر في المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد: هل قرأتم...

ما رأيك؟ هل يملك أحد؟

كان للرافعي في كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى، وكان لكل واحد في نفسه حقيقة، ولهما في الحياة نظرة تغترب وتقترب؛ وكلهم قد حُرموا المرأة لوناً من ألوان الحرماء؛ ولكل منهم في المرأة رأى، مما تخبئها، أو بما كابدها، أوَّما شغبها!

والرافعي رجل قد فارق الشباب وخلعه فيها خلع من ماضيه؛ وله إنه روز وأب ويوشك أن يكون جداً؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقرى إلى ماضي شبابه يستوحيه خواطر الفتى وأحلام الشباب في المرأة والحب والزواج، وهؤلاء الأصدقاء - على ما قامته من نعوتهم في أول هذا الفصل - تجمعهم صفة العروبة على اختلاف أسبابها؛ وما يزالون في باكر الشباب وفي يفظات اللحم، وكلهم قد مازم المرأة نوعاً من المراس، في وهمه أو في حياته...

(1) "أه، ونع، هما الصديقان أمين حافظ شرف، وعبد الهم شعاع، وكانا زميلان في محكمة طنطا، أما س. وأحسب القراء في حاجة إلى أن يعرفوه!"
فما كان الحديث بدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يشبع فنونًا وساقهم الرافعى بحسن اختياره إلى هدف يمر إليه... فانقض المجتمع حتى كان ثلاثتهم على ميدان الرافعى ليجربوه كتابة عن أسئلة ووجهها إلى كل منهم، على أن يلتزموا الصدق، ويجابروه الحياء، ويكملوا في الإجابة، وكانت الأسئلة هي:

كيف ترى المرأة في وهمك؟ وأين مكانها من حياتك؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها؟ لماذا لم تتزوج؟
وجه الميدان المشروب، وسعى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم؛ فنها كانت مقالة الرافعى "س. أ. ع"، وهي أولى مقالاته في الزواج؛ ثم نتائج مقالاته في هذا الموضوع. خخطها إلى قلوب الشباب خطوات، وكان بينهم وبينه من قبل ست متع.

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام، جاءته رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه في أساس أزمة الزواج؛ استياء بعد، يهتم أن يصدره في كتاب... وأحسب أن هذا السؤال كان المحفز الأول للرافعى إلى الكتابة في هذا الموضوع. وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله؛ وكان جوابا فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق؛ ولم أقرأه منشورا منذ أرسله إلى طالبه.

بدأ كثير من الشباب يتمنون بكتاب الرافعى؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب شرب، وتضاعفت رسائل القراء إليه، وطال الجدل في موضوعه بين طوائف من الشباب في مجالهم الخاصة...

فما كانت أيام بعد مقالة "س. أ. ع" جاء إلى مجلسنا في القهوة شاب من أصدقائنا المذكورين، هو الأستاذ إسماعيل خ، وهو حمام ناشئ له وله
بالآدب وشهرة في الجدل، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشذوذ في الطبع؛ وكان الرافعي يعرفه عرفانا، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة... فسأل عليه يسأله ضاحكا...

وأجاب الأستاذ إسماعيل: "الزواج؟ وما يحملني على هذا العنوان؟ أريدني على أن أبيع حرفي من أجل مرأة؟... ومضى يؤيد دعوته بالبراهين والأمثال.

وتم للرافعي موضوعه، فأنا، على في اليوم التالي مقالة "استوقي الجمل"! في هذه المقالة يجد القراء سبئا آخر لانصرف الشباب عن الزواج غير ماقتم.

س. أ. ع، في المقالة السابقة؛ فهى الحلقة الثانية من هذه السلسلة...

وأحس الرافعي بالتعب، فانصرف عن الكتابة أسبوعا ليستجتم، ولم من هنا ومن هناك طائفة من منشور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان "كلمة وكلمة" وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم، ليس بينها رابطة في الفكر ولا في الموضوع، وكل كلمة فيها موضوع تباهيه.

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصيرة التي كان الرافعي ينشرها بعنوان "كلمة وكلمة"؟ فحسناً أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها:

في هذه الكلمات التي نشرها بالعدد 25 سنة 1934 كتب عن المرأة والحب. وهذه من فضلات المعاني التي أجزاء لى في مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضوعاً ما كتب. وفي هذه الكلمات رسائل إلى "قلائة" من تلك الرسائل التي قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعي. وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التي كانت في مصر لذلك العهد، وحكومة صدق تحتضر...
فن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كمية،

كان بين الرافعي والإبراشي باشا ما قدمت الحديث عنه في بعض الفصول السابقة، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعي الشاعر بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفي … وسارت الخصومة بين الرافعي والإبراشي إلى مدى، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعي مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب في جامعة ليون!

وضاقت نفس الرافعي بهذا اللون من ألوان الكبد، ولكنه صبر له واحتفل مشقاته وتكاليفه، وألزمته الضرورة أن يقوم بالإنفاق على ولده حتى يبلغ مأتمه، على قلة إيراده وضيق ذات يده؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه، وفي نفسه أن يأتي يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيما يحفظ هذا الباب. عن كاهل! ووجد الفرصة سانحة لذلك في عيد الجلوس الملكي سنة 1934، فأنشأ كلمة بلعبة في تحيته بعنوان «آية الأدب في آية الملك» وأرسل بها إلى الرسالة لتنشر في العدد 62 سنة 1934 (1)

كانت حكومة الإمامية يومئذ في الاحضار، وقد تنبه الشعب وتهيأت نفسه لحاتم منتظرة يرد إلى الأمة سلطانها الذي فقدته منذ تولى الإبراشي باشا رئاسة الديوان الملكي، وكانت الجرائد السياسية تتحدث في كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة الفقيه وحقوق الأمة. وفي مثل هذه الحال لا يمكن

(1) كان عيد جلوب الملك فؤاد الأول - رحمه الله - في 9 أكتوبر، وكان موعد صدور هذا العدد يوم 8 أكتوبر 1934
أن تقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين، ما دام هناك رأى بإزاء رأى، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك ... 
 ... ولكن الراحفي لم يعتبر شيئا من ذلك حين أنشأ "آية الأدب ... والرسالة صحيحة أدبية تحرص على رضا قراءتها جميعاً على اختلاف رأيهم في السياسة، فإن صاحبها لم يوقع ما يمكن أن يوقع إليه من التهمة لو أخذ بنشر هذا المقال في صفحته؛ فما هو إلا أن سله إليه ساعي البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليُلقى الراحفي ويحدثه من حديثه ... والتقية ... وفهم الراحفي ما اعتناء صاحبه، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صحفة عيد الجلوس، وقرأه من قرأه. ثم كانت آخرة العهد الإبراشي بعد ذلك بسهر واحد فكتب من كتب من خصوص الراحفي يعدد فيها عدد من "جناية الإبراشي على الأدب"، أنه كان يصطنع الأدب ليحارب بهم سلطة الأمة ويسخرهم للإشبادة بحكم الفرد؛ وكان الراحفي عده من صانعيه، وآيته هذا المقال وأيات أخرى من تلقيح الخيال (1)

... وأرسل الراحفي إلى الرسالة بديلًا من هذا المقال، مقالًا آخر بعنوان "أرملة حكومة"، وكان يعني به صديقنا الأديب المهندس محمد أ. وهو شاب من "أدباء القراء"، أيقورى المذهب صريح الرأى: سلخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج.

(1) انظر ص 151 من هذا الكتاب.
وبينه وبين الاستاذ إسماعيل صاحب النسيم الجمل، صلة من الوٍّدة، وشركة
في الرأى، وصحة في البيت والندى والشارع...
لقداً مجمعين في القهوة اجتمعنا كل مساء، فعاجاً يسلم ثم جلس، وسأله
الرافعي: "وأنت فلذاذا لم تزوج؟...".
قال المهندس: "لست وله من رأى صاحب في حديثكم به أمس، إلى
لاريد الزواج وأسعى إلىه: ولكن من أيّن لي... من أيّن لملهم، وهدايا
العروسي، وأكلاف الفرح؟ إن الزواج عندني ليشوه أن يكون معجزة
مالية لا تقبل له...! ولو قد عرفت أن هذه المعجزة نمّى إلى البخل على
نفسي والقصد في نفقتي واحتلال العصر والشقة على نفسي وعلى من حول
لما وجدت ما يشععي على هذا الاحتفال إلى لاعرف من بات اليوم
ما لا يعرف غيري، أقررت على أن أحتفل المتين أو ثلاثة حتى
يجمعني إلى المال ما يجمع، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لي منها
شقاء النفس وعدو العصر؟...".
وقال الرافعي... وقال الشاب... وطوى الرافعي ورقته وقد اجتمع له
موضوع جديد. وتبعت للفكرة ثانية ناضجة فأعتلى مقاله "أرملة حكيمة"
وبعته إلى الرسالة في البريد المستغل ليدرك موضعه في عدد الأسبوع
بديلًا من "آية الأدب..."
وقلت للرافعي وقد فرغ من إلقاء هذا المقال: "أراك لم تتصف صاحبنا
المهندس في كتب عنه وما نقلت من رأيه وما ردت به، إنه ليعدر
إليك بعدرا لم أجد جوابه فيها أملت على... لقد صدق: فأن له... من
أين له هو...؟ إنه تعري أن يوجه العتب والملاحة إلى أباء الفتات والهذة".
التقاليد التي تفرض على الشباب الذي يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن
تكون له معجزة مالية ؛ فضحك الرافعي وقال : "أرأى كان يحدث بمساكع ؛ لقد أخفيتها عن
يوم سألتك ؛ وليس مهما مايمنع أن أصحبك غداً إلى حميك لطلب إليه أن
يعفوك من هذة المعجزة المالية ؛ ومضت أيام ثم دعاني ليأتي على "قصة زواج" ؛ وكانت هذه القصة هي
جواب مسألته تأخر إلى ميعاد. وكانت هي أول ما أنشأ الرافعي من القصص
لقراء الرسالة.
قصص الرافعي

أثناء وفد هذا الحد: مستشار أن أتحدث عن قصص الرافعي، وكيف كان يشملها وأول ما عالج منها، وطريقته فيها. لم يعالج الرافعي القصة فما أعلم قبل قصة سعيد بن المسبح إلا مرتين: أما أولاها فإن سنة 1905، وكانت مجلة الانتفاضة قد سبقت بين الأدباء جائزة من ينشئ أحسن قصة مصرية، فأنشأ الرافعي قصةه الأول وكان عنوانها "الدرس الأول في علبة كبريت"، ولم يحصل بها على جائزة، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان "السطور الأخير من القصة"، وسأتحدث عنها في موضعها.

أما القصة الثانية فأنشأها في سنة 1925 بعنوان "ماعمة القدر" ونشرتها المقتطف أيضاً. ثم كانت قصة سعيد بن المسبح في سنة 1934. على أن هذا النوع من هذه القصة والقصص الأولى: ذلك أن هاتين القصتين هو أنشأت فيما بينها حادثة في التاريخ أو حدث في كتب: أما قصة سعيد بن المسبح فلا أصل معتمد في التاريخ فلم يكن له في إنشائها إلا بيان الأديب وفن القاص، وكانت نواة فهمها فهمها فلم تكن لها وازدهرت. وفي الأدب القديم نواع كثير من مثل هذه النواة لم يتبناها هنالك الذين يدعون إلى العناية بأدب القصة في العربية، ولقد تنبهوا لها لوجودها معنا لا ينضب كان حريناً بأن يدمه بالمدد بعد المدد لينشئوا في العربية فتاة جديدة من غير أن

الرسالة: العدد 78 سنة 1934
المقتطف: ديسمبر سنة 1920
يقطعوا الصلة بين ماضيننا وحاضرنا في التاريخ الأدبي، ويمثل هذا تجاه الآداب العربية وتتجلد، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكون دورة المجددين، لا إلى الاستعارة والاستبداء من أدب الغرب والجري في غبار كتابته وشعرائه.

أقول: إن الرافعيا لم يكن يعرف عن فن القصة شيئا يحمله على معالجتها ويغرقه على العنابة بها. وقد قدمت القول بأنه كان يسخر من يقصر جهده من الأدباء على معالجة القصة ولا bụة أهلاً لأن يكون من أصحاب الإمتياز في الأدب؛ إذ لم تكون القصة عندنا إلا ضرباً من البهت ولوناً من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي أن يكون هي كل أدب الأدب وفن الكاتب. وقد كان يعيب على لأول عيده بالكتابة أنني لا أكاد أكتب في غير القصة، وأنا أجعل بعض همتي في دراسة الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها ومذاهب الكتب فيها، وكان يرى ذلك مني تخفيفاً ويجراً ونزاولاً بنفسه غير منزلتي بين أهل الأدب.

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة في قراءة القصة على أنها لو من ألوان الرياضة العقلية لا باب من الأدب؛ كما يشاهد روائية في السيا أو يقرأ جاذبة في جريدة. وأحسب أنه كان يعتقد على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب لأنه لا يحسن أن ينشئ قصة ولا يندفع له. وأحسبه أيضاً حين أنشأ قصة سعيد ابن الميسي لم يكن يقدد إلى أن تكون قصة، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه...

والفحصية أن الرافعيا كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة، يعرفها من يعرف في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه حين كان يتعمد العبث والتناسية، فيطوي
من الحديث، ويمض، ويكون مورده، ويزعم ولا يقول إلا الجد، وي줍ه النادرة إلى آخر الحديث، ويقول في آخر المقال ما كان ينبغي أن يكون في أوله. وكان له إلى ذلك تعبر رشيق وفطيرة رائعة متعجِّب بها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقّر المصنوع. وإن له في هذه الفكاهة مداهاب عقلية بنية تعس فيها روح الشاعرة وحكمته المتزنة وبغضته اللاذعة، ويكاد كثير من مقالاته يكون برهانا على ذلك، فقبلها تخلو إحداهما عن دعاية طريفة أو نكهة مبتكرة. 

وهذه هي كل أدوات القاص الموفق: فما يقصه إلا أنه يدرس في القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين. ولكن الرافي كان يجهل طبيعته نفسه، وكان له في كتاب القصة ماقدمت من الرأى، فكان يطلب من هذين: وحتى فيها أنشأ من القصص بعد ذلك، لم يكن له مذهب في خاص يبتذله ويسير على نهجه، ولكن كان يقص كما تلهمه فطرته غير ملبّاً إلى مارسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها، فإننا بذلك نستطيع أن ندرس طبعته وطريقة القصصية خالية له وحده، غير متآثر في بذبه من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص، على ما يكون فيها من نقش وتخليض أو ابتكار وتجديد.

وطريقة الرافي في كتابة قصصه غريبة، وغاية منها غير غاية القصاص، فالقصة عده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته في أسلوب جديد: فهو لا يفكر في الحادة الأولى ما يفكر، ولكن في الحكاية والمغزى والحديث والمذهب الأدبي ثم تأتي الحادة من بعد، فكان إذا هو أن ينشئ قصة من
القصص، جعل همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ - على طريقته في إنشاء المقالات - فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع واتبعت في تطبيق الفكرة إلى ما يريده، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أساليب الأداء، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقته المقالة أو على طريقته القصة: فكلما كان يتهيأ به إلى هدف واحد: فإذا اختار أن تكون قصة تتناول كتابا من كتب الترجم الكثيرة بين يديه فيقرأ منها ما يتفق، حتى يشعر باسم من أعلام التاريخ، فيدرس تاريخه، وبيته، وخلانه، ومجالسه، ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كابد، والختام لموضوعه الذي أعدته من قبل، وإن لهلم أحيانا يوفق فيه توفيقا جيدا، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور، أو إلا أسماء الرجال...

على أن البديع في ذلك هو قدرة الرافعي - رحمه الله - على أن يعيش بعيده في كل عصر من عصور التاريخ، فيحس إحساسه، ويسأل بلسان أهله، حتى لا يشك كثير من يقرأ قصة من قصص الرافعي في أنها كابد صحيحة من الألف إلى الياء، وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عهد واختيار، فلم يكن مثلا ما يدفعه إلى معاينة القصة واختيار طريقته فيها - ورأيه في القصة -ربما مهمته لم تتفق معه، إلا ما تأتى من طريقته التي أشرت إليها في الحديث عنه عندما يهم بالتغابة: فقد أسلف القول أنه كان يحرص أن يعيش وقنا لما قبل الكتابة في جزء عري، فيتناول كتابا من كتب الأدب القديم يقرأ منه فلا ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله: فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة، ولكنه سيء السبب، وأحسبه لما هو أن يكتب عن
المعجزة المالية، في تقاليد الزوج وعن فلسفة المهر، وقد اجتمعت له الفكرة
في ذلك، تناول كعادته كتابا من كتب العربية يقرأ فيه ما يناسب، فاتفق له في
مطالعته أن يقرأ أقصى سعيد بن المسبب والولد بن عبد الملك وأبي وداعة؛ فرأى
أشياء موضوعة فيها تمامها، فبدا له أن يؤدى موضوعه هذا الآداء فكانت
قصة. وأذكر أنه لما دعا إلى بلدي على هذه القصة قال في لجفة الظاهر:
"هل وقفت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثا
لا أعرف أبلغ منه الموضوع..."، فنذل اعتقد أن أول هذا المذهب في القصة
كان اتفاقا غير مقصود صدفة طبيعة خصبة ونفسا شاعرة فكان فنا جديدا
وأكثر قصص الراقي من بعد على هذا المذهب. عل أن لكل قصة من هذه
القصص - أو لا أكثرها - أصلا يستند إليه من رواية في التاريخ أو خبر مهمل
في زاوية لا يتبني له إلا من كان له مثل طبيعة الراقي الفتية وإحساسه وقظته;
على أن أمما ما أعانه على ذلك هو عندي ضغط الروحية بهذا المناضلي، وشعوره
بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه؛ فإن له جنب كل حادثة وكل خبر من
أخبار ذلك المناضلي قلبا نبض كان له في ذكرى حية من ذكرى تصل بين
ماضيه وحاضرها؛ فما يقرأه تاريخه كان وتطوته أينه، ولكنه يقرأ صفحة
من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحي بين أهله، فما أهون عليه بعد أن
يتوجه من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء.

وقد كنت على أن أردت كل قصة من قصص الراقي إلى أصلها من التاريخ
وأنسبها إلى راويها الأول، ليكون النموذج واضحًا لنا أن يحتذى الراقي
لتيم ما بدأ على مذهب في تجديد الأدب العربي. ولكن وجدت ذلك أشبه
أن يكون فصلا من الأدب، ليس موضوعه في هذا الكتاب.
عود علي بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الآدبي محمد. أ. إلى الرافعي من أسباب عزوته، أن الزواج عنه حظ خبيرو، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا يحسن من العنت والمشقة في سبيل إعداد ما يلزم للزواج، ثم تكون آخر ذلك أن يجلوا عليه قناعة دمية لا يجد في نفسه طاقة على مواجهتها ما يأتي من حياة، أو قناة فاسدة النزعة لا يدخل بها على زوجه ولكن على معركة...

وقد ظل هذا القول عالقاً بذهن الرافعي يلبس الوسيلة إلى تفنيده ورده عليه، حتى وقع على قصة أحمد بن أمين كاتب ابن طولون، فأنشأ مقالة تجريف جميل، وهي القصة الثانية مما لاحظ الرافعي لقراء الرسالة، وهي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته في الزواج، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف، سوداء ولود خير من حسناء. لا تبدو، يسلك هذه المقالة في باب الآدبي الدينى الذي أشرت إليه في بعض ما سبق من الحديث.

ثم كانت الحلقة السادسة هي قصة رؤيا في النبأ، وترسل بها سبق من المقالات بسبيبة، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى، وتدعو إليه الدعوة الإنسانية التي تعتبر الزواج بابا من الجهاد لسعادة البشرية كلها...

في هذه المقالة، لا أعرف سبباً خاصاً من مثل ما دعمنا إليه، ولكنها جملة الرأى وخلاصة الفكر، وأثر استغلال الرعاية النابعة قربة شهر مبوضة الزواج، فهي من الموضوع كالهامش والApiController، أو الحكم بعد المداولة، أو هي الصفوة الصريحة بعد ما يذهب الزبد وتنطفئ الرغوة...
وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأدب المروحوم فليكس فارس؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين الراقي في تصل بينهما الوعد.

لما أنشأ الراقي قصة زواج، تحدث بها الأدباء في مجالسهم وتضاعفت رسائلهم إليه معجيين مستزيدين؛ وتضاعف إنجابه هو أيضاً بنفسه، فاستمر واستمر، وأخذ التزم الكتابة على أسلاك القصة، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد.

وجلس إلى إليه ذات مساء تحدث حديثاً، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء: "أقرأ ياشيخ سيده.. أرأيت مثل هذا؟ أحق لأحد أن يدعم لنفسه القوة على خير مما أكتب في موضوعه؟ أم يكفت أن يرد على رأياً من الرأي؟..."

ومضى في طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه، فعرف أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تتبناها في النفس البشرية إلى طبيعتها، قُتِّم من نفسه من دون كل شيء، مما خلق الله، إيمانًا هو بعض الضعف الإنساني في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في الناسين من أهل الآداب والفنون، وذلك الإيمان الذي نسميه إحياناً صفاً وعengeance وكبرياء، ونسميه في الناسين ويبطء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة.

وكان يلذني في أحيان كثيرة أن أشهد الراقي في مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإبهام بالنفس، وأجد في ذلك متعة لنفسي وغذاً لروحى، لأن الراقي بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للفتاة كان رفقةً متوافداً، فلا تشهد في مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة؛ فإذا شهدته (17 حياة الراقي)
كذلك مرة فقد شهدت لونًا طريفًا من ألوانه، يوحي إلى النفس بفهي من المعاني، وكانما هو يُعيد سمعه من حالتها في نفسه فوء قوته فوء قوته، وكان شخصًا جديداً حل في...

وسرني أن أحد الرافع كان كذلك في تلك الليلة، فأصبحت إليه ومضى في حديثه؛ فلما انقضى الجمل ومضى إلى دارى، وسوس لي الشيطان أن أعابيه بشيء. فكتبت إليه رسالة بإضاءة (آنسة س) أردة عليه رأي في قصة سعيد ابن المسيب، وأعبر ماصع الرجل بابته، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسول من أسول الدكتور طه، يعرف قراء الرسالة وأزهقوه الرافع...

وبلغته الرسالة فقرًا أها، فبهبه إلى ما كان فيه من أسمه؛ ووقع في نفسه أن مرسلاً إليه هو تلخيص أو تلبيزة من تلاميذه طه موهي إلى وها كتب، فتمس للرد، وأشن ذيل القصة وفلسفة المهر، وجعل أول مقاله رسالة (آنسة س) وراحت يسخر منها ومن صاحب رأيها سخريته لاذعة؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر.

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تمرضاً بصاحبه لم يرض عنه، فكتب إلى الرافع يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة، حرصاً على ماهية الرسالة والدكتور طه من صلات الوذ وكان له مطالب، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء، ولكنها لم تخل من إشارات مهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة؛ وكذلك نشرت من بعد في وحي القلم...

* * *

ثم كانت قصة بنت البشا، وهي السابعة من مقالاته في الزواج، وقد ألمه موضوعها صديقة الزبال الفياسوف، الذي تحدث عنه في هامش هذه المقالة.
وهذه المقالة فيها تتمحور حول موضوع " قصة زواج "، فهي دعوة
اجتماعية لآباء الأطفال إلى الانطلاق من أسر التقاليد في شؤون الزواج، وفيها
إلى ذلك شيء من الحديث عن " فلسفة الرضا " التي أسفرت القول عنها في
" حديث قطين ".

أما هذا الزبائن الذي نوه به الرافعي في أكثر من مقالة، فهو من عمال قسم
النظام في " بلدية طنطا "، وكان عمله قريبا من دار الرافعي في الشارعين اللذين
يكتفينا، وكان إذا فرغ من عمله في الكفس والتنظيم ابتعد له مستراحا على
حيد الشارع تجاه مكتب الوجه محمد سعيد الرافعي، فقضى هناك أكثر أوقات
فرعه، نادى أو مخطوب ينظر إلى الرافعي والتقدم من أهل الترام والنعماء،
أو شاديا يصدح بأغانيه؛ فإذا جاع بسط يناديه على الأرض فيأكل ما فيه،
ثم يفعل دخينا ويعود إلى حيته يتأمل ...

كان هذا الزبائن صديق الرافعي كنها من علاقاته ووصفه للحبة ما بين
صديقيه؛ وكان الرافعي يسميه " أربسطي الجديد "، وأول هذه الحلة كنتهما
أن الرافعي كان يله مجانا أن يجلس على كرسي في الشارع أمام مكتب أخيه،
حيث تلقى الزبان " محله المختار "، فكان يوافقه في جلسه ذلك على ما قدمت
من وصفه، فيرعف يده إلى رأسه بالتحية وهو ينتمي، ثم يجلس، وكان يجادله
أحيانا في بعض شئونه ينتمي بعض أنواع المعرفة ... ويكره ويبه، وأكس
إلى الزبان، فكان يسأل عنه إذا غاب، وينبض لتحية إذا حضر صار
بعض عادات الرافعي من بعد أن يسأل عن الزبان حين يرغب، وأن يشتري
له كلما لقيه، دخان ينصف قرش، مبالاة في إكرامه ...

والرجل أماه، ولكن الرافعي كان يفهم عنه من حركات شفته، وأحيانا
يُستَدعي بينهما من ترجم له حديث الزبال مكتوبا في ورقة، وقد كتبت الترجمان بينهما مرة. وكان الرافعي يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالمه!

وما كان يدور بين الرافعي وصديقه هذا من الحديث، عرف الرافعي طاولة من ألفاظ اللغة العامة كان يجاهها، وطائفة من الأمثال؛ ونُسي ذلك من بعد إلى العناية بجمع أمثال العالقة، فاجتمع له منها بضع مئات بمصدرها ومواردها، وأحسها متزال مخزونة بين أوراقه. كما أفاد الرافعي مسداً صادقاً هذا، الفيلسوف الطبيعي، معاني وأفكارا جديداً في فلسفة الرضا لم تهمه بها طبيعته.

ولهذا الزبال صنع الرافعي أكثر من أغنية، أعرف منها الأغنية التي نشرها لقراء الرسالة في العدد 71 سنة 1934 وأغنية أخرى دفعتها إلى الآنسة ماري قدس معملة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحنًا يناسبها.

وقد كان في نفس الرافعي أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفة الطبيعة العملية، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفلاً كبيراً، حتى إنه فصهر يمنمو موضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى نتهجح؛ وقد ثبت لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يثبت له من الخواطر في موضوعها لم ي busiest به عند كتابتها، ولكن الود أجمعه عن تمامها، وأحسب أن هذه الورقة ماتزال بين ما خلف من الأوراق.

---

لم تكون قصة، بنت البشام هي أخرى حدثه عن الزواج، وإن كانت آخر ما أنشأ في هذا الموضوع بخصوصه؛ ثم تبقى عليه طائفة من المعاني والخواطر في
 موضوع الزواج والمرأة جاءت مبعثة في طائفة من المقالات من بعد: ومنها مقالة "حذرى" وهي قصيدة من الشعر الشعري مترجمة عن الملك، تقع منزلتها بإزال القصيدة المترجمة عن السفاح في مقالة "حوم البحر".

وكان الرافعي في هذه الفترة قد أصلد مرة بينه وبين طائفة من الشباب اللاهين، كانت تجمعهم قوة "الملوس" في حلقته للعبث واللهو والشغف، فألاتهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فهربهم إلى أحاديثهم في شنوت المرأة والزواج.

وقد قدمت القول في بعض ماسبق من هذه الفصول بأن هذى الرافعي كان سريع الانتزات إلى معاني المرأة، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء، حتى لترى وهو يستمع إلى حديثه إذ يحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة مايسمع، وأنه يشهد حادثة حديثا: ثم يزين له خياله ما أثر في سبيل من ومه إلى مايسمع مالم يسمع: فتراه كتبأ الفتي المراهق: يضع حدث الغزل والحب حريما في دمه وثورة في أعصابه لا حديث في أذنها... فيستزيد ما يسمع وهو صاغ ملدوز، يحمل محتويه بذلك على الإطاب والاسترسال حتى ينفض جملة سنة نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال...

وعلى شدة إحساس الرافعي بعينان الجنس، إلى هذا الحد، كانت إيمانه وخلقه ودينه واعتصامه بالوحدة -قيل الخبرة ضئيل المعارف في هذا الباب: فكان له علم جديد في كل مايسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشباب والشباب من ناشئة هذا الجيل: وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل قي وكل فتاة، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعي الذي يعرفه القراء.

من أحاديث هؤلاء الفتيان، كان إليه وحى المعاني في قصيدة "حذرى" ؛
كما كانت توجه إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعاني وكثير من الموضوعات؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق.

وكان الرافعي يتردد في طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان، كان بينه وبينهم صداقة وفودة؛ فكان يزورهم بين أهلهم، فيكرمونه ويستوعن له ويسكنون به؛ والرافعي حذس لبق ظريف المسامرة؛ فكانت مجاله هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويلتفتون إليه... وفى بيوت المتصريين من أهل لبنان عادات غير مأهولة في بيوتنا، فكان الرافعي يجد هناك جوا يوجع إليه ويمده بعلم جديد.

وأنا لم أصحب الرافعي في طنطا إلى دولة مصر، إلا فيما ندر، على أن كثيرًا ما كنت أحصبه في تلك الزيارات!

وأعرف بأن الرافعي لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أهل الإصدقاء، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل ببنه وبنده؛ وأحسب أن كثيرًا من كان يزورهم ويزورهن كن يعرف له ذلك فيهن له أسبابه. وكثير من نساء لبنان أُجلت بالأدب من رجال مصر.

وقد سَجَرْتْ مرة إلى زيارته أسرة الآنسة ق، وهي فتاة ذكية من أهل الفن والأدب؛ وقد ألَّح على يومنا إلحاحًا شديدًا أن أحصبه، ولم أكن أعلم ما يقصد.

إلى هذه الزيارة إلا أن تكون تسلامة بريئة ومنعا من متاع أهل الفن. وكتبت في ذلك اليوم صانعا أغنية عامة في معنى من معاني الشباب تعرب عن حال من حال في تلك الفترة، ودفعت لها إلى الرافعي لينظر فيها، فلا قراها طواها
وجعلها في جبيه...

وصحبت الرافعى إلى حيث يرى، فاستقبلتنا الفتاة وأمها وشاب من قرابتها، ثم لم يكد يستقر بنا المجلس، وأهل الدار حافون بنا يباغون في إكرامنا، حتى أخرج الرافعى الورقة من جيبه فدفعةها إلى الفتاة...

وقرأت الفتاة الأغنية، ثم ردّتها إلى الرافعى وهي تقول: "جميلة!"

شعر عاشق!...

قال الرافعى وهو يشير إلى مبنّها: "إبنتها أغنتيه!"

قال: "أيه...! أعاشق هو!"

قال الرافعى: "نعم!...! ومن أجلك صنع هذه الأغنية!"

ومضت فترة صمت، وصغبت حمرة الخجل وجه الفتاة، وتولتى الدعابة، مما سمعته فها استمعت الكلام، ونظر الرافعى إلى نظرة طويلة لم أفهمها، وكان بي من الحياء أضعاف ما بالفتاة... وكانت دعابة غير مألوفة ولا متمنية، وأوقفني في كثير من الحيرة والارتباك...

وقطعت الأم هذا الصمت التثقيف قائلة: "أغنية رقية!"

وردد الشاب صدى صوته: يقول: "...رقية!

وثبت في مكانه لا أنزعج: ولا أرى أمّي غير تلك الابتسامة الخبيثة على شفتي الرافعى...

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمتها إلى: "ثم إلى الرافعى، واتخذت جلبتها إلى جاني... وعاد الحديث ألوانًا وأفانين بين الجامعه، وأنا صامت في مجلسي لا أكاد أفهم مايدور حولي من الحديث...

وجملت أسائل نفسها وأكاد أنشق غيظًا: "تري ماذا حمل الرافعى..."
على هذا القول ..؟

فلا انفرض المجال وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الراقي مغضاً أساله جلإ السر، فضحك ملذ، وهو يقول: "قصة طريفة .. لقد عقدنا العقدة فانظر في طريقة للحل .. سيكون فصلاً أديباً متعاً يا شيخ سعيد .. تكون أنت مؤلفه وعلى أثر أرويه .. لقد سعدنا الخيال فالتسناك وسيلة إلى بعض الحقيقة .."

وغاظن حديث الراقي أكثر مما غاظي الذي كان منه .. فتمزدت عليه .. ولكن الراقي عاد يضحك وقوله: "أراك .. إن أبت .. تستطيع أن تصنع نفسك الفكر فيها وأن تتمعها .. لقد بدأت القصة فيها بدأ من أن تكون لنا خانة .." ووضعت هذه الدعابة وثارت نفس فأخششت القول .. فزاد به الضحك وهو يقول: "وهذه الثورة أيضاً هي فصل من فصول هذه الرواية ..! وأعدني مرح الراقي وانبساطه فضحك .. ثم لم أجد للجدال قائدة فسكٌ على غيظ ضاحك .. ولقيت الفتاة بعدها مرتين فتناست ما كان ولأسأل نفسى عن شيء من خبرها .. ومنى زمان .. ثم جاء الراقي يومًا يقول: "إن يذك .. وبين صديقنا الأديب ج لشبها ..! قلت: هو ماذا ..؟" قال: "أحسبه يغار منك على خطبته الآنسة .. فإنها لا تعلم أن ينسك عاطفة ..!" وقال لي: "لم بكلمته .. ولم تكن ابتها في دارى بعد ..! أراك كنت مع الراقي أمس في زيارة فلانة ..! فتوجهت من سؤاله شيتا ..! وكات تكون قصة كما أراد الراقي ولكن حسمت أسابيعها فارآً بنفسه ..!"

.. من مثل هذه الحادثة كان يلتمس الراقي موضوعاته ويبدع معانيه في
المرأة والحب والزواج ومشاكل الأسرة: ومن هذه المجالات التي كان يصنعها أو يسعى إليها ويهمه أسبابا، كانت تنحني له الفكره ويومن الحاضر وتتشقق المعاني، ومن هذا الجو زخرت نفسه بالعواطف النابضة إلى ألمه من بعد أن ينثى ما أنشأ من القصص لقراء الرسالة، ومنها كانت قصص: الأجنية، وسمو الحب، والله أكبر، والثيمان، وغيرها. وما أعني أن ذلك كان يملئ عليه القصة والتموضع، إنما كان يملئ واستمع إلى الآقاع حتى يملأ نفسه ويوقظ حبه: فما زال هذه الحواضر والأفكار مضرة في الوعاية زيد وتتولله وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها: فإذا مضمها ما يتصل بهذه الحواضر المتضاربة انثت عليه المعاني التي باتت الموضع
تستاهله على ماريد.

ولما قص الرافعي قصة "الأجنية"، وحكي حكايتها على لسان ولده الدكتور محمد، أحس بالتعب والملل، وراجع ما كان من عمله في الأشهر السهية الماضية منذ بدأ يعمل في الرسالة وما عاد عليه: فضاقت نفسه وبرمت به، وأحس في نفسه شعورًا جديدا ليس له عهد، وقال لنفسه وقال له، وثقل جسمه في الفراش بما يعمل في صدره من هم وما يضنه جسه من علة: وخفى روحه إلى سماواتها، وتازعقه قوتهان، وهم أن يكتب إلى الاستاذ صاحب الرسالة ليعفه من الاستمرار في العمل، وطال الحديث بينه وبين نفسه فألقه ليلة... وتركه ورموح إلى داري وهو شاك متمم ينكر موضعه من الحياة ومكانته بين أهل الأدب، فلما كان عصر اليوم التالي دعاني ليلد علي قلت لنفسى... وقال لي...
من أراد أن يعرف الراقي العرفان الحق، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها؛ ثم يعرف بذاته في الآداب وفده في الحياة.

إن غاية ما ينشده الباحث عند ما يهم بالبحث في حياة الإنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الآداب، أن يعرف مضمور نفسه من ثانيا أعماله أو من حديث معاصره؛ ولنهر ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة، ولكن هاهنا الإنسان يتحدث عن نفسه وتحتنث نفسه إليه، حديثا كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ.

وأشهد أن رأيته قبل أن يمل على الحديث وأن في وجهه معاينة قبل أن يكون كلاماً؛ فما رأيته ورأيت حدثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف: هذه هي هذه، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة.

وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه، وقد نظم شيئا منها قبل ذلك بستين أو ثلاث قصيدة نشرها في مجلة المقتطف.

وأما تدور إلى المحررون نفسه إذا صرح بشكانته إلى صاحب سره، هدأت نفس الراقي بعد إتمام هذا المقال وإتمام إلى الصبانة والرحمة، وكأنما نفي رحمه وأحزانه في هذه الحالات وكانت تنقل رأسه؛ أو كأنما كان يستمع إلى محاولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه، فما هو إلا أن استوعب مقال وقال حتى اطمئنت نفسه إلى الحكم الأخير، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينأشه منها أنواء البشرية.

ثم كان هلال رمضان، فأنشأ مقالة شهر للثورة، وهي السابعة، ما أنشأ من المقالات الدينية لقاء الرسالة.

...
كان خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء، حين يعتدل الجو، وتسكن المحركة، وتخف المعدة: إذا كان عمله في المحكمة يملأ بياض نهاره، فلما كان رمضان سنة 1353 (1934 الميلادية) سألت: دكوك نصن ياشيخ سعيد في هذا الشهر، وأي أوقاته تجعله للكتابة؟ قلت: فانظر، فإني رأي خطراً لك، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عاداتك فجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء، قال: لا أسلب إلى ذلك والمعدة مثقلة بعد خلاء، ولكن أحاول أن أكتب في العصر، فإني حبيتها أمتلكت المعدة ثقل الرأس، ففعل فراحه النهار أن يشجذ الدهن ويسقفل الفكر.

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه، ومعض يوم ويوم، والصبي الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئا للرسالة، واستحيا أن يعترض، فلم طائفة من قنوات المكتب، وجعلها الجزء الثاني من كتابة وكتابة، وبحث بها في هذه الكتب المنشورة بالعدد 77 كلمات عن السياسة تنشرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم، وفيها حديث عن الزكاة والصوم، وفيها كتابات عن الزواج والمرأة، وفيها رسائل إلى فلايتا، ثم كانت مقالة الأسبوع الثاني هي قصة "سمو الحب".

أشية ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة: رمضان وكتاب الآغاني لابن الفرج، وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب. أما رمضان فسما بروحه وأشبهه بما في القصة من المقال الدينية التي حكاها على لسان مفتي مكة وإمامها، عطاء بن أبي رباح، والعاشق الزاهد، عبد الرحمن الصنعي عبد الله بن أبي عمر، وأما كتاب الآغاني فأعطاه صلب القصة وأساس البناء في مسطور برودها من...
خبر "سلامة المغنية" جارية يزيد بن عبد الملك. وقد وقع الراوي على هذا الخبر اتفاقاً في إحدى مطالعات في كتاب الإعاني.

وأما أحاديث الشبان فخطره إلى إنشاء هذا الفصل ليضريبه مثلًا لسمو الحب يصحح رأى الناس فيه ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة.

في هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يرضيه أن يعرف كيف يجمع الدين والمروة والحب في قلب رجل كبار الفراعنة يعرفه الناس فيها يكتب شيخاً من شيوخ الدين فيه تحزج وخشية، ويعرفه من إرديه من أصحابه جنونٌ كليليات.

وقيس لبقايات.

ولكن ينفع الراوي بوقته في رمضان كان يتخفف من طعام الفطور، ثم يجلس مجلسه بعد المساء للإيذاء؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإيذاء. تناول السحور، فيعوض فيه بعض مافيته من فطوله ثم يلم!

على أنه لم يجد راحته في هذا النظام أيضاً؛ فلم كان الأسبوع الثالث لم يجد في نفسه خفة إلى العمل، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يccion للنشر لريسمل أوسطه من العمل، ووقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة 1905 كان قد نشر بها قصته الأولى: "الدرس الأول في عبادة الكريبت". فعاد إلى قراءتها، فلم فرغ من القراءة التفت إلى قاثلة: "هذه قصة ينقصها السطر الأخير، قلت: "وماذا يكون هذا السطر؟" قال: "إحاس: هذا غلام سرق عليه كريبت منذ ثلاثين سنة فحكم بها وحكم عليه...". قلت: "نعم"، قال: "ما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين؟". قلت: "أراه الآن رجلاً يفلح الأرض أوبعمل بالفاس في حجازة أبي زعبل".
قال: هذه الأخيرة أملل بها؛ لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت. فقاده إلى الحبس! فهل تراه بعد هذه الثلاثاءين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشقة ...؟ أكتب ... أكتب ...
وأمل على مقالة السطر الأخير من القصة.
لم يغير الراجع هذه المقالة عن أصلها في عدا الحائمة وعبارات قليلة: وزاد عليها شيئا من المجاورة بين الكلام وقاضيه. وما كان حرصه على بقائها كذلك إيجابا بها، لكن كأو ما ردته هذه المقالة إلى شيء من ماضيه ترواح فيه من روح الصبا والشباب: ففي ذلك كان إيقاؤه عليها ليلبث فيها روح الصبا والشباب!
وفي الأسبوع التالي - وهو الأسبوع الأخير من رمضان - أمل على قصة "الله أكبر،" وهي سبيل ما سمع من أحاديث الشباب عن الحب، ورقية ثانية من رقية الحب الداعر: كانت الرقية الأولى هي كلمة "برهان" في قصة سمو الحب، وكانت الرقية هنا هي كلمة "الله أكبر،" وأول الأمر في هذه المقالة أني كنت جالسا إلى الراجع في القهوة نتحدث في شأن ما، وسافقا الحديث مساءه إلى بعض شئون العيد، ولم يكن بيننا وبين عبد الفطر إلا أيام، وقال الراجع: "... و أنا لو أردت إلى السمع لن يطربي شيء من التشكيك ما كان يطربي في صدر أيامي تشكيك الناس في المساجد صبيحة يوم العيد: الله أكبر الله أكبر! يعجب بها المسجد و يصبح الناس ... لبت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام؛ الله أكبر! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لا استنكرت الحياة على وجهها ولم يصل أحد!"
ومضى يتحدث عن روح المسجد وفسفحة التكبير عند الأذان وفي كل صلاة، فما فرغ من الحديث حتى طرقنا زائر من رواد القهوه خليه وجلس...

وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فن...

وتهما موضوع القصة في فكر الرافعي، فلما دعنا نتمها على لم يعد في نفسه إقبالا على العمل، فوقف في الإملاء عند منتصف المقالة ونشأ البقية إلى عدد ثم كان تمامها.

وفي صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبيه، وقد كان في الرافعي حرص شديد على ذكرى أبيه: فهما معه في كل حديث يتحدث به عن نفسه، وزيارة قبرهما فرض عليه كلما تبعت له الفرصة: وما إيثاره الإقامة في طنطا على ضيقها به وجهله مقداره إلا ليكون قريبا من قبر أبيه وأمه. وقد نقلته وزارة العدل مرة قرية قرية، فصمد على أمر الوزارة وأبي الانتقال وانقطع عن العمل في وظيفته قرابة شهرين حتى ألغت الوزارة هذا النقل، وكانت كل حجبه عند الوزارة في إيثار طنطا: أرن فيها قبر أبيه وأمه!... وقد مات ودفن إلى جنب أبيه وأمه، فلمه الآن سعيد بقردهما في جوار الله وعلهمها به...

ولما عاد من زيارة المقبرة أمل على مقالة دوحة القبور!

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه، فأنشأ قصة: بنت الصغيرة، وهي الثالثة مما نجل أمة الصدر الأول من القصص؛ تحدث في قصة زواج، عن سعيد بن المسيب، وتحدث في سمو الحب، عن عطا بن أبي رباح، وتتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصري.
في هذه القصة يتناول الرافعي موضوع الزواج على النحو الذي تناوله في قصة "رؤية في السماء"، على أنه باب إلى السماء الإنسانية، وفيها إلى مافيا من الدعوة إلى الزواج وبير البنات - شيء من الأدب الدينى يصحبها إلى سياقاتها.

ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من "كلمة وكليمة" العدد 48 سنة 1935 - وفيها كتابات عن السياسة، وحديث عن المرأة، ونظرات في أخلاقيات الناس أو حتى إلهامها قضايا كانت له في المحكمة شكلها أمرها وقتاً، وقصة ذلك أن الرافعي كانى فشترا قطعة أرض للبلدة في شمال المدينة ونقد البائع تناولها وجعل لها حدوداً مرسمة؛ ثم أخرجه أن يبيعها فظل خلاء. وكانت هي كل ما حصل للرافعي من الاستقلال بالأدب أكثر من ذلك قرح؛ ثم طمع البائع أخيراً فيها فاعلمه كيف يبيع فتحيّف القطعة من أطرافها، واصطفى بينه وبين الرافعي مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطالعة تدقع إلى اليأس، وشكاه الرافعي وتأهب لمناضلاته، واستعان عليه خصمه بواحد من ذوي صبره يعمل مفتتشا في وزارة العدل، فانتدب للتفتيش عن أعمال الرافعي الرسمية في محكمة طنطا مهدداً متوعداً لعلمه يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه!

طالت القضية بين الرافعي وخصمه، وتعددت جلسات المحكمة، وطالت كذلك دورة التفتيش. وكثيراً تحدى المفتش الرافعي حتى لازمه ثلاثة أشهر يفتتش عن أعماله، حفظ فيها عن بعض من ضحاياها الذين قد الحملى الرافعي رسومها، لعله يثور له فيها على غعلة تحمله على الخضوع له؛ وغعلة في تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها غزارة مالية ... ومن أين للرافعي؟

وكت متعدداً أن أعده على الرافعي في المحكمة في أوقات الفراح: فلما علبت
أن مقتضى عنده أقصرت؛ فلما علم منى سبب انتعاش عن زيارته قال: لا عليكم وخلع عنك هذا الوعم فلا تغير شيئا من عادتك! وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنه؛ وكان يدنى إليه في مجلسه، يجعل كرسي إلى جانب كرسي خلف المكتب، وينتُبى على المفتش أن يذهب إليه حيث يكون ليثمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه. وفي أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا في مجلسه ليسأله عن أمر من الأمر، فدفعه الرافعي واقفاً وتحدث إليه وهو جالس حديثاً كله سخرية وتهم ثم لا ينظر إليه إلا ربيت يجيبه عما سأل، ثم يفضع عنه ويدعه واقفاً ليعود إلى ما كان فيه من الحديث معه أو المطالعة في مكتبة أو كتاب!
وعلى أن المفتش لم يظهر بشيء مما أراد بالرافعي، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه ثلاثة أشهر أو يزيد؛ على رغم ما كان يبدو على الرافعي من إهمال شأنه وعدم الاكتراه به!

ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافعي، وانتهت كذلك دورة التفتيش على غير طائل؛ ولكن هذه تلك قد شغلت الرافعي شتراً كبيراً من سنة 1935، وأوحت إليه بكلمات وكُتب ما نشر لقراء الرسالة في هذه الفترة.

... ولم يفرغ بعد كل أولئك ما يتصل بموضوع الزواج وشجون الأسرة، فكانت القصة التالية "زوجه إمام: الإمام أبو محمد سليمان الأعشى؛ وزوجه وتبليه أبو معاوية الضرير.
قصة أراد بها أن يستوفي موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب
الزوجة. وبها تم ما أملاء علّي في موضوع الزواج؛ وعدته ثلاث عشرة مقالة، أوها مقالة، تس. أ. ع، وأخرى الجزء الثاني من قصة إمام. وددت لو أن الرافعي حين أعاد نشر هذه المقالات في وحي القلم، نشرها على الترتيب الذي كانت به والذي رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة، فإن ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعة. متاسوعة، فصولها فصلاً إلى فصل، ولكنها جمعها في وحي القلم على ترتيب رآه، يجع فيها القصة، والمقالة، والحديث الديني، وجعل كل نوع من هذه الثلاثة في بابه، على أن ذلك لا يمنع الباحث الذي يتبع للرأي في هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب الذي قدمته أسبابه وأسبابها معه.

كان الرافعي قلمه يجلس إلى مكتبه في المحكمة إلا أن يكون له عمل، فإذا لم يجد له عمل في المحكمة، نصرف لوقته إلى حيث يشاء. غير مقتيد بموعد من مواعيد الوظيفة، وكان يزورني أحياناً في المدرسة ليقضي معي وقتاً من الوقت أو ليصحبني لبعض حاجته، وكان يطلبني على عمل ويزعم أنه لوكان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان، ويجب لي كيف لا أجد في صحة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ في نفسى معنى الشعر والحكمة والفلسفة.

وزارني يوماً، وكان من تلاميذى في المدرسة طفل في العاشرة أبواه من ذوى الحول والسلطان، فكان يصحبه شرطي كل يوم إلى المدرسة ويعود به، وكان قفي لدنا، فيه طراوة وأسودة، وله دلال ووصف، فتفقد أن حضر إلى لشأن ما والرافعي معنى، ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا، (18 - حياة الرافعي)
ونظر الرافعي إليه وقد وقف يكلم وإلى ويتخلع لا يكاد يُقَارّ في موضعه...
ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطي وراءه يحمل حقيبته، والتتفت الرافعي إلى سِلَّمٍ... وبين تلاميذ كثير من مثل هذَا الشُّمِيعَون؟.
وكلمة شمِيعون عند الرافعي هي عَلَمٌ مشترک لكل قَتِب جَمِيل. وتاريخ هذا الاسم قديم، يرجع إلى أيام صلة الرافعي بالمرحوم الكاظم؟؛ إذ كان الكاظم له صديق من الغلابين يحبه ويوثره ويخصه بالسر... وكان اسمه شمِيعون، حديث الرافعي عنه قال: "وكان قَتِب جَمِيل لولا نبَات الغلابين لحِسَبه أثَّنّ!... ورأى الرافعي كثيرا في حبه الكاظم، فوعى اسمه وصورةه، ثم كان اسمه عند الرافعي من بعد علما على كل غلام متأثِّر... قلت للرافعي: "هذا ابن فلان الحاكم، وهذا الشرطي الذي يتبعه هو من جنود أبيه، وإن من خبره...".
قال الرافعي: "وهذا موضوع جديد!... فهذا كان سبب إنشائه قصة "الطوفان نان".

كان الرافعي يؤمن بالغيب إيماناً عميقاً لا ينفّذ إليه الشك، وكان له عن الشياطين والملاكِكة، وعن الوحي والإلهام، وعن تجاويع الأرواح في البَقُطة والنوم، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الحَلِيل...
وكان له - إلى إيمانه ونذُرَه - نزوات بشرية تعقبها التوبة والنَّدم، فكان إذا مرت أمامه أرامل فأتبعها عينه، أو سمع حدثاً عن غائب فتعقبه بالحديث.
عن بعض شأنه أو ناله أحد بمساء فردها إليه، استعاوض وحول، وقال: هذا من عمل الشيطان! وإذا همت نفسه بشيء، تتكرر الرواية، أو دعته داعة من هراة إلى ما ينتجر منه المؤمن، أو صرف شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه، حمل نفسه على مالا تتحمل، وأنكر على نفسه ما أهتم به أو دعت إليه أو انصرف عنه، ورم الشيطان وتجمع عليه الذنب. وفي مقالته، دعاء إبليس، حديث يحقق هذا المعنى.

فإلى مله يذات مساءٍ إجدها البريد برسالة من آنسة في دمشق، ومعها صورتها مهداءة إليه، تبنته لواحها وأخلاقها، وتشكو إليه أنها... مستقرة إلى رجل! ونظر الرافعي إلى صورة الفتاة فأطال النظر، ووقف الشيطان بينه وبين الصورة يحاول أن يزيدها في وهمه حسنا إلى حسن، ويرس له خطة... ثم وضع الصورة في علتها وهو يقول: "أعود باليه من الشيطان... أма إنه..."

وقال شاب في المجلس: "وهل الشيطان إلا هو النفس؟" 
وقال الرافعي: "وهل تفكّر؟" 

وطال الجدل، ومضى الحديث في فنون... من هذا الحديث وهذه الحادثة كانت مقالة "الشيطان".

وكان لولده سامي زوج لم يدخل بها، وقد مرضت بذات الصدر بعد مساها وعقد عليها؛ فأقاتت زمنًا في مصحة حلوان، ثم ارتدت إلى طنطا لنقيم بين أسرتها ما بقي، وزوجها حني بُسرها قام على شئونها، ثم جاء أجلها؛ فدعي الرافعي إبراهيم، جلس إلى جانبيه لحظات وهي تحتضر، فكان له من هذا المجلس القصير، مقالة "عروس مُنزفَة إلى قبرها!"
 كنت ليلنتذ على موعد معه في القهوة، فظلت أناطره ساعات، ولم يتلقف الرافعى موعده معه مرة من قبل; فلما طال في الانتظار مضت شأني. وفي الصباح جاء توقيع الفتاة فعرفت عذره; فلما كان العصر ذهبت في نفر من الأصحاب لتعريته في دار صهره; والتسلنا فيها وجدناها، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلى داره بعد الحجازة لبعض شأنه; ولقيته بعدها، فعرفت أنه ترك المأموم والمعرين ليبرغ لكتابة مقالة قبل أن تذهب معانيه من نفسه!

يرحمه الله! لم يكن يمز به حادث يألل، أو يقع له حظٌ يُسر به، إلا كان له من هذا وذلك مادة للفكر والبيان، وأنه كل ما في الحياة من مسارات وآلام مسخر لفنه؛ فهي للناس مسارات وآلام، وهي له أقدار مقدورة لبتدع بها ما يبديه في تصور الحياة على طبيعتها وفي شيئاً أو أثراً، ليس يبدها في البيان العربي.

ثروة تبقى على العصور، وهو إخلاص الفن لم أعرفه في أحد غير الرافعى!

وإذ ذكرت السبب الذي دعا الرافعى إلى إنشاء مقالة «عروس تُرف إلى قبرها»، أرى مسقاً إلى ذكر حديث بين وبين الرافعى يتوصل بهذا الموضوع، وإن له لبدل على خلق الرافعى وطبعه، وهو بسبب ما رصيته فيه من قبل فيسفة الرضا.

لم يكن لأحد رأى في خطبة هذه العروس إلى سامي، ولكنها هو خطبا لنفسه، وكان يهرجها ويرجوها لنفسه من زمن، ولم يكن يخاف حجاب، فإنها كانت خالصة: فلما أجمع أمره على خطبتها بعدما أخرج وصار له مرتب كفيفه (1)؛ ذهب يعرض أمره على والده، فعشيره بناه ذهب إليه لسبب سيكونه، ولكن مع إعداده.

(1) كان سامي معبداً في كلية الزراعة قبل أن يذهب في بعثة الجامعة إلى أمريكا.
برأيه في هذه المعرضة ترك لهواه ولم يفرض عليه رأيه; إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه، فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبذل له النصح ثم يدعه الخبرة في أمره.

وخطب سامي فتنه، وعقد عقدته، وكان حمره يعمل في مال فأكمله الأزمة، وعُقد عليه رزقه بعد سعة، ثم مرّت الفتاة مرضها، فأكرمها زوجها وقام على شعوبها، وأنفق ما أنفق في طها وعلاجها سنين أو زيد، بين طنطا وحولان وتدّعى فنون الحديث يوماً بين وبين الرافعي حتى جاء ذكر سامي وزوجته، وكانت ماتزال في مصحة حولان; فقال له الرافعي: إنظر! إنها حكمة الله فيها يجري به القدر! صلى الله عليه وسلم. إن هي حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكَّم في أقدار الناس... ليس للإنسان خبرة من أمره، ولكنه قد مقدر منذ الأزل يربط أسبابًا بأسباب، وجري بالحياة وحدة متاسكة، فما يجري هنا هو بسبح ما يجري هناك، فلا انفصال لشيء منها عن شيء... وَتَّرَى مَنْذَا كان ينفق على هذه الملكية ليطلب لها من دينها ولم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامي هو زوجها؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمت له من الرأى والتصحّة إلا لأنه في تدبير القدر مرّ جزء هذا الزواج من بعد؟ لقد كنت مستيقيماً من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية، وإنئي اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمة البالغة، لأشعر بكثير من الرضا إلى ما كان!...

---

وهي تمت بسبي إلى مقالة حديث خلفين، وفيها حديث عن ولده عبد الرحمن.
وهو أصغر بنبه: وكان الرافعي يرجع ليكون من أهل الأدب: فا يزال يستحثه ويحمله على الدأب والملاءة ليكون كا يرجع أبوه، ويحمله بذلك الرجا على مالا يحتلم، وكان الإجاء، هو وسيلة الرافعي إلى تشجيعه وتحمسه إلى العمل، ويبعد مثل من هذا الإجاء، فإنا تحدث به الرافعي عنه في أول ذلك المقال، وكان الرافعي معني بمستقبل أولاده عنابة كبيرة، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى، وكثيرا ما كان يرسم لهم الحفظ للتحصيل والمذاكرة، وقد وجدت بين أوراقه جديدا له إلى ولده إبراهيم ينسحب ويرسم له منهجا ليؤدئ نفسه للاختبار، لو أنه اتبعه لكان اليوم غير من هو! ومن أجل أولاده أنشأ كثيرا من المقالات عن عيوب الامتحانات مناسبات مختلفة كان ينشرها في المقدم، وكانت له طلبات ومفتوحات إلى وزارة المعارف أجاب أكثرها ولم ينفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها! أنشأ هذه المقالة قبل عبد الراضي، وكان أشترى خروفيين للضحية، أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد؛ فسما زعيم إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفيان: ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجا في الإنشاء يعينه على بعض واجبه المدرسي. 

وكان للرافعي أرى فيها تنقل الصحاف من أخبار تركيا، تفسر مقالة تاريخ ينكم، وقد دعا إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحاف في ذلك الوقت عن أحداث تجري في تركيا؛ رأى فيها مشاهدة من حوادث سبقتها في مصر قبل ذلك بألف سنة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي، وفي أحيان كثيرة كانت تثور نفس الرافعي لما يسمع من أخبار تركيبا، فهذا يكتب:
ثم يمنح ذلك خشيتة أن يكون فيها يكتب شيء يقله موقف المسؤول عن غلطة تكرر صفة مابين الدولتين، ثم جاءت مناسبة هذه المقالة أن أنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله، وهو يعني رئيس الجمهورية التركية لذاذ ذلك العهد، وكانت هذه النعمة وسيلة لتبز من التبعية السياسية، ومنها كان الغموض في كثير من معاني هذا المقال؛ فشئاً فليعد إليه ليقرأ وأي عرف داعيه، فلا يجد غموضاً فيه من بعد.

ومع أجل هذا السبب وهذا المقصد نفسه، كان مقاله "كف الرذابة، الذي أنشأه على أساليب كليلة ودمنة بعد ذلك بأشهر.

ثم حل جلال الهجرة، وتهافت الرسالة لإصدار العدد المناز، في ذكرى الهجرة، فكتب إلى الرافعي فيمن كتب من أسرة الرسالة، تطلب إليه أن يكتب موضوعاً مناسبة للذكرى الهجرة، وضمنت له أجراً، واستقبل الرافعي للفتياة فأعادت قصة اليمنان، وبعد بها إلى الرسالة قبل موعد العدد المناز بأكثر من أسبوع، وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقابل الأسبوع المعتاد، وأنه مايزال يعد موضوعاً للعدد المناز، فنشرت قصة اليمنان قبل موعدها، ولكن يكبت إليه تستنجده المقال، وكان الرافعي متعب الأعضاء، يشك وجهاً في أضراسه بثقل رأسه، وقد عاظه أن الرسالة فوزت عليه الفرصة فسكت إلى نشر القصة التي أعدها للعدد المناز قبل موعدها وتركه في حبيته، ولم يجد في نفسه خفة إلى العمل، فذهب إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن موضوع خليق بالنشر في هذه المناسبة، فوقع على مقالة حقيقة المسلم بالشام، وكان كتبها قبل ذلك بستين إجابة لدعوة جمعية الكشف المسلم بالشام (1) ونشرها بالأهرام.

(1) انظر صفحة 208 من هذا الكتاب.
في ذكرى المولد النبوي لسنة 1352 ه فبعث بها إلى الرسالة لننشر في العدد الممتاز لسنة 1354 ه.

يتحدث الرافعي في قصة المدامتين عن الفتح الإسلامي، وأخلاقيات العرب، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية، وافتتاح القبط بسجابة العرب ومزايتهما بالإسلام؛ وفيها إلى ذلك حديث بحجاب عن الحب والمرأة في قصة خيالية افتقالها ليلعب بها ما كان نفسه من معاني الحب، ثم جعل في خاتمها، نشيد طويل، التباعة التي تقول الرواية العربية إنها تزعمت في جوار عورين بن العاص فتعتى أن يقصر فطاطه.

كان لهذه القصة عند الرافعي وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المبيب. وقد افتئت بها القراء، حتى كان منا أن أهدي إلى الإسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ في بلاد الجزائر، فكتب إلى الرافعي رسالة يعلن فيها إسلامه، ويسأل الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه. ولم أشعر على هذه الرسالة بين مخلّف الرافعي من رسائل أصدقائه إليه وجعلها فتحية الجزء الأول من كتابه وحى القلم.

ولم يكفيه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعاني من وعى الضرس وتعب الأعصاب؛ فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من كلة وكلمته.

موقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال.

جلست يوماً إليه تحدثت من أحاديثنا فقال: "إن صديقنا الأستاذ..."
لم يكتب إلينا من زمان... ليت شعري مانع عننا، إن بقلقا عليه وفي نفسى أن أراه أو أعرف من خبره.
وفي صبيحة اليوم التالي طالعنا الأهرام بخبر عامض: 5... أن شابا من الادباء، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر، قد حاول الانتحار بقطع شريان في يده!...
وقرأ الرافعى الخبر فارتب وجهه وانفعلت نفسه، وقال: أقرأ، إنه هو...!
قلت: من تغنى؟
قال: صديقنا، لقد علمه شيطانه على دينه آخر الأمر. غفر الله؟
جربعت وطرلت نفسه، وقال له وأركب أعظم بريق: م م إنا لنتوهم، وإنك ما تفكر في شأنه ليُخيَّل إليك. إن صديقنا دينا، وإن فيه تحرجة وخشية.
وما أراه في أي أحواله يُقبل على مثل هذه الجريمة، ولكن الرافعى لم يلفت إلى ما أقول، وأخذ يحول ويسترجع ويسعد بالله من غلبة الهوى وفجتنا الشيطان. ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى م، يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية في دينه ودنياه، ثم يقول إليه أن يصف له ما كان منه وما حمله عليه وما آلل إليه أمره، ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجع، الدقة في وصف المرحلة التي كان فيها بين الحياة والموت، فإنها المرحلة التي لا يحسن أن يصفها إلا من أحس بها...
وصديقنا الأستاذ. م. أدب واسع المعرفة، له دين وضرورة، وفيه تخرج وخشية، وقد نشأ في بيت له ماض في الدعوة إلى الإسلام والمدافع عنه والذود عن حرماته، وهو شاب عزب، بعيد الخيال، دقيق الحس، مهند الأعصاب.
وعلى أن يعيش في ظل وارف ونعمة سابقة، فإنّه من سعة خياله ودقة حسه وحدة أعصابه المشائم النظرة، لا رأيت إلا رأيته في وجه وعلى طرف لسانه معنى فذة من معاني الام، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريباً في هذا العالم وبين هذا الناس؛ فإنّ له من خياله دنيا غير دنيا الناس، وعالمنا غير هذا العالم، يتمثل فيه المثل الأعلى الذي أعيده أن يبلغه على هذه الأرض، وكان بينه وبين الرافعى وذ وله في نفسه مكان، فكان له سره ونزاهة منذ كان قيل نافع لم يبلغ العشرين، وكان الرافعى يعتد بصدقته ويزرح له ويعجب به نظائه ونقواه ويتوق له مستقبلاً.

فلا يبلغ الرافعى نام شروعة في الانتحار جزء وتكييف وضاقت نفسه، وناله من الهم ماله لحادة ما لقى من دنياه، فإنّ أجلس هذه الحادثة أنشأ مقالات، الانتحار، ولم يكن الرافعى يعلم من أحوال صاحبنا مادفعته إلى هذه المحاولة الطاترة؟ فأخذ ينكمه وينحت الأسباب لبني عليها الحديث والقصة، فما جاء جواب الأستاذ م، إلا بعد المقالة الثالثة، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات، وجعل الحديث في هذا الجزء على لسان أبو محمد البصري، وهو يعني به الأستاذ م «هو هو»، وكلمه كلامه في جملته ومعناه، لم يغير منه الرافعى إلا قليلاً من قليل، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الستة؛ أما ماعداها وما سابق أو لحق؛ فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفسه.

ومقالات الرافعى في الانتحار، هي باب من الأدب لم ينسج على منواله في العربية فيها فن القصص، وفيها روح المؤنذ الذي لم تفنى دنياه عن ربه، وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحکمة، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة.
وكان بين الرافعي والأديب حين مظهر آخر الطائف المصوره وودة
فلما تولى تحرير الطائف كتب إلى الرافعي رجوع أن يكتب فصلاً لقراءة
الطائف عن عمر المرأة، فكتب فصلاً بدلاً يصف فيه نفسه وصاحبته
فلانة، في أول لقاء بينهما.
فلما فرغ من مقالات الانتصار، تناول هذا الفصل فراغ فيه ما زاد
وبعث به إلى الرسالة بعنوان "ورقة ورد" لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف
"أوراق الورد"، فهذا الفصل عنه هو من تمام هذا الكتاب.

وكان من زملاء الرافعي في محكمة طنطا الأديب فؤاد... وهو شاب له
ولوغ بالأدب، وعلى أنه زوج وأب، فإنه كان يتناوله وليسته مرهق أنظار
كثير من الفتيات، وكان له في الغرام جولاً...
ثم فاء إلى نفسه بعد حين، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته
وولده، وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية في إحدى الصحف الصغيرة التي
تصدر في طنطا...
وقرأ الرافعي بعض ما ينشر صاحبنا، فرأى "علياً جديداً" لم يدخل إليه
من باب ولم يقرأه في كتابه، فأرسل يستدعي صاحب هذه المقالات إليه ليقدم
علماً من عليه ومن تجاربه...
وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافعي ويبقص عليه، والرافعي صاغ إليه ملذود
بما يسمع، فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موحد مع الرافعي أن يحضر
له طائفة من مذكرات ورسائل صاحبه، لعله يعد فيها موضوعاً يكتب لقراء الرسالة
فَنَّ هَذِهِ الْمَذِكْرَاتِ وَتَلَكَ الْرَّسُالَاتِ اسْتَفْلَى الْرَّافِعِي مَقالَاتِهِ «الطَلَائِشَة»
وَمَا دَمَّعَ مِن رَسَالَاتِ الطَلَائِشَةِ وَفِلسَتَةِ الطَلَائِشَةِ
هي قَصَةٌ لاِ افْتِعالِ فِيهَا لَوْلِسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ صَنْعِ النَحاْيَةِ، وَمَا حَكَى الْرَافِعِي
مِن رَسَالَاتِ الطَلَائِشَةِ هُوَ مِن رَسَالَاتِهِ نَفْسَهُا كَأَنْ تُقُلَّلَ مِنْهَا إِلَيْهِ صَاحِبَهُ؛ وَفِلسَتَهَا هِي
فِلسَتَهَا كَأَنْ تُقُلَّلَ مِنْهَا الْرَافِعِي مِنْ رَسَالَاتِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَعْ صَاحِبَهُ.
وَلَقَدْ نَالَ الْرَافِعِي مِنْ مَلَامِحِ الْفَتيَاتِ مَا نَالَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْمَقالَاتِ، وَقَرَأَهَا
أَكْثَرُ مِنْ قَرَأَهَا مَنْ هُنَّ مَنْ أَنَا قَصَةٌ مِنْ النَحاْيَةِ اخْتَرِعَهَا الْرَافِعِي لِيَنْحِيْ فِيهَا
يُقْتِلْ لَعْدُهَا فِي الْحَبِّ وَالْمَرَأةِ وَتَجْرِيدُ الأخْلاَقِ، وَالْحَقِيقَةُ فِيهَا هِيَ مَا أَقْدَمَتْ
وَقَدْ زَادَ الْرَافِعِي إِيْمَانًا بِذَلِكَ بَعْدَ هَذَا الَّذِي سَمَّى مِنْ صَاحِبِهِ وَقَرَأَ مِنْ مَذِكْرَاتِهِ
وَمِنْ رَسَالَتِهَا!
وَلَمْ يَكْتَبِ الْرَافِعِي قَصَةٌ، الطَلَائِشَةِ، عَلَى أَنَا قَصَةٌ، إِذْ كَانَ صَاحِبِهِ قدْ كَبَر
قصَتَها عَلَى طُرِيقَةٌ مِنْ فَتْحِهِ؛ فَآذَرَ الْرَافِعِي أَنْ يَنْتَوَاهَا مِنْ أَطْرَافِهَا لِيَمْكَحْ بِهَا حُكْمٌ
وَيَتَحَدَّثُ عَنْ رَأْيِهِ فِي طَائِفَةٍ مِنْ فَتْحَاتِ الْعَصُورِ؛ فَتُركِ صَلِبُ القَصَةِ لِيَكُون
حَدِيْهِ تَعْلِيماً وَحَاشِيَةً.
وَقَدْ قَرَأْتِ الْقَصَةَ مِنْ الْرَافِعِي كَأَمْيَلَهَا كَأَنْ يَكُنْ هَا هُوَ مَا نَصْبَهُ:
فَكَانَ الْرَافِعِي يَقُفُّ عَنْ كُبْرِ مِنْ عْبَارَاتِهِ مَوْقُوفًا بِالْإِجْبَارِ وَالْدَهْشَةِ، إِذْ كَانَ مَؤْلِفُهَا يَكْتَبُ مَا فِيهِ
نَفْسُهُ كَأَمْيَلُهُ فِي نَفْسِهِ، فَكَانَ فِيهَا وَحِي عَاطِفَةً وَبُدُضُّ قَلْبِهِ وَإِحْسَاَسٌ رَوْحَهُ
فَيَجَاءُ بِأَقْدَمْ مَا فَنَفْسٍ فَأُبْلِغَ مَايْقِبِ التَّعْبِيرِ غَيْرَ قَانِسٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ
يَنْقُلُ مَايْقِبَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ أَنَّهُ قَصَدَ إِلَيْهِ، إِذِ لمْ يَكْنَ هُوَ بِأَهِلِ الْبَيْانِ فِي هَذِهِ
المَذِيَّةِ، وَلَكِنْهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَبِّ؛ وَكَانَ هَذَا هُوَ دِلْلُ الصَّدَقِ عَنْ الْرَافِعِي
فِىَا كَتَبَ صَاحِبُهُ وَكَانَ إِلَيْهِ مِنْ قَصَةِ صَاحِبِهِ.
ولما كتب المقالة الثالثة، دموع من رسائل الطائشة، خلا إلى نفسه أسبوعاً ليستجم، وبعث، إلى الرسالة بالجزء الرابع من: "كلمة وكلمة، وفيها حديث عن العقاد".)

وفي هذا الأسبوع كان الرافعى يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة، فأنشأ مقالة الرابع بعنوان "فليسفة الطائشة".

ثم أملى على مقالة "كفبر الدبابه" يعني بها الحكومة التركية لبعض ما ذهب إليه في شؤون الإسلام والعربية. وهي آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كلية ودمى.

وكانت مقالة "كفبر الدبابه" هي آخر ما أملى على من المقالات، وذلك في صيف سنة 1935. ثم تبدأ السفر إلى مصيره في سيدى بشر، وتهيأت للسفر إلى القاهرة لبعض شؤون العمل المدرسية. وانتقلت بعدها إلى القاهرة، فكان فيها إقامته، فلم أكن ألقاه أو لقاني إلا ساعات كل أسبوع: فراحة أزوره في طنطا، وأسبوعاً يزورني في القاهرة. على أن الرسائل فيها بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة 1937، قبل موته بضعة أشهر. ثم تجافينا لشأن ما، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين، وكان آخر مجلس لنا في قهوة بول نور، بالقاهرة، مع الأصدقاء: شاكر، وزكي مبارك، وكامل حبيب، والسيد زيد. ثم افترقا بعد منتصف الليل وفي نفسي منه أشياء...

وفي صبيحة الغد بدأت المعركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكي مبارك، حول وحى القلم...

(1) العدد 100 سنة 1935
ممضى شهرين بعد تلك الليلة، لا ألقاه ولا يلقائي، وهو يشكون إلى صاحبتي وأشكوكه؛ حتى جاءني نعيه... غفر الله لى! لكونا كانت هذه القطعة بيننا وقد دنا أجمل، للخفف عن وقع المصاب من بعد، أو لتحملني غير محول من أحد غير واجبي... على كفارة الذنب الذي أذن بهذه القطعة؛ فأبدل ما في الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة هذا التاريخ لعلي أقوم له بعد موتة بالحق الذي جبرت عن وقائه في حياته. يرحمه الله!

... لم يُملَل على الرافعى شيئًا بعد مقالة كفر الدبابة، ولكننا طلب إلى أن أنسخ له صورة من مقال كان نشره في المنشط قبل ذلك بسنوات صورته.

سر النهج في الإدب.

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقالته... كتب عن حافظ، لمناسبة ذكرى... ثم أصابته قرحة في كفه من عنه من العمل، فأخذ مقالة، سر النهج في الإدب، جعل عنوانها... الأدب والأدب، ثم جعلها مقالة الأسبوع التالي، وهي مقالة من مقالات الرافعى الفريدة، تهم الباحث الذي يريد أن يدرس الرافعى صاحب "تاريخ آداب العرب".

ثم توالت مقالات الرافعى يملأها على نفسه ويكتبها مخطوطة، على أن بما كنت ألقاه وما كان بيني وبينه من الرسائل إلى ماقبل موتة باشهر، لم يفتنى أن أعرف ضوئه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقزاء الرسالة؛ فسأل حرص...
سما هذا البحث - على أن أذكر ما أعرف من دوالغ بعض المقالات التي أنشأها وحده من بعد، غير معتبر ترتيبها في النشر، إذ لاعمال لي فيها أكتب عنها إلا الذاكرة.

من هذه المقالات: الجمال البائس، القلب المسكين، المشكلة، الجنون، أحاديث الباشا.

أما مقالات الجمال البائس، فقد أملاها عليه حب جديد وليلي جديدة.

ولكنه حب كما وصف الراقي:

وأنا على كل أحوالاً إنا أنا أنظر إلى الجمال كما أستناثي العطر يكون متضوعاً في الهواء: لا أنا أستطيع أن أمس و لا أحد يستطيع أن يقول أخذت منه، ثم لا تنفصل إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني، دون فطرة الشر والحيوانية، ومن أحسنت جمال المرأة أحسست فيه يعني أكبر من المرأة، أكبر منها، غير أنه هو منها.

وكله عاشق يثير العشق بين يديه: فكان هو وحبيبته تحت أعين الناس: ما تطلع إلا أن تراها وما تطلع إلا أن يراها، ولا شيء، غير ذلك؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها، وليس إلا هذا.

والذي هو أحب أن ليس في حبه شيء، نهائ: فلا جهر ولا وصل، ينسال، ولساعة ولكنه أبداً باقياً بكل حالم في نفسه، والسراخ التي تبكي الناس وتتلمذ في قلوبهم كالنار ليجعلها كبيرة في وهمهم ويظهرها ويبنوا منها كل شهوات الحب، تبكيه هو أيضاً وتعلم في قلبه، ولكنها تظل عنده صغار.
ولا يعرفها إلا صالح، وهذا هو تجوهه على جبار الحب،

حبٌ، هو سمٌّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السياوات ينثر في عوالمها الحفيلة نورًا الإنسانية في حقائقها العالية.

بدأ ذلك الحب في صيف سنة 1935، وكان الرازي يتصف في سيدٍ بشر؛
ثم كان ينتمي إلى الإسكندرية أحياناً ليلقي صديقه السياسي الأديب الرازي حافظ عامر، رحمه الله، وكان بينهما صلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة منذ كان الرازي حافظ محامياً في طنطا.

وكان صديقه يقضي إجازته في الإسكندرية، مشغولاً بكتاب يعم أن يصددهن في شأن من شئون الإسلام وكان الرازي يعاونه في إنشائه، 

وكانا يتوعدان على اللقاء فهم فيها الإسكندرية على شاطئ البحر، حيث تتيح لهما الفرصة، من هدوء المكان في النهار، وقلة إقبال الناس عليه، لما هما فيه من عمل.

فهذا الملهى كانت تعمل فترة الراقصة المشهورة، دبى. فبعض كل مساء، بمن يفد إليه من طلاب الله والموها، لينفر للرازي وصاحبه في النهار، يدعوان الرأي في شئون الأدب والدين والفلسفة، وتستأنس ليلة، ونهارهما.

وكثر تزود الرازي وصاحبه على هذا الملهى حتى ألبهم المكان، وألفا ما فيه.

---
(1) الجمال البائس ج1 ص 291 - 324 - حي الفلم طبعة أولى.
(2) رسالة الحج، أخرجها المرحوم حافظ عامر بك في سنة 1932. وكتب على غلافها، يقول دبلوماسي كبير، على نفسه، وكان وقفتين قنصلاً لمصر في بغداد أو في إيران، لا أذكر ك، وكان قبل ذلك قنصلا في جدة، ومن هناك بدأت تراوده فكرة إخراج رسلة الحج، وسنعود إلى حدثها بعد.
وألفهما فيمن ألف فتاة من راقصات الفرقة: هي الإيطالية الحسناء، بـ...
فما كان بينها وبين الراقصة إلا نظرات وجوداتها ثم كانت قصة حب...
وجلس الراقصة إليها يتحدثان ذات نهار، وكتشف له عن صدرها وكشف لها، فكان بينما حديث طويل، شهد المرحوم حافظ عامر من بدايته إلى
منتهها، ثم ترك الراقصة هواها وتركه صاحبته...
ودافق الراقصة مرة أخرى لوعة الحب وبراحة الهوى، وكانت محوبته
الأخيرة راقصةً من بنات الهوى تعمل في مسرح هزل من مسارح الصيف
المتنقلة بين شواطئ الإسكندرية ...
تلك هي صاحبة الجمال البائس،

***

وانتهت أشهر الصيف وعاد الراقصة إلى طنطا، وعادت الفرقة الراقصة إلى
القاهرة، وشّتُ ما بين الحبيبين!
ولقيت الراقصة بعدها، فهدت حديثه والكلمات ترقص على شفتيه وفي
عبقه بريق جميل: ثم رق صوته وتهدد وهو يقول: مسكنة! ليتني أستطيع
أن أبلغ ما في نفسها لأعلم ما تشكو من حظها وما تكرّر... ليس موضعها
هناك، ولكنه القدر!

ولقيته في القاهرة ذات مساء، وقد فرغ من مقالات "الجمال البائس"، فدعاني
أن أصحبه إلى المقهى الذي تعمل فيه لبىها من بعيد، وأرسل من يطلب له
تذكرت عنده شاب من أبناء عمومته يعمل في "دار الهلال"، وأبطأ عليه الرسول
فلم ينتظر: فنهض ونهضتُ معه واتخذ طريقة إلى "عماد الدين"...
(19 - حياة الراقص)
وقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسأل: أي اسمها؟ وأين صورتها؟ وأين هي؟.

واتل وفته وهو ينظر إلى صورتها في إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة، ما منهن إلا لها جمال وفتنة، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة: صورتها.

ثم تحول عن الباب مسرعا غلالا وهو يجمجم بكلام لا يبين. وقال لى وقد أسرعت إليه حتى حاضته: أي لي إن ندخل هذا المكان؟ أتراك من المروة؟ ودلت لا رأيتها؟ ولكن...

واتنستا إلى قهوة، پل نور، جلس وجلست ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجال: فما هي إلا مظلمة ثم مرت بنا منحدرة من شارع قواد إلى شارع سليمان باشا؛ فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت في مردم الناس، ثم عاد إلى نجواء وشكواه...

وجلس مرة بتحدث إلى الأديب حسن مظهر مقرر، اللطائف، عن ذات الجال البالغة، فأذهى إليه صورتها; فظللت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه.

ولقد كان يحسن القول بعلها وفهمها، حتى ليحسها من قراء الرسالة، فن أجلها كتب مقالات الجال البالغة لمعرف مو주دها من نفسه!

وكان لا ينفك يسأل: أتراك علمت...؟ أتراك علمت...؟، وما أحسه لت صاحبا من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجبال البالغة... جلس ست من قريب إلى الأستاذ توفيق الحكم تحدث عن الراقي
ونذكر من خبره فقص على قال:
كان الرافعى يجلس على هذا الكرسي من هذه الغرفة، وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة، ومضى الحديث بين وبيته حتى جاء ذكر صاحب الجمال البائس فأخذ الرافعى يصفها في وصفا لا أحد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته، وطاعته القول على تصويرها كما هي في نفسه، فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفون الحسن، وسحر الأنوثة لم يجتمع مثله لأمرأة، وتمت صورتها لعيني كما أراد أن يصف فلما بلغ آخر الحديث عنها، قدم إلى صورتها في ورقة لداري بعيني مصدق ما سمعته.
قال الأستاذ توفيق الحكيم: «ونظرت إلى الصورة التي صورها في حديث الرافعى إلى الصورة التي في ورقة، فكأنما استيقظت من حلم جميل!»...
يرحمه الله، لقد كان شاعرا...!
كذلك كان سلطانها في نفسه وأثرها في خياله!

وكانو نشأة هذه الفتاة في طنطا لأيول عهدها بالرقص، وكانوا تعمل مع فرقة قروية أقامت «خيمتها» في طنطا بضع سنين، ولم يكن الرافعى يعلم ذلك من خبرها يوم انضمامها في الإسكندرية في صيف سنة 1350 فما عرف ذلك إلا من حين رأيتها في فرقة «بيا» ونظرت صورتها، فلما عرف من ماضيها في طنطا معروف، أغمض عينيه وراح في ذكر عيب... أثراء قد لقيها من قبل في طنطا ولم يكن يذكر، أم كان ينظف شعره لم يظهر به ولم يسمعه أحد؟ والعجب أن الرافعى وهو في غرفة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبته...
فلانة، ولم يفتر جيه لها، بل أحسه كان أكثر ذكرًا لها وحنينا إليها مما كان، وكأنما كان قلبه في غفوة فآيظه الحب الجديد ورده إلى ما كان من ماضيه.

لقد كان قلب الرافعي عجبًا في قلوب العشاق، ليب لي من يستطيع أن يكشف عن أعمه؟

وبسائل وحي هذا الحب الجديد وما أذكره من ماضيه، كانت قصة القلب المسكي، التي نشرها في الرسالة نجومها من بعد؛ ثم ضمتها إلى أصول الجزء الثالث من وحي الفلم الذي طبع بعد وفاته.

أما موضوع المشكالة (1) فقد استملاه الرافعي من رسائل قزائه إليه.

صاحب هذه المشكالة هو صديقنا الأستاذ كامل. ح. وهي كانت أول صلته بالرافعي؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إلى مشكالة أثينين: هو وهي. فصار من بعد مشكتهما ومشكالة الرافعي معهما إذ لم يجد لها حلاً. ولقد شغلته هذه المشكالة زمنًا غير قصير، ثم اتصل بموضوعها عن كثب حين اتصلت أسبابه بصاحبها وصاحبته. وقد كتب الرافعي ما كتب في هذا الموضوع، ثم مضى وخلط دنياه وما تزال هذه المشكالة قائمة تنشد من يكل عقدها...

كان ذلك في الخريف من سنة 1935 حين جمعتني ظروف العمل بصديق الاستاذ كامل، فلم يمض على تعارفنا أيام حتى استودعني كل السر...

فقد أنه وهو غلام، فلم يلبث غير قليل حكي حلت غيرها محلها في بيت أبيه. وكان أكبر ثلاثين إخوة، فاقضاه حق أخرى عليه أن يستشعر معاني الرجولة...

(1) وحي الفلم ج 1 ص 358 - 391 طبعة أولى.
وما زال في باكر الشباب. وأرى أبوه أن عليه شيئًا هذا الرجل الصغير، فسمى عليه بنت خاله قبل أن يدركت؛ ورأيت تقاليد الرشف الذي تنشأه أن عليها دورًا في هذه القصة، هجمت الفتاة عن خطيتها ولما تبلى النعمة وأغلقت دونهما الباب... ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا يراها، وفرغ من حسابها به ووبين نفسه، ثم نسي ما كان وما ينبغي أن يكون، وكان يغضبها بعض الطفل والطقفة، فلما أعادت يبنتهما السنن انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئًا من خبرها...

واتنه الفقى إلى مدربته العالية، وتبع عن آعين الحراس والرقية في القرية...

فقضى على وجه في القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب... وكان له فكر وفسلفة: وفيه خلق ودين ومروعة، وبين جنبيه قلب يحس ويشعر ويتأمل: وعلى أنه كان يهيئ نفسه ليكون من أساتذة العلوم، فإنه كان ولعا بالادب مشغولا ببطلاته، فكان له من ذلك روح وعاطفة: وكان في دمه ثورة وغليان، وكان في عقته مثال يزيد أن يحققه، وكان في رأسه شعر يحتاج إلى بيان: وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوته من وثبات الشباب في قصة حب: ثم لم يلبث أن استنك في الملحمة...

واحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته، فسا كان له من ذيئه إلا الساعة التي يلتقيان فيها، وما كان لها...

وأتبع أمره على أن يتزوجها لينعم بالحب ويهفظها المثل الذي يشتدانه؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسننة عليه بضع عشرة سنة... فما يذكرها ولا يفكر فيها...
وكان نائما يعلم حين تراى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه؛ فاً وجد أبوه وسيلة لإيذاه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خله وفأء بعد مضى في ذمة التاريخ...! غضب الفقيه واجتح وثارت كبرى وأورجولته، وأبي أن ينزل على رأى أبيه في شأن هو من خاصة شتنه، ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبت على إرادته، وسائمه في عماية إلى دار خله ليزف على عروسة ثم يصحبه في السيارة من ليلته مرغما إلى بيتته في القاهرة...! وابتدأت المشكلة ...

هذه الفتاة هي بنت خله، وهي زوجه أمام الله ووالاس، ولكنه لا يحبها ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها؛ وإن فناة أخرى تنظره؛ وإن عليه لما واجبا تتحمه عليه رجولته ...

وأما أطلق أن يمنح زوجه نظره أو يبدؤها وكله على طول الطريق حتى بلغ السيارة بما الدار في القاهرة...! كانت إلى جانبها ولكنه هناك، عند صاحبته إلى فتته واشتولت عليه؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حريبا أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليه فيعود إلى الحقيقة التي كتب عليه القدر أن يعيش فيها، ولكنه لم يفعل، وما رأى زوجته حينئذ إلا جنحاً الذي يحرمه أن يستمع بالحرية الذي وهما له الله يوم وهم له الحياة، وتأثرت في نفسه البغيض من يومئذ لهذه المسكنة ...

وعاشت في بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف: لا يقاسها الفراش، ولا يؤذيا كلها على السائدة، ولا يؤذنها من وحشتها بكلمة...! فتراها ولا يراها إلا في الصباح حين يخرج إلى عمله، وفي النهار، حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل؛ وما كان
بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التي توج في صدره، والخرسنة التي تنساب
دوما من عينها، وإلا هذه الخادم التي تقوم لسديها بشنوه وتقوم لها... ولم يفتر صاحبها عن لقاء صاحبه، والاختلاف إلى ملقاها.
على أن ذلك لم يزده إلا وولع بحبته وبربّها بزوجته... ومضت الأيام
بعدد يفرغ على ناحية أخرى، حتى جاء اليوم الذي وجد صاحبته فيه
أنه غير قادر على احتلال هذه الحياتا أكثر مما احتمل... فضي يدر أمرا
للخلاص من هذه المشكلة، ولكن المشكلة زادت تعقيدا على الأيام ولم يعد
وسيلة إلى الحل...
كان كل طريق يفكره في الخلاص محفوظاً بأدِّه، فلا هو يرضى أن يطلق
زوجته، ولا هو يطبق أن يجر حبه، وليس في استطاعته أن يجمع على نفسه
همينين... وكان تفكيره في ذلك هما ثالثاً يضنيه وينبّه عضراً ويعرق عظامه!
وكتب إلى الرافعي ينتبه في مشكلته...
كنت مع كامل حين كتب قصة إلى الرافيق، وفي مساء اليوم التالي كنت في
مجلس الرافيق بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفاضّ عنها بعد...
وقرأ الرافيق الرسالة ثم دفعها إلى وهو يقول:
• ماذا ترى حل هذه المشكلة؟
قلت: لقد جهدت جهدي قبل اليوم في أفلحت!
قال: أو تعرف صاحب المشكلة إذن...؟
قلت: نعم وأنا كتب إليك هذه الرسالة إلا برأي
وأطرق الرافيق هيئة يفكر وفه إلى الكركة (الشعب) كما هي عادة حين
يستغرق الفكر، ثم رفع رأسه إلى قالا: تعرف؟ إننا صاحب لمنشور


صاحبته إلى درجة الحق والفسف، وما تنحل هذه المشكلة إلى أن يكون له مع نفسه إرادة صارمة ويوكون له سلطان على هواه، وهباهات أن يكون له! فما هنا إلا وسيلة واحدة ترده إلى رشاده فتنحل المشكلة...؟
قلت: فما هذه الوسيلة؟
قال: أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان فتفرق بينهما...
أتراك تستطيع؟»
فضحك وقلت: ثم ماذا؟
قال: فإذا بدأ له من سيئاتها ما ينكر، وإذا بدأ لها... انتهى ما بينهما إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادماً؛ وإن مرور الأيام لخلق أني يولف بينهما من بعد،
قلت: فهكذا، ولكن ماذا تران أي قول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها ما تريد؟
وهي إن عرف أن أقول له فن أين لي أن أستطيع لقاه فأتبت إليه؟
قال: اسمع: أتراها تقرأ،
قلت: إنني لاعرف وما حدثتي عنها أنها قارئة أديبة، وأنها من قراء الرسالة، وقد كان فيها أهدي صاحبها إليها كتابُ أوراق اللورد، وأحسها تنتظر ما يكتبه في هذه المشكلة؛ فقد حدثتها صاحبها أنه كتب إليك...
قال: حسن! فسأ أجري أن أكون شيطاناً بينهما، بل ملكاً يحاول أن يرث الزوج الأبو إلى زوجته بوسيلة شيطانية...!


وكتب الراوي المقالة الأولى من مقالات المشكلة، وكان مدار القول فيها أن ينتقص صاحب المشكلة ويعجب وينسب إليه ما ليس فيه ما ينزل بقدره عند
صاحبته، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وأن فيها كما يعبده وثبته، ووضعها بإزاء صاحبها موضعاً لا ترضاه. فلما قررنا أراد أن جعل حديثه إلى القراء، سأله أن يشاركه في الرأي ويجموا حكيمه على الفقه، وفاتحة بعدما جهد في تصويرهما الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في حكمة الرأي العام، وتركالباب مفتوحاً لتزوي صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يرى من القراء.

ولقيت صاحب المشكلة من الفقد، فسألته: هل رأيت الراقي؟

قال: نعم!

قلت: ورسالتي إليه؟

قال: بلغته!

وقال: وماذا يرى؟

قلت: ستقرأ رأيه في الرسالة بعد أيام.

وأخذت عنه ما كان بين وبين الراقي من حديث وما دبر من خطة.

ونشرت المقالة الأولى من "المشكلة"، وقضت يوم، وجاء صاحب غضباً يقول: كيف صنع الراقي هذا؟ لقد خلقت من القول ما لم أفعل. وأزالت قلت عنها، كما يعلم: لقد خلطت نفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت... لقد ساءها ما خلقت الراقي من الكلام، وقد تركتها الليلة غاضبة لا سبيل إلى رضاه.

... وتحقق للراقي بعض ما أراد، وانتقلت عليه رسائل القراء، وروى رأيهم في هذه المشكلة، وجاءها فجاء من الرسائل، رسالةً من صاحبة المشكلة نفسها...

وفعل برسالة صاحبة المشكالة ما فعل برسالة صاحبه، ولكن، تلقى تلقيًا حسنًا، ومضى يتحدث عنها حديثًا ليس فيه من رأيها ولا ما تقصد إليه.
لكنه إيجاه، إيجاه إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى، وأن ما بها ليس حبا وإن زعمت لنفسها هذا الرأي؛ ولكنها شيء. يشبه أن يكون صورة عقلية لحيال بعيد قطعه من صور الحب وما هو به. ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكله بالإيجاه والإغراء والخلية. . .

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقا على آراء القراء وسخرية ونصيحة.

وفرغ الراحفي من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشي الصدى حتى عاد فلان وعادت فلانة، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها. ومضت سنوات وفي الأزون ثلاثة قلوب تحتقر . وعلى مقرية من النار صبي عبر يد الناء أباه، وأبوه في عفنة الهوى والشباب. أرى إلى هذه المشكلة، وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد قد أوضكت أن تبلغ نهايتها، فيكون حلها على يدي هذا الصغير وقد عجر الكبار عن خلها بعد محاولة سنوات؟ أم هو قلب رائع

سينضم إلى القلوب المحترقة في أزون الشهوات...!

ومعذرة إلى صديق كامل...!

أما الحديث ذ المجون، فأعرف من سببه ماذكر الراحفي في أول مقالته(1)؛

والمجون في هذه المقالات هو شخص حقق كا وصف واصفه ؛ رأيته لأول مرة في مجلس الراحفي ذات مساء في قهوة د. لمنوس، فرأيت شابا أمرد يلبس جلبابا رخيصا وعلى رأسه عامة، وقد جلس بين يدي الراحفي مجلس من لا يجتمع؛ فأذكرت موضعه؛ وأشرت إلى الراحفي أسأله عنه، فقال:

سلب أنت من يكون؟

(1) وحياة الرأفي 401 - 11 طبعة أولى.
 فالتفت الفتى منفصصًا بسأل: أوبليس يعرف ؟ أو ينكر موضوع نابغة القرن العشرين ...؟

ثم كان مجلس طويل وصفه الرافعي فيه وصف من مجالس الجنون.

وهو قبً كان طالباً في مدرسة المعلمين الأولية بطنطا، ثم أصابه ما أصابه فانقطع عن المدرسة ولكن لم يقطع صلة بالآدب، وصدقنا الاستاذ حسين خالق يعرف هذا التابع، فإنه كان بين تلاميذه في مدرسة المعلمين.

أما الجنون الآخر الذي وصف الرافعي من حاله ما وصف بعد، فهو طالب في إحدى كليات الأزهر، ولم ألقه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافعي عنه ما كتب:

أسمى يومنا في إدارة الرسالة، حين دخل علينا نقي أزهرى في جلبان حائل اللون، فما وقعته: ألا تستوقف؟

فخيرى هذا السؤال ولم أدر يم أجيبه، فقال: إن يبيني نسما وقراءة، وإن بيني وبين الرافعي ... إنني أنا الذي كتب عنه الرافعي مقالات الجنون ...}

قال ذلك وفي وجهه أثارت الجد، وبدا لي كأنه يفاخر بما يقول ذلك:

ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ... قال: نعم، فهل عرفت الآن من يكون الآخر ...؟

وقد كانت صلة الرافعي بهذه الفتى بإبيا من العبث والمجانا، على أنهما قد استطعا أن يحملوا على العناية بأمرها والتفكير في كتابة شيء عن الجنون ...

وقد احتفل بهذه المقالات احتفالاً كبيراً. فبعث إلى القاهرة لشراء لهنسخة من كتاب "عقلاء الجنانين"، ثم بعث بكتاب خاص إلى الدكتور محمد فؤاد مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة، وكان زميلاً في المدرسة الابتدائية ...

يرجى أن يأخذن لي في زيارة مستشفى الجنانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم،
لعله يجد فيها مادة تعينه على تسامح موضوعه.
ولم يقتضه مع ذلك أن يلمس علم مالم يعلم عن كثير من الأطباء، فكان له حديث طويل عن المجازين مع الدكتور محجوب ثابت، والدكتور محمد الرافعي، والدكتور عبد السيد الحاجي طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه.
وقد أفاد من حديثهم بعض النوادر الطريفة التي حكاها في مقالاته ونسبها إلى نابغة القرن العشرين وزميله؛ على أن أكثر ما في هذه المقالات هو صحيح في جملته وفي نسبته إلا بضع نوادر!

أما أحاديث البشام، فأكثرها خيال وأغلبها حقيقة، وقد اختار الرافعي أن يجعل بعض حديثه في الشئون الاجتماعية على هذا النمط حتى لا يميل قراءه.
وقد تحقّق أخاه الاستاذ محمد الرافعي المجازى بديعور، كان سر البشام الذي سمّاه ونسب إليه، لأنه كان يستحوذ كثيراً من الحقائق فيها يكتب، وقد كان الاستاذ محمد الرافعي في صدر أيامه زعيم أمة الشباب في طرطوس، يقودهم ويرى لهم الرأى في مسائل الوطنية وتديونيات السياسة في إبان الثورة المصرية سنة 1919 وكان يومد طالباً في مدرسة الحقوق.
أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقية كان منها وكان مساروًا الرافعي، ولكنها شخصية من تأليفه وهو اصطناعه ليقول بلسانها ما قال.
على أن أكثر ما روى الرافعي من الروايات على لسان (م) باشا هو حقائق، ولكنها لا تنتمي جميعًا إلى شخص واحد.
نقد: اجتماعية

لم يكن بين الرافعي وقرآته صلة ما قبل أن بدأ عمله في الرسالة، ولم يكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد، إلا طائفة تربطه بهم صلات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه؛ فلا اتصلت أسبابه بالرسالة، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متابعة، حتى بلغ ما يصل إليه منها في اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد. وأستطيع أن أقول غير مبالغ إن الرافعي قد عرف من هذه الرسائل عالما لم يكن له به عهد، واتنقل بها نملة اجتماعية كان لها أثر بلغ في حياته وتفكيره وأدبها. وإذا كان مؤثر الأدب قد اصطلحا على وجوه دراسة البيت التي يعيش فيها الأدب والتطورات الاجتماعية التي أثرت فيه، فإن ما لا شك فيه أن الحقيقة التي كان الرافعي يكتب فيها الرسالة كانت تطورا جديدا في حياة الاجتماع نقلة إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقع الفكر وتجلد الحياة. وقد عاش الرافعي حياتة بعيدا عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته. فكان منهم كائى يتحكم في المذياع يسمعون عنه ولا يسمعون منهم، وليس له ما يستمد منه الرحي والإحساس إلا ما يجعله نفسه ويتخلص في وجدانه، غير متأثر في عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه.

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس، وكان له من عليه سبب يساعد بينه وبينهم، فم ذلك كانت يسره ورضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين يستمع إليهم ويغني من تجاربهم، ويحضر من علم الحياة وشأنه...
الناس مالم يكونعلم...

بنتدأ يكتب للرسالة فعرفته طائفة لم تكن تعرفه، وتذوق أدب من لم يكن يسهمه؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها حديثة على قارئها؛ ووجدوا فيها شيئاً يعبر عن شيء في نفوسهم؛ فأخذت رسائل القراء تناول عليه، فانتفعت له الباب إلى الدنيا واسعة، عرف فيها ما لم يكن يعرف، ورأى مالم يكن يرى، واطلع على خفيقات من شنو الناس كان له منها علم جديد... فكان من ذلك كم عاش حياته بين أربعة جدران؛ لا يسمع إلا صوته؛ ولا يرى إلا نفسه؛ ثم انتفعت له الباب خرج إلى زحمة الناس، فانقل من جو إلى جو، ومن حياة إلى حياة...

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الرافعي وأدبه، وإن لم يفارق بيته و منزله وأهله.

والآن وقد وصلت إلى بلاء هذا المعنى كما شاهده وعاينت أثره، فإن أحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الرافعي من قارئه، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الرافعي بها، وأي المعاني ألمته وبذقت زناد فكره؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بين وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلفها لم تتم لي بها دراسة التاريخ، فحسب ما أقرأن الرافعي منها في أيام عزبه وما أطلعت عليه بنفس من بعد...

... 

نستطيع أن نرده الرسائل التي كانت ترد على الرافعي إلى أنواع ثلاثة:

1 - رسائل الإعجاب والتأييد.
2 - رسائل النقد واللاحظة.
3- رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى.

أما النوعان الأولان فليس بعينا منهما شيء كبير، وحسب الإشارة إليها، على أنه ليس يفوتي هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد من رسائل الإعجاب كان عن مقالاته في الزواج: وكان أكثر هذه الرسائل عن الشبان والفتيات، وغلبها كانت تخلو رسالتهم من هؤلاء. وأول ذلك، من شكري صاحبها أو صاحبها وتفصيل حاله، وأطرف هذه الرسائل هي رسالة من آسية أديبة كتبته إلى الرافعي تسأل أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها: وقد صمته في رسالتها.

يعيب عليه أن يعطي ابنه ورد الخطاب عن بابه حرصا على التقاليد...

ثم رسالة من (عذب شرعي) يحب فيها إلى الرافعي بعض مام عليه من أسباب الطلاق في الأسر المصرية، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالبالية ليست من الدين ولا من المدينة، وفي هذه (الإحصائية) الطريقة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يكتبها على أساليب في يكسبها معنى القصة.

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثاني، رسالة جاءته بعقب نشره مقالة "ال الأجنبية"، عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض علاقته لم يعد فيها إلا صفحات موزعة من عدد (الرسالة) الذي نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر:

سيدى الاستاذ:

إذا كان لا بد من رد في هذا هو خير رد، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك، هي تلك الكلمة التي ختمت بها هذا الكلام المردد إليك:

مصري.

...
ومن النوع الثالث من هذه الرسائل كان استمداد الرافعى ووجهه ودراياه الجديدة، وإلى القراء نصائح مختلفة من هذه الرسائل:

1- هذه رسالة قفي في العشرين، يكتب إلى الرافعى من الإسكندرية يقول:

"أستاذى الكبير:
ليس لي الآن إلا ربى وأنت يا أستاذى، وإن من حقك على أن أسألك
حق عليك، وقد هداني الله إليه.

قرأت وتدارست ما كتبتيه عن الانتصار، فإذا تقول في أمر علم عن
الجنة تحت أقدامها أنها سقت وزلت. فهو يتحين الفرصة ليقتلها. إذا أبكي
يا أستاذى إذا أعيد هذا القول؛ أبكي دما. لي أخوة وأنا أكرهم، ولا أخف
إلا أن لأن أختا. وأي غفر الله له - ليس له ما يكون للرجل من معاني الرجولة
ليضمن ألا يكون في يدي شيء ما قد كان...

الشك يسواني منذ أكثر من عامين؛ واليوم فائر النور، إذ سمعت أنها
حتى، ووقع في يدي ما لم أكن يقين بتقديم إلهامها؛ ولقد همت أن أفعل
ما لا يفعل؛ وأنا أخشى ألا يتداركون حكاك.

ماذا تقول يا أستاذى؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من
نفسى، أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضج من يدى. أنا كأنه لا يقيقى
شبه عاقل إلا أنت، فماذا تقول يا أستاذى وبماذا تحكم ؟ كتبها الله لك
فتداركون برأيك...

وكل من شكر من يسأل الله ويسعى إلى أن يكون بنفسه وحياه من حسنات
تريبتك، وأن يكون في اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم...
ومعذرة لي من لدك إن أعفتك الآن أسمي، في 14-5 1930.."
هذه معلقة في أحدى مدارس الحكومة، حامت حولها ريبة، فكبت إلى الرافعي سالماً. كأن يعينها بذاكها حتي تعود إلى عملها الذي تعود منه أبيها، فشفقت عليها الرافعي، وسماه عليه. حيث تكبت إليه كل أسبوع رسالة تتبه خواطرها وتصرف له من أحوالها وما تعمل، وكدر، وترى رسالتها إلى الرافعي حتي ينزل الحجاب بينهما، فنصب له بما لا تصرف فتاة وينبأ أمرها في النهاية أن تكبت إلى الرافعي بأنها عاشقة، وأن معشوقة الصغير، النابض في إحدى المدارس الصناعية بالقاهرة. لا يعلمو ما تكن له حيّلن تلقاه، وتماشهه، وتصرف به خواتم بريقها! ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها، وتأكلها النار في صمته! وتقبل رسالتها إلى الرافعي:

«فبدرني يا سيدتي في أمرى، قلبي يحس أنه ينبجي، لقد قالتها لي عيناه، وعليها لم يتحدث إلى، ولست أجد في نفسى القدرة على التصريح له، وتنوال رسالتي إلى الرافعي، تصرف له ما تلاقي من الوجود، يبجيها الذي تكبره سنوات، وقرأ الرافعي رسالتي فيما، وتناول قلبه الأزرق فثور فيها علامات تشير بها إلى مواضع، وقفر تعلمه معان جديدة، وفكروا جدداً، ويشتكي الحب في العملية العاشقة حتى تنظم الشعر، فتبعث إلى الرافعي بقصائدها ليبري رأيها فيها...

بين يديّ الساعة آخر رسالة من رسالتها إلى الرافعي، بعثت بها إليه قبل منعنا بقليل. لبني شعرى كيف انتهت قصة هذا الحب؟

3 - وهذه رسالة من حلب يدهش كأنها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعي مطرشًا حلقت اللحية أنيق النبض، فكتب إليه:

(30 - حياة الرافعي)
لقد رأيت رسمك ياً مولاي فأتاملته ... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظّ؛ فهل لك ياً مولاي في مجاراة المدنية وساءشة الحضارة رأى دعاعك إلى هذا المظهر الأنيق ...؟

والتى رسالة من (دمشق) وقع كاتبها في هوى منينة مشهورة، يحسن بها الظنّ إحساناً يمثلها لبيبته ملكًا أثى! لا يترك مجسًا من مجالس غناها، ولا يفكر في خلوته إلا فيها ... ثم يأتيه النبيّ أنها قد ستمتّ على رجل من ذوي اليسار والنعمة، وأنها مشكّكة أن تصير له زوجة، فيطير به هذا النبي ويؤله أياً إيلام، فيكتب إلى الراقي يقول:

" وإن خطيبها على عنده رجل فاسد الخلق: متقلب القلب، دنس الذيل، وأنا على يقين أنها ستشقق به وقد خفيت عنها حقيقته. وأنا أحبها وأشقق عليها وأتمنى لها السعادة...."

هل يجب عليّ أن أقف وقفة المدّرّر إيقافًا بها العدول عن هذا الزواج الذي لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة، أو ألزم الصمت وأدع الأمور تجري في مجاريها وأقطع علاقاتها فأدرّ لها صورها ورسالتها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأذن ذلك الحب لها في ركن من أركان قلبي؟

وذلك طالب في الجامعة، له دين وخلق ومروّة، بلغ مبلغ الرجال.

وفارٍ دم الشباب في عروقه: فتسلطت عليه غرازه، تغالبها شهوته فلا يكاد يغلبها؛ ولا يوجد له سلطانًا على نفسه أو وسيلة لступил شهوته إلا أن يحبس نفسه آباماً في غرفته الموحّشة؛ ومع ذلك لاتزال المرأة، تخاليله في خلوته وفي جماعته، فليس له فكر إلا في المرأة، وإنه يتخلى الله، وماه قدرة على الزواج، ولقد
حسب الصومف فما أجد عليه، وقد أشك أن يفين نفسه بين شهوات
تنجذبه ودين يأب عليه، فماذا يفعل؟

6 - وهذه فتاة متعلقة، تعيش بين أبيها وزوج أبيها في هم لا يطلق، كل
سلوتة في حياتها أن تقرأ، وهي لا تحسن عملها ولا تجد لزنا في عمل غير
القراءة، ولكنها تشك مؤمعها بين أبيها وزوجه، إنها ينكران عليها كل شيء
ما تراه هي من زينتها بين الفتيات، فعملها حذلقة، وآراؤها فلسفية فارغة،
ومطالعتها عبث وله وسوء خلق، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرى، وآفة!
وتضحي السنون وهي في هذا العذاب من دار أبيها، فلا هي تستطيع أن تحمل
أباه وزوجه على رأيها في الحياة ولا هي تستطيع أن تنزل إليها، والمقيد
الذي تنتظر الخلاص على يده من هذا العذاب لم يطرق بها بعد،
ولو أنه طرق بها لاشهدت عنه معرضة في وجل، لاتبى الظن بكل
الرجال، فماذا يفعل؟

7 - وهذا قن يمثل يحسن الظن بالإيام ولكن الأيام تخلله موعده:
أمنة فتاة من أهلها وأحبته وتواعده على الزواج، ولكن أهلها زوجوها من
غيره، والثم الوظيفة التي يؤمن أن يصل إليها بعد تخذه، فنها، ولكنها
وجدها علواق عنقه وكلمة على فه، وطلب الزلال إلى الله بالاحسان إلى الناس
فولوه إحسانًا وغدراً بوفاء، وكما غرس زهرة هبته عليها أواصير
الحياة فاقتلتها وألقتها في مواقع النزال وبرم الحياة وضاقت به الدنيا وما يزال
في باكر الشباب... فماذا يصنع؟

8 - وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين، يخاف الله
ويخشى عذابه: أحب فتاة من جيرته جبا وغذدا، وأحبته، وبرح بها الحب
حتى مايطيق أن يمضى يوم دون أن يلتقي، ولقيته ذات مسا في خلوة بعيدين
عن أعين الرقباء، وما أكثر ما التقي في خلوة، ولكن الشيطان صحبه هذه
المرة إلى خلوتهما... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إراده أو يكون له... 
ولما فاتت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يكي! وكأن في نيته
أن يترزوهجا حين ينتمى من دراسته بعد سنتين أو ثلاث، وكان صادقاً في نيته، 
وأبنتة الفتاة مؤمنة بصدقه، ولكنها لم تطق الانتظار حتى تمضي السنوات
الثلاث، ولم تطق أن تراه بعد، وجاءه النبا بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة...
وأعر ف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعاً بسبب موتها...
ومنذ ذلك اليوم تلاحظه صورته في نومه وفي يقظته، ومضت سانتان منذ
وقعت الفاجعة ولكنها مايزال يذكرها كأنها كانت بالآمس؛ كتب إلى الرافعه 
يقول في رسالته:
... إنني أنا الذي قتلتها؛ إن دمها على رأسي; لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد
غيري وهذا أشعى يوظفي، ولقد أحتملت بصر وثبات كل مانالي في هاتين السنتين
من تأنيب الضمير وعذاب القلب؛ ولكن اليوم أحسر بأن صبر قد انتحر.
ولم يبق لي قوة على الإحتفال أكثر ما احتملك... فلذا أفعل...؟. .
ألوان وصور، ملائكة وشياطين، نفوس تتغذب، قلوب تتحترق، أنت 
وابساماتـ، دنيا لم يكن للرافعه بها عهد، ولم تكن تخطر له على بالي.


وتتمة لون آخر من الرسائل:
... الخلاى الشاعر الاستاذ إبراهيم... شاب له خلق ودين؛ وفيه اعتراف
بالعربية والإسلام؛ فهو من ذلك يحب الرافعه وينتصر له؛ ويتبع بشوق وشفاف
كل ما ينشر من كتب ومقالات: ولكنه مع ذلك يحب العقد ويستغرق له، ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب جديرا بأن يتأثر خطاه ويسيئ على نهجه، وليس جيبيا، فإنا أظن أن يجمع الروأ لأدب من الأدباء على حبة الرافعى والعقاد في وقت معا، كما أنه ليس جيبيا أن يتحلى الرافعى والعقاد أو يتفننوا مادام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب، ولن يمنع ما بينهما من الخلاف، أو من الوفاق، أن يكون لكل منهما قراءة المعجبون به، أو يكون لهما قراء مشتركون يعجبون بما يتشبه كل منهما في فنون الأدب، وإنما العجب أن يبلغ إجابة القارئ إلى الكاتب الذي يؤثره درجة التعبس، فلا يعتبر سواه ولا يعترف له أنه يكون له مكان بين أهل الأدب.

على أن شأن صاحبنا المجاهد الشاعر الاستاذ إبراهيم الرافعى والعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدعابة... إنه يحب الرافعى ويؤثره... ويجب به إجابة يبلغ درجة التعبس، وإنما يحب العقاد كذلك، ويجب به، ويعجب له... لكل منهما في نفسه مكان لا ينبع إلا له، ولا يزاحمه في خصمه، ولكنه يحبهما معا، ويعجب لهما معا.

رآين بنو بنان، وشخصيتان تناهرا، وإسراف في التعبس لكل منهما على صاحبه، فأين يجد نفسه بين صاحبه اللذين يؤثر كلا منهما بالحب والإجابة والاستاذية؟ صورة طريقة وقعت عليها فيها وقعت بين رسائل الرافعى!

وهذه رسالة منه إلى الرافعى يقول فيها: (1)

(1) ليست الرسائل تحت يد في اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجتهما في نفسنا كما قرأنا من قريباً.
سيدي، إنني أحبك، وأحبك بك، وأنصحك لك، ولكن موقفك من العقد ياسدي، ليشعر كمنذا تتخاصبان؟ لقد كنت على حق، ولكن العقد على حق... هل تأذن لي أن أكون رسول السلام بينكما؟
ثم لتنصفي أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعي رسالته الثانية، معرفة. إنك لنتنجي على العقد تجنينا ظالماً، فسأ لك وجه من الحق في عدائه وحلمه عليه.
لقد عمت العربة فلم تنجي عبر العقد، وإنك أنت... إنك كبير في نفسك.
كبير جداً، وإلي لأقلب تاريخ العربة بين يدي فلا أجد غير الرافعي... أنتم...
والعقد... أي ترى يكون اللقاء؟
وعلى هذا المثال قرأت لأصحابنا المحامي الشاعر بضع رسائل بين مخالف الرافعي من أوراق: تملا النفس بحبا ودهشة. وأخر ما وصل إلى الرافعي من رسائله، رسالتان. كتب إحداهما في المساء، وكتب الثانية في صباح اليوم التالي، ولولا خط الكاتب، ونوع الورق، وخاتم البريد، مما حسبهما إلا رسالتين من شخصين.
لو أنهما اتفقا في الطريق لتنصرفا بالأكف...!
على أن الرافعي مع ذلك كان يرد على رسائله! وددت لولي نشر صاحبنا بعض رسائل الرافعي إليها!

والآنسة الأدية ف. ز، معلمة في إحدى مدارس الحكومة، كان أبوها
زميلة للرافيعي في محكة طنطا، وكان بينهما صلة من الود، فلم تنس
ابنها صديق أبها، فكانت تستعين في بعض شؤونها، ومن ثم نشأت بينهما
مودة، فكانت تراسله ويراسلها، ومرت رسائلها إلى عالم جديد
في شنو وشئون.

صحبته إلى زيارتها مرة في ليلة من لالي الشتاء مع الصديقه كمال حبيب
وسعيد الرافعي، فقيناها مع بعض صديقاتها، وكانت جلسة طالت ساعات،
أعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه في قصة القلب المسكين.

.. . .

وقد أنشأ هذه الرسائل بين بعض قراائه وبينه صلاته عجيبة من الود،
فهو منهن أب وصديق ومعلم وم chíر، وجلس على درس الاعتراف، فترة غير
قصيرة من حيته تفتحتها فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل
إليها من رحل وطوفه، وكان له في كل دار أذن وعلى كل باب نقيب عند
ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الناقة العجيبة التي ظفر بها الرافعي من قراائه؟
ولكنني أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلا لهذه الناقة، فآعرف أنه بحر سر أحد
فسهاء أو عرف به، وما أطلع على رسائل قراائه أحداً غيري، إلا قليلًا من
الرسائل كان لابد من إطلاق نفر قليل من أمشيه عليها لغرض ما يستجبره
إليه بعض الحداث في موضوعها، بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخذها على
- وما كان بيني وبينه حجاب أو سر، فما عرف خبرها إلا بعد موته.
- ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إلى، فستظل أسرارهم في يد
مصنوعة عن عيون الفضولين، فإن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعو في
الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ.
وكان له مراسلون دائمون... يعودون الكتابة إليه جزءًا من نظام حياتهم، فلا تنقطع رسائلهم عنه، ولا يغنى عليه شيء من تطورات حياتهم؛ وقد أكسّهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الألوان به والإلهامات إليه كما يسمّون إلى صديق عرفه وجزيه وعايشوه طائفة من حياتهم؛ وإن القارئ ليلبّ في هذا النوع من الرسائل الدورية التي كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء مقدار ما أثر الراضفين في حياتهم منذ بدأت صلتهم به، فتطورت بهم الحياة تطورات جيدة، وأدى الراضفين إليه دينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر في أنفسهما وفي حياة الاجتماعية، وإلى لضرب مشا لواحدة من هؤلاء الأصدقاء.

هي فتاة من أسرة كريمة في دمشق، نشأت في بيت عز وغنى وجاه، وهي كبرى ثلاث، نشأت ناشئة يفخر بها الأتراك؛ فتم تقلبت بين الحياة، فإذا هن بعد الغنى والجهاز الناس من الناس، واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعمل أسرتها، وكان لها من حقائقها وترتيباتها معيينًا ساعدها دون أختها في ميدان الجهاد، وعلى أنها كانت أجمل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت الزوج الكريم، فقد سبقتها أختها إلى الرفاه والدين والبنات وظلت هي... وما كان ذلك لعيب فيها، ولكنه سلم لم يلب، أن اكتشف لعينها، لقد كانت هي وحدها - من دون أختها - التي تستطيع أن تتعمل أسرتها لأنها عاملة... وتأملت حين عرفت السر، ولكنها كتمت ألامها وظلمت صبرها، وهضت الأيام متتابعًا والأمانى تغلي موعدها، وتزودت فيها غزوة الأيام الكرومية؛ ولكنها قمعتها بإرادة وعنف، ومضت تصارع الطبيعة وتحذى القدر بعزيمة لا تلين؛ ولكنها لم تلب أن أحسنت بوادر الهزيمة بعد طول الكفاح، فشرعت قلها
وكتب رسالتها الأولى إلى الرافع بإيضاء الصبرة.
وقرأ الرافع رسالتها، ثم قص على خبرها ونتذت عيناه بالدموع وهو يقول:
يا لها من فتاة بائسة!
أجبته على رسالتها بتبديل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة...
وعادت تكتب وعاد يجيبها؛ وتوالت رسالتها ورسالتته وقد كم اسمها وعنوانها عن كل أحد - وكانت كتبته إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسالتها لمزقته وحدثه إن عناها أن يخفظ برسالتها - وكان الرافع لها كما أراد من أبي وصديقا ومرشدا ومثيرا، ولم يكتب عليها في بعض رسالتها أن يبتسط في الحديث إليها عن قصة القلب المسكون، لعلها تجد فيها كتبته إليها من شدوه عزاء وتسليمة ... وتعرّت المسكونة عن شيء بشيء، وتاب إليه الاطمئنان والاستقرار بالسرعة، وبدأ في رسالتها لون جديد لم يكن في رسالتها الأولى، وأخذت تكتب إليه عن كل شيء تحس به أو تراه حولها، وتستشيره فيها جلما وما هان من شدوها في سفرها، وفي إقامتها، وفي رياضتها، وفي عملها، وفي يقظتها، وفي أحلامها ... في كل شيء. كانت تكتب إليه، سائلة ومحبة، وخبرة ومثيرة؛ حتى في صلاحيتها مع صديقاتها وأصدقائها؛ وفي الخطاب الذي يطردون بابا يطلبون يدها...
ولم يكن يضيع عليها بشيء من الرأي أو المشورة...
وكان للصبرة جزاء ما صرت، وتحقت أمانها على أكمل ما تحقق أمامي فتاة، وجاءها الخوف الذي لم تكن أحلامها تتطاول إليه في منامها، وبرق في إصبعها خاتم الخطبة، فانهرت منه عيونها 11، لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها حتى لا أعرف بها وبه، فليس من حيث أن أكشف ما تريد هي أن...
يظل مستوراً لو قلت إن خطيبها وزيَّر من وزراء ذلك البلد لما بعَدت! واستمرت تكتب للرافعي والرافعي يجيبها! حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبعث بها إلى الرافعي ليشير عليها كيف تجيب، وحتى برنامجها قبل الزلف وبعده كان بمشورة الرافعي ورأيه ... وو JVW يـZ سـالـة مـنها مـورـخـة في 4-4-1377 و10-1-1377 (نعي الرافعي في 1937)

تقول فيها:

" الصديق الكريم ...

ما أحل دعوتكم يا صديقي وما كان أشدها تأثيراً على نفسى! لقد شعرت وأنا أقرؤها بسرور عميق، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبلة ... ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أ마다.

أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنيني للزواج فيها مضى، وتزمر وثورتي على هذه الحياة، لم تكن إلا لأنى رأيت وسيلة للحصول على الطفل؛ فقد تنهت في غريزة الأمومة بشكل هائل؛ تصور يا أستاذى صارت أكره الأطفال لأنا ليس لي بينهم ولد، وكنت إذ أرى أمًا تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير يحزن بقلبي ويكاد يقطعه؛ وكثيراً ما كنت أنشاغ وأشبى بوجهتي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر، لست خسودة والله؛ ولكن شدة إحساسى كانت تجعلني بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور؛ وأتمنى لو أن الحبار السعادة على الجميع ...

وأنا لله يعلم أن ليس لي أى غاية مادية من وراء هذا الزواج; وليس قصدى منه إلا الخالية والستر، لأنى ملت ومرض قلي من فضول الناس ..."
وكانت على نية زيارته مصر وتزور الرافع مع زوجها، اعترافا بحقي عليها، ولكن القدر لم يمهله حتى حين الموعد، وحان أجله ولم ينظر بعينه الفتاة التي تبنتها على بعد الدار وشغله أحزانها زمانا، فلذا أبنتها القدر وتحققت أحلامها، ناداه أجله قبل أن يشاركا في ابتسمات الفرح وتهانى المسيرة...
تقول له في رسالتها المؤرخة 15 - 1 - 1937:
"الصديق الكريم...
و... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة...!
على كل حال إذا وجدت ما يعيني فسأختبي، وراء فلان (1)، ولا أدى أنه يحسن الدفاع عنى. لا، لا، سألبس درعًا مثبته قبلي (شر) هذه المغناطيسية القوية، ولكن أخف يا أستاذ أن يكون الحديد أكثر أثراً، وأكون حينذاك أسات من حيث أردت الإحسان صحح أني معجبة، ولا أزال، وسأبني دامنا، ولكن ألا ترى أن الإجابات و... قد يتفقان أحياناً وقد يختلفان؟ ثم أليس ل.. معاني كثيرة وأساليب عديدة...
"تريد رأيي في صاحب القلب المسكين؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد إجراحي...؟
اجال ليس مدار بختنا، وليس له أهمية قلي أو كثر، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بحساس وافق منه. اسقح، سأبدي رأيي. لا لا، ما بدى أقول، أستحي...!
وكان تعرف من أمره مع فلانة، ماقص عليها في رسالتها. وفي رسائلها حدث كثير عنها؛ وقد زارتها مرة عن أمره لنبنه بخبرها...

(1) خطيباً.
وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض الغموض في قصة الرافعى
و"فلانة"، ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا، فبدأ أن تنفصل السيدة
الكرمة بالنزول عن حقها في هذه الرسائل فهديها إليها لتلميذها بهذه الحلقة
المفقودة سلسلة التاريخ.
إذن أديبة وعالمة، إنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في
هذه الرسائل؛ وهكذا علينا ما تشتهر فتوفيه؛ ففعل صوقي أن يبلغ إليها في
مأمنها. فمن الله لها سعادتها وحقق لها ما يرجى!

هذه قصة فتاة يجد القارئ بين أرائها، وآخرها أشياء من تاريخ الرافعى.
وهي مثال بين معي ما سميته (النقاء الاجتماعية) في حياة الرافعى بما كان بينه
وابن قراءته من صلة الرسائل؛ على أن هذه القصة شخصية كان لها عنوان
الرافعى حضارة حضار، وقد كان على أن يكتب – بما اجتمع له من فصول هذه
القصة – مقالة بعنوان "الصبارى«، جمع لها فيها جمع من نثر الأفكار قدرا
قليل، ومأخره عن كتابتها إلى أن وافتها الأجل. إلا انظار الحائطة فيها أظلم
وإلا شدة احتفاله بهذا الموضوع، وهكذا نجد شدة احتفال الرافعى بموضوع ما
تكون سببا في تعويق عن كتابته أو عن تمامه،
كان يحتفل بكتابه، أسرار الإعجاز، ولم يلم، ومقالات الزبال الفيلسوف،
و"الصبارى"، لم يكتبها؛ ولكن التاريخ لم ينس له.
مقارنتين ضخمة:

كثيراً ما يدعو الدواعي كتابة من الكاتب إلى إنشاء مقال لا يذيله باسمه، وكما يكون من الشائع المألوف أن يقرأ القراء مقالاً في صحيفة غير معروفة إلى قائلة أو مارسوا إليه رمزًا ما. ولكن من غير المألوف أن ينشئ كتاب من الكتب مقالة أو فصلاً من كتاب، أو كتاباً بتهامه، ثم ينسب ما نشئته إلى كتاب غيره والرافعي في تاريخه الأدبي حوادث من مثل ذلك، قصة مقالات ورسائل، وكتب متماولة مشهورة، يعرفها القراء لغير الرافعي، وهي هي من إنشائه وكدفكرة وعصارته قلبه، ولكنه أثر بها غيره زدها عنها أو الناسا للتفع من وراقها، ولو أن أردت أن أستقصي معرفة من ذلك لأغضض كثيراً من الأحياء. أحرص على رضاهم وأخشى غضبهم، وقد كنت على أن أطوي هذا الفصل حرساً على مودتهم، ولكن، وقد وضعت نفسى بهذا الموضع لا يكون مؤزراً بعبداً عن الهمة - لم تطب نفسى بكتاب الشهاد، فإذا لم يكن بوسعى أن أذكر كل ما أعرف نفسى اللهجة الدالة والإشارة الموجزة، ومعذرة إلى أصدقائي...

في سنة 1911 أصدر الرافعي كتاب تاريخ آداب العرب فقبله الآباء بقبول حسن، وكتب عنه المقالات الضافية في كبريات الصحف، ولكن ذلك لم يكف الرافعي، فمن ذات يوم قصد إلى جريدة المؤيد، فلقى هناك صديقه المرحوم أحمد زكي باشا، فأخذ إليه كتابه ورجاه أن يكتب فصلاً عنه، فقال زكي باشا:
وماذا تريدني أن أكتب؟ قال الراقي: تقول وتقول... قال زكي باشا:
فأكتب ماتِه، وهذا إمضاني...، وجلس الراقي إلى مكتب في دار الجريدة
فكتب ماتِه، أن ينسب إلى صديقه في تقرير كتابه: ثم دفعه إليه فذله باسمه
ودفعه إلى عامل المطبعة...
وقرأ الناس في اليوم التالي مقالاً ضافياً بإمضاء: أحمد زكي باشا، في تقرير
تاريخ آداب العرب، كسنة الصفحة الأولى كلها من الجريدة. ولكن
أحداً من القراء لم يعرف أن كاتب هذا المقال هو الراقي نفسه؛ يثنى على
كتابه ويطرى نفسه!
هذه الحادثة أخوات مع زكي باشا نفسه: فإنما لما أنشأ نشيده، أسَّل
يا مصر... قرأ القراء، مقالاً في الأخبار بإمضاء أحمد زكي باشا: يثنى على النشيد
ويطرى مؤلفه: ولم يكن كاتب هذا المقال أحداً غير الراقي؛ بل إن أكثر
المقالات التي بِرَاهَا القارئ في الكتب الصغيرة الذي نشره الراقي عن نشيده
هذا (1) هو من إنشائها أو من إملائه!
وقد ظل هذا (التعاون) وثيقًا بين المرحومين زكي باشا والراقي إلى أخريات
أيامهما: ومنه أن زكي باشا كان على نية إعداد معجم لغوي كبير قبل وفاته: وكان
للراقي في إنشاء هذا المعجم أثر ذو بال: وفيه ضوَّل ألفها الراقي بِتَمَامها وأعدها
للإمضاء... ولكن المليئة أُجِلَّت المرحوم أحمد زكي باشا عن إصدار هذا المعجم;
وأحْسُبُ ما يزال محفوظًا بين خلافاته الخطوطة.

ويمكن أن تُسْبِبِ إلى هذه المقالات التي كان ينحلها الراقي صديقه زكي باشا،

(1) نشيد سعد باشا - المطبعة السلفية.
ما نقل أخاد المرحوم محمد كامل الراقي من شرح ديوانه الذي أصدر منه ثلاثة أجزاء سنة 1905 - 1910؛ فإن شارحها هو الراقي نفسه؛ وفيها عليه ثناء وإطراء (1).

في اللادتين السابقتين إشارة إلى بعض الأسباب التي كانت تحمل الراقي على أن ينحل أصدقائه بعض ما كتبته؛ رهانف أسباب أخرى:

في سنة 1917 وقعت في طنطا جريمة قتل مرؤوطة، وكانت القتيل امرأة عجوزا مسموية بالغي النح والكزازة، تزوجها قبل مقتلىها شاب من الشباب العابتين طمعاً في مالها، فلم يلبث معها إلا قليلاً ثم وقعت الجريمة!

وتوجهت التهمة أول ما توجهت إلى زوجها الشاب؛ ثم انصرف عنه إلى أختها وزوج أختها فسقاً إلى قضية الاتهام؛ وكانا شيخين عجوزين، فيما بلاهة وغفلة؛ فلم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما وهياً بنغلتبها ونبرسها الفرصة للبجرم الحقيقي أن يركح حولهما الشبكة وأن يصب عليهما أدة الاتهام لينجو هو من العقوبة...

كان الجرم الحقيقي معروفاً للجميع، ولكن المحكمة بما اجتمع لديها من براهين مصنوعة لم تجد أمامها غير هذين البيريين المفنينين، فألقت بهما إلى السجن المؤكد؛ وقضيا في السجن بضع سنين.

شيخان على أبواب الإبادة، يستبجان إلى ظلال السجن ليس من ورائه إلا ظلام القبر، ولم يقترا جريمة أو يرتكبا إبداً ... ولكن القانون قد قال كلمته، والقانون حق واجب الاحترام؛ فلم تبق إلا الرحمة الإنسانية لشفيعا من قسوة القانون.

(1) انظر ص 43 من هذا الكتاب.
وسعت أسرة السجينين إلى المحامي الأديب المرحوم حافظ عامر تطلب إليه أن يكتب استرحا ما في أمرها إلى أمير البلاد، لعل في عطفه ما يأسو الجرح ويخفف وقع المصابات؛ وجعلته له أجرًا على ذلك مائة جنيه!

وماذا يقول المحامي في قضية فرغت المحكمة من أمرها وقدم القضاة كله؟ ليس هذا سبيل المحامي الذي يرتّب القضايا ويستبز النتائج ويستنطب الصامت ويوضع الفارغ؛ لقدقات أوان ذلك كله فلم تبق إلا الكلمة الشاعر الذي يخطب النفس الإنسانية فيجمل الرحمة ويستدرهم العبرة ويحسن الاعتزاز عن النفس البشرية من أخطائها فذكى العاطفة الحالية ويوقظ الإحساس الراقد ويتحدث إلى القلب الإنساني حديث الوجدان والشعر والعاطفة. وقصد المرحوم حافظ عامر إلى صديقه الرافعي، ليدع القضاة بين يديه ويسأله أن يكتب الاسترحا إلى أمير البلاد، وسمى له أجرًا إن توقيغ في مساعيه وقرأ الرافعي القضاة وأحاط بها من كافة نواحيها، ثم شرع قلمه وكتب...

وبلغت صيحة أرجل أُفُرِج عن السجينين في ماي سنة 1931 وتناول الرافعي أجره على ذلك من المحامي سبعة عشر جنيهًا، واستبقي المحامي لنفسه ثلاثًا وثمانينًا (1)... في هذا الاسترحا الذي كتبه الرافعي في بيض وأربعين صفحة ونعله صديقه المحامي ليطبعه باسمه، لون من أدب الرافعي غير معروف لقرائه؛ وفيه تحليل نسيب فده؛ وفيه شعر إنساني يبلغ الغلاية من السموق؛ وفيه منطق واستنباط وخلاصه دقيقة لا تجدها في أساليب الأدباء.

وقد مثل هذا (التعاون) الأدي متصلين الرافعي وصديقه الاستاذ حافظ عامر حديث هذه القضية الاستاذ الأديب جورج إبراهيم، صديق الرافعي، وملازمه من لدن نشأته.

(1) حدثن حديث هذه القضية الاستاذ الأديب جورج إبراهيم، صديق الرافعي، وملازمه من لدن نشأته.
إلى ما قبل موت الرافعي، ولكن هذا (التعاون) قد خرج من نطاق القضايا والمحاكات إلى نطاق أدبي آخر ليس من حتى أن أتحدث عنه اليوم ... وعند الأستاذ الزيات بقية الخبر، تحدث به الرافعي إليه في مجلس ضمّاً نحن الثلاثة ...

أشرنا في بعض ما سابق من هذه الطبعة إلى ما أجملنا ذكره في الطبعة الأولى من خبر "رسالة الحج" المنسوبة للرحوم حافظ عامر في جدة سابقاً(1) على أن ماذكارنا إجمالاً في الطبعة السابقة لم تخف حقيقته عن كثير من القراء، ففهموا ماقصدنا إليه، وإن كنا لم نقطع برأي أو خبر في نسبة تلك الرسالة؛ وقد كتب إلينا صديقنا الأديب السيد حسين نصف من جدة في سنة 1943 يقول: إن هذه الرسالة ليست من تأليف حافظ عامر، ولا من إنشاء الرافعي، وإنما نقلها أوهمها عن ترجمة الإنجليزية مخطوطة للكتاب بالأردنية عن "أسرار الحج"، ولم يكن يعلم أن النسخة الأردية قد نشرت على قرياتها في الهند قبل ذلك بسنين، وأن ترجمتها الإنجليزية قد سبقت النسخة العربية التي نشرها حافظ عامر في القاهرة بمعونة صديقه الرافعي، ولم يرهن صديقنا الأستاذ حسين نصف على دعوة بعد أن تلقى نسخة الأردنية لمؤلف خبرها بينها وبين رسالة حافظ عامر، فدفعها إلى صديقنا الأستاذ محمد حسن الزيات - رضي الله غبته - ليقارن بين الأصل، وصدوره، ففعل؛ ولاتزال تلك النسخة الأردنية عندنا حتى اليوم. وقد نشرت مجلة الرسالة، في ذلك الحين دعوى السيد حسين نصف والرد عليها، وتناولها موضوعها بالتعليق في بعض ما كنا نكتب وقتما في مجلة الثقافة، بتوقيع "قاف": تحت عنوان "الصحافة والأدب في أسبوع".

(1) انظر ص 320 من هذا الكتاب.

(21 - حياة الرافعي)
فإذا صح هذا الذي رويتاه - ونحن نميل إلى تصحيحه - فإن عمل الراقي في تلك الرسالة التي نشرها المرحوم حافظ عامر منسوبة إليه، لا يبدو عمل المنشئ وصاحب البيان لفكرة زعم له صديقه أنها فكرته.

وإلى حدث المقالات المنحوتة فقول:
في شهر ديسمبر من سنة ما، قصد الأساتذة جورج إبراهيم صديقه الراقي; يطلب إليه أن يعرب عنه هل المسيح تلقىها فتاة مسيحية في حفلة مدرسية في ليلة عبد الميلاد...

وكتب الراقي المسلم كلمة مسلمة في تجديد المسيح فدفعها إلى صديقه، وألقته الفتاة.

بIMIZE حاشد من المسيحيين المتضمنين في حفلة مدرسية من قبل الجماهير.

وفي الشهر التالي كانت هذه الخطبة المسيحية الراقي منشورة في "المقطف" منسوبة إلى الفتاة; وكانت عند أبرز القراء المسيحيين إنجيل من الإنجيل.

تخذل هذا آخر النسخة الأصلية من هذه الخطبة مكتوبة بنص الراقي: وهي النسخة التي بعث بها إلى صديقه الأساتذة جورج ليدفعها إلى الفتاة، وقدمها بخطه إلى صديقه: "هذا ما تسرني على شرط الفتاة، فنصح فيه ما اعتنقت، واضبط لها الكلام، والسلام.

وفي آخرها يتفك مع صديقه، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المرة، المكروفة، والمنارة ياعججني."

وكان المرحوم الأساتذة عبد الرحمن البرقوق - صهر الراقي - من تلاميذ الأساتذة الإمام الشيخ محمد عبد المقربين، وكان أدنى إلى منزلة من كثير من
تلاميذه، على أن تأثره به كان من الناحية الأدبية وحسب، على حين كان تلميذه المقرب المرحوم السيد رشيد رضا مختصساً بالرواية عنه في الناحية الدينية، فكلهما من تلاميذه الأستاذ الإمام ولكن لكل منهما نهجه وشريعته.
فليأم البرقوق أن يصدر مجلة البيان (1) وكان السيد رشيد رضا قد سبقه لإصدار مجلة المنار. فقد البقرقق إلى الراقي يقول له: فإنني لا أتصور كيف يصدر عدد الأول من البيان، وليس فيه كلمة أوثيد أوجلس من مجلس المرحوم الأستاذ الإمام نفسه لقراءة، وأن كنت أدنى إليه مجمالا من رشيد رضا الذي لا يكاد يصدر عدد من مجلته المنار - إلا وفيه حديث أو خبر أو جلسة من مجلس الشيخ.
قال الراقي: فأبدأ العدد الأول بما شئت من حديثه أو جلسته درسه،
قال البرقوق: ولكنني لا أجد عندي ما أرويه عن الإمام، لقد ترك الشيخ في نفسه أثره ولكنه لم يترك في ذاكرتي من حديثه وجلسته شيئاً يستحق الرواية.
قال الراقي: ... ولا بد من ذكر شيء عنه في البيان؟
قال: بل!، إلا أنني رشيد رضا واستطأل على عنده قراءته بأنه هو وحده تليذ الإمام وراويه،
وضحك الراقي وأطرق هنئة، ثم تناول قلمًا وورقة وكتب ...
وصدر العدد الأول من مجلة البيان، وفيه حديث يرويه البرقوق عن الشيخ محمد عبده في مجلس من مجلس درسه، بأسلوب من أسلوبه وروحه، وكان في مثل بيانه، وما قال المرحوم الإمام شيئًا من ذلك ولا تحدث به، ولكنه حديث مصنوع وضعه الراقي على لسان الأستاذ الإمام ونشره.

(1) مجلة البيان: هي مجلة أرذية كان لها في حلبة الأدب صولة وسلطان، وهي غير البيان، التي كان يصدرها المرحوم إبراهيم الباجي.
البرقوق ليقضي لبابة في نفسه...

... أتي إلى الرافعي هذا الحديث ساخرا، ثم دفع إلى العدد الأول من مجلة البيان، وهو يقول: "اقرأ! أرى هذا الحديث من مهارة السباق بحيث يجوز على القراء أنه من حديث الأستاذ الإمام؟" وضحكت وضحك الرافعي، وعاد يقول: "ولكن تمام الفكاهة أن السيد رشيد رضا لما قرأ هذا الحديث المصنوع، انتقى إلى جلسة قائلًا. وأي حديث هذا الذي يبدأ به البرقوق في مجلته؟ لقد كنت حاضراً مجلس الشيخ، وسبعت منه هذا الحديث، ولكن لم أجد له من القيمة الأدبية ما يحمل على روايته!" ... واستمر هذا (التعاون) أيضا بين الرافعي والبرقوق، طول المدة التي كانت تصدر فيها مجلة البيان، فأي مقال قرأ من أعداد هذه المجلة فشكت فيه نسبته إلى مدينته باسمه، فاحله بناء أن محاك المحافظ من الأدب المتحرر...

ومن ذلك مقدمة شرح ديوان المتنى الذي نشره البرقوق، ويدخل في هذا الباب كثير من المقالات كان الرافعي يكتبها بأسماء طائفة من ناشئة المتاؤدين: ليدفع عن نفسه في معركة، أو يدعو إلى نفسه لمغنم، أو لبعين صاحب من العيش، أو ليوحي إلى (صاحب الإضاءة) إجاه يدفعه إلى الاستمرار في الأدب والأمل في أن يكون عذرا من الكتباء المشهورين ... وليس يعني في هذه الناحية أن أستتي أحدا أو أشير إليه، إذ كان الذي كتبه من ذلك ليس له من القيمة الأدبية ما يدعونا إلى الحرص على تصحيح نسبه، وأكثره لغو ما ينشر في بعض الصحف والمجلات الفارغ...

(1) أروى هذا الخبر عن الرافعي على علائه، على صديقنا الأستاذ محمود أبو رية يشكره، وقد نهى الرحوم السيد رشيد رضا نسبة هذا الحديث إلى الإمام في بعض كتبه، أفتراه تنبه لها من بعد؟
من سنوات الرافعية

لم يكن الرافعي عضواً في جماعة من الجماعات، ولا منتبهاً إلى حرب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال في الرأي. وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يُبَيْن أن ينزل عن رأي يراه جهيلة لصديق أو خصوصاً لرأى جماعة ينتبه إليها؛ وكان له من علته سبب آخر نَبِهَت إليه عند الحديث عن شأنه. ثم إن الرافعي لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم بما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيها يليق وما لا يليق، فهو لا ينكر إلا رأيه، أو حباته، أو مصلحته، فيكون بينه وبين الناس من صلات، ولم يكن يعرف هذا النفاق الاجتماعي الذي يسمي الناس التقاليد، أو الأدب اللائق ...، فهو بذلك كان عاملًا منفرداً يسير في نهجه إلى الهدف المؤلف على وحي القطرة أو هذى الإيمان. سمّ هذا شنوداً في الخلق، أو سميّه استقلالاً في الرأي وأسلوباً في التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها؛ فما يعنى هنا إلا إثبات هذه الحقيقة في التاريخ كما شهدتها في معاملاتنا وفي صلاته بالناس، وكما تختبئ في جملة من أحاديثه...

وهذه الأسباب هي أهم ما كان يبعد بين الرافعي والاشتراك في الجماعات، أو يبعد بينها وبينه!

على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب في وقت ما، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضواً في بعض الجماعات، وأول أمره في ذلك - على ما أعرف - أنه شرع وهو شاب لم يتجاوز العشرين.
في تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الدين، كان معه على هذا الرأي صديقان من أترابه، أذكر منهما الاستاذ عبد القنبل المرت قبلي بطنطا؛ وقد تأخذوا "مسجد البهى" في طنطا مكاناً لاجتماعهم، وتستغذ دعوتهم، وطنطا كما قد يعرف كثير من القراء، مركز هام من مراكز الثقافة في مصر، وفي أهلها حفظاً وتحرجاً، ولها صناعة دينة نشأت من أن فيها معاذ دينياً كبيراً في "الجامع rencont" كان في وقت ما يشتهر عدواً في مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة، والأزهريون في طنطا، كالأزهرية في القاهرة، إلى عهد قريب، أكثر أهل العلم في مصر حفظاً على القديم، وأسرعهم إلى سوء القين بظل إصلاح جديد، من ذلك لكي يراقبوا وصاحبه في دعوتهم ما لقوا من عداء طلبة الجامع rencont وعلمائه، حتى مثبط للمرة أن ينالهم بالأذه في أبديهم، ... فلم يعد الرافعه وصاحبه في النهاية بدأ من التسلية، وانحلت الجماعة الرافعه الصغيرة.

حدثت الرافعه حديث هذه الجماعة في خريف سنة 1921 بعد ثلاث قرون ما كان، وكثبت ذهب إليها يمثل في وفد ثلاثة ندوة إلى الإشارة إلى معنا في جماعة أنشأها باطنطا في ذلك الوقت باسم "جماعة الثقافة الإسلامية" تدعو فيها تدعو إلى العمل على إحياء الشعر بمعنى القومية الإسلامية العربية، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجاً، وكانت تضم فيه تقض طائفة متزامنة من أهل الرأي والعلم والأدب لكل منهم صوت ورأي وجاء في قومه...

ولي الرافعه دعوتنا بعد تنمّ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد، فلما استسلمنا الأهل، دعونا الشباب المتقدمين في طنطا إلى اجتماع عام في ناد كبير، وكان الرافعه من خطبة الاجتماع.
صعد الرافعى إلى المنصة، فوقف برهة يجلب نظره في ذلك الجمع الحاشد، ثم انطلق في خطبه.

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة، وعلى أن موضوعه هو الثقافة الإسلامية، فإن لم يشهد هذا الاجتماع من شيخٍ الجامع الأزهر، ومدرسٍ غير ثلاثة من الشيوخ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ. ولم يفت الرافعى أن يلاحظ ذلك. فسالف في خطبه إلى هذه الناحية، بمعنى على شيوخ الأزهر أن يتفاجوا واجتهما في مثل هذه الدعوة، وأن يؤثروا القعود على الجهاد! وكان فيها قائله: "إن أديباً كبيرًا من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة: لو قعد حارى في الأزهر خمس عشرة سنة، لخرج عالماً! وما نحب أن يقوها اليوم أحد ليلد في كفاءة طائفة من أهل العلم والدين ثم أكرم علينا...!

قالها الرافعى في حاسة وانفعال وفي طهارة طهارة، فسمع المجتمعون مهمته عن يمين وشماله. أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذامهم مقال الرافعى، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ في الأزهر قد خافوا.

أن توقَّل كل الكتلة الرافعى تأتي بلا ناهمل بالشر من إخوانهم الأزهرين...

وعلى أن الرافعى كان في صدر قال: وعلى أن الأزهر بيننا، وكان يعلمنا قبل غيرهم أن هواهم معهم، وعلى أن صدر كلهم وخاصته لم يكن ينغي عن قصد الإساءة؛ فإن هذه الكلمة التي قالتها قد أحدثت دوياً بين الأزهرين تهدّد الجامع في نشأتها.

وسمى ساعى إلى شيخ الجامع الأحمدى (المرحوم المرحوم مهندس الدينارى).

فأجابه أن الرافعى قد قال في خطبه: "لو قعد حارى في الأزهر بضع سنين خرج.
أعلم من شيخ الأزهر ...!
وكتبها كاتب في رسالة خاصة إلى المرحوم الشيخ محمد الإسماعيلي الظواهرى
شيخ الجامع الأزهر ...
وتمامه بها الشيوخ على ما حاكمها الراوي فراحوا يتناولون الراقي وجماعته
بما وسعهم من التجريح في أعراضهم ودينهم ومقاصدهم، وقال قائل منهم:
وما حاذيتنا إلى هذه الجماعة فيها تدعو إليه؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله في العالم
على حد السيف، فما ينبغي غناء في هذه الدعوى كتب أو خطيب يخطب...
وامنت هذته القائلة الطائفة على لسان طائفة...
وعرف الطلاب من الأمر ماعرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب، وسعى...
طائفة أخرى في وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يسمع هذه الفتنة بسلطانه،
واصطبعت المشكلة صبيحة سياسة: إذ كان للزهر بينه وسائر السياسة دولوسلطان.
إذا اتصل الأمر بالسياسة، فإن طائفة من الموظفين المتخصصين إلى الجماعة
قد فرعوا فأنروا الراية منها على الدفاع عنها، وأشفقت طائفة على مصير
الجماعة فأوفدت وفدًا إلى الأمنيات الدينارية شيخ الجامع يحقق له الرواية
ويحمي سوء الظن ويتعذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد ردًا غير جمل وقال
عن الراقي ما قال ...
وجاء الخبير إلى الراقي بما أحدثته كتبته، فاؤفزه من ذلك إلا أن يصدق
شيخ الأزهر ما نقل إليه منسوبي إلى الراقي وإنما لصداقيان من زمان ...
فكتب إليه:
«... وإن شيخاً من علماء الجامع والأزهر يزعم أن الإسلام قد انتشر على
حد السيف! وهذا كلام، وسيقي كلاماً مادمها سا كنا عنه، فإذا عرضت له
لا رجوع للضايقات، فقد تغيّر وجهه، لوكانت وجهة النهار لا سوّد!
وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التي ادعاه خصوم الرافعي عليه بما زادوا فيها ونقصوا، فكتب ينذر إليه، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمد، وكان الرافعي جالساً إلى مكتبته في المحكمة حين جاءه الرسول يدعوّه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدي، فردّه، وعاد يدعوّه ثانية ويلع في الرجاء، فهد الرافعي موعداً.
وذهب إلى لقاء الشيخ، فاستقبله العلماء بالباب في حفاوة بلجية، وسعى بين يديه مهوراً إلى مكتب الشيخ، قال الرافعي: «ووجدت الشيخ في انتظار، وبين يديه "إجاز القرآن"، فألقيته حتى قال: أعرف ف亚运会 أنني مدين لك، هذا كتابك لأغلى بيني، إنه زادى وعمادى. ثم عُيّن في درج مكتب قليلاً. فأخرج ورقها فيها شعر مكثوب، فدمعته إلى وهو يقول: وهذه قصيدة أبعثها لأنشدها بين يديّ الملك في طريق عودته إلى القاهرة. منصبه! لا أحد من يصلحها خيراً منك، فأنت أمّ الشعر، وليسائنا». قال لي الرافعي: "وبعد هذا كانت تقع نفس وترضى، ولكنها كانت وسيلة الشιخ إلى استرئاه، طاعة لأمر شيخ الأزهر بعد الذي قال عنه منذ أيام...".
تم الصلح بين الرافعي والأزهر، ولكن الازمة التي كانت، لم تتبّ على الجماعة، فانهارت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة. وكان للسياسة يمتد حديث طويل...
ومنذ يشتري الرافعي على ما أعلم في غير هاتين الجماعتين...
ولم تتهيأ للرافعي رحلة من الرحلات يفيد منها علمًا أو تجربة طول حياته، غير رحلة أو رحلتين - لا أذكر - إلى الشام، لم يفارق مصر إلى غير الشام من بلاد الله؛ فوُلَب طرابلس حيث مازال أسرة الرافعي لها ذكر وجاه، وزار لبنان حيث عرف صاحب حديث القمر في سنة 1912.

على أن الرافعي كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتميز أن أمتحنه له؛ ولكن موارده الحدودية كانت تقيد به؛ ولما كان في بطاله المغفور له الملك فؤاد، كان له جواز سفر جانبي في الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية؛ فكان بعد حصوله على هذا الجواز ظل فارًا بؤمنية عزيزة، لأنه أتاح له أن يتقلل مارشًا بين البلاد من غير عم، حتى ما يكاد يستقر في بلد، فمو في القاهرة، ومو في الإسكندرية، ومو في بور سعيد؛ يفيد من هذه الرحلات مايفيد لادباه أو لبدهم وأعصابه، حديث مرة أنه كان ينظم قصيدة من مداده الملكية، فأحس شيئاً من النعم والملال، فقصد إلى المحطة فاتخذ مقعده في قطار كان على أهبة السفر إلى بور سعيد، فأتم قصيته هناك ثم عاد...

وقد كان هذا الجواز هو سبب ماينتهء وبين الإبراشي مما فضلت لمجله في فصل سابق، وكان الرافعي قد قصد إليه يطلب إليه مد أجل هذا الجواز بعد انتهائه!

وكان يغبط الذين يجدون في طاقهم أن يقضوا الصيف من كل عام في أوروبا ويتمكن لو أتيح له، ليُفيد من ذلك شيئًا يحتوي على أدب. على أنه مع ذلك كان يرحل إلى أوروبا أين يريد، ولكن في السيا...

كان يسمى السيا: جار القطر!، ويزعم أن في ذهابه لمشاهدتها كلما سنتحت له الفرصة غناء عن السفر، فسواء عنه أن يرحل إلى أوروبا في قطر أو باخرة،
وان رحل إلى أوربا بجاهله في رواية يشاهدها على ستار السيا; فلكيها أثر
متشابه في نفسه; وذلك بعض مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة.
وكم كان ظريفاً أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قلباً: هل
لك أذن تصحيح الليلة إلى خارج القطر؟، يليه هذا السؤال بلا تكلف
ولا قصد إلى الفكاهة، لأن كلمة "خارج القطر"، كانت عنه علّتها عرفًا على
السيا لا يحتاج إلى تعليق.

وكان جديباً في إيمانه بالطيب، وناحي الازرواح، وritelى الموتى والأحياء.
وكان يؤمن بالسحر والعرافة؛ وكثيراً ما كنت تسمع منه: "حدثني نفسي...
ألفقي إلى... هتفن بي هاتفًا، وكان ينبغي ما يقول على حقيته، جلست إليه
مرة في منزله، فأخذت في حديث طويل... وعلى حين غفلة سككت، ثم قال:
"كيف صديقنا مخلوف؟" قلت: "لم أره من زمان!" قال: "إنه قادم الساعة...
لقد ألفقي إلى... أحبس الآن يصعد في السلم...!" فما كان يتم حتي دق
الجرس. وكان الأستاذ حسين مخلوف هو القادم، وسألت الأستاذ مخلوف:
"أكان على موعد مع الرافعي؟ فبني لكي كل ظله؟" وسألني مرة أخرى: "ماذا تعرف عن صديقنا م، قلت: لا جديد من
أخباره"، قال: "هتفن في الساعة هاتفته أنه في شر!"، وفي صباح اليوم التالي
كان نأشروه في الانتشار منشرًا في الصحف! وفي الرسائل التي تبادلاها
بعد هذه الحادثة ما يعد الظن بأن الرافعي كان يعلم شيئًا.
وكان بينه وبين رجل قضية، فناظه، واجداني الرافعي يومًا محتفاً وهو يقول:
"سيئتم الله منه! سيئتم الله منه!" قلت: "يحدثني بأن القصاص قريب!"، وفي الند
جاءنا نفى الرجل، واكتت مع الرافعى وقتئذ، فتنتذت عيناه بالدموع، وتناول
سبحته وأخذ ينتمى في صوت خافت وشفته تخليل من شدة الانفعال!

هذه حوادث ثلاثة رأتها بعينى، ولعلها من أحيان الأخبار عند بعض
القراء، وأحسنتى قد رأيت له غير ذلك ولكني لا أتذكره الآن ...

وحدث أن أباه كان مسافرا مرة إلى بلد ما، وكان عليه صلاة، فاقتشر
مصلى وأخذ يصل على رصين الحطة، وإنما لذلك إذ جاء القطار. قال الرافعى:
ه كان أبي حريصا على مبادئ هذه السفرة، يخشى شيئا أو تأخر عن موعدها،
وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ؛ ولكن الشيخ
استمر في صلاته على وزن واطمئنانه، وما تتحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ
من صلاته واطمئن في كرسيه وحيًا موذعه ووعلى؛ وكان سبب تأخر القطار
شيئا غير مألوف يتصل بشأن من شؤون الحطة !

وأحسبه ذكر مرة في بعض ما كتب، كيف تقل عش أمه على كفه ثم
خفى! وأخبرني أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعى استحضر
روحه ليلة نداءه، وكان بينهما حديث لا أذكروه. وحاول مرة أن يعلمي
وسيلة لتحضير الأرواح ولكن لم أتعلم !

وكان يحفظ كثيرا من الأذاعات والدعاءات لأسبابها !

ولما وقع في حب "فلاحة" ونال منه الوجود بها، لجأ إلى العراقيين في أمل
يأمله، فكتب جملة فعلقها في خط فريطها في سارية بأعلى الدار تلاعب بها
الريح .. (1) قال: "ولكن أموراً عجيبة مفروضة وقعت لولاك ولسكان الدار
جميعاً خلال اليومين اللذين كانت التوبة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك؛

(1) انظر ص 102 من هذا الكتاب .
فإن لكل تمسة غايتها: إقدامها مما نأمل وثانيهما مما نخشى، وكان ما هو لولى وما يهده من حسن، أقرب عند من من الأمثل الذي كنت أرجو: فنفعت على ما كان، وتسليت إلى السطح خلت رباط النبتة وفاضت خانها... قال: فقا فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها في رفق وآمنة: ووالما كنت أحذر، وهاشت نفسي من ناحيته: فما كان شأنه في الحالين إلا كراز سفينة هي على عاصفة ثم قرت... قال: وما كان الذي وقع لي في هذين اليمينين مما يقع في العادة، ولا كانت نهائه وقد فضست خاتم التمية بالنهاية التي تنتظر... وكان يؤمن إياها لا شك فيه بأن يوم ما سأتي فيرد إليه بسمه بلا علاج ولا معاناة؛ لأن نشأها من الغيب هتف بهذه البشري في نفسه... فهنا لا بد وقعة! وقد مات وعلى مكيه رسالة من صديقه المرحوم فليكس فارس يشير عليه بتجربة لتزأبه ضمه معه الذي فقده منذ ثلاثين سنة أوزيد، ورسالة أخرى من صديقه المرحوم حافظ عامر فيها شيء. يشب ذلك! وأحسبه قال ل مرة أو مرت وكنت جالسا أتحدث إليه: "ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعدة قد حانت فأسمع ما تقول!" ولو أنى ذهبت استفني ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وضعت الوقت، وفي بعض ما قدمت الكفاية لن يلمع أسابيع العلم.

وكان الراقي ولعبا بالرياضة البدنية من لدن نشأته، يعالج أسبابها في أوقات رطبة، وكان المشي الطويل أحب رياضة إليه. خرجت مرة في جماعة من صحي يوم، شن النسيم، الرياضة بعيد الفجر، وكان معنا ما لانها وطلمانا وقد عزمنا أن نقضي اليوم كله في الحلاء، فلما صرنا...
على بعد ميل من المدينة والشمس لما تشرق، نحت الراقي على بعد يخب في مشتهه على حافة قناة بين زرين: فلما دووت منه رأيته ميل فيلب كنه بأنذاك الفجر على أوراق البرسيم فسمح بها وجهه وهو مغطبو مسقط: وأقملت عليه أسألة، قال: هذه رياضة تعلو لي كثيرا، فما أذكرها إلا لعارض، بل إلى لطيف لي أحيانا أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة، ثم أعود لأفتر وأخرج إلى الديوان...، قلت: وهذا الندى الذي تنسّل به وجهك؟ قال: إنه ينصر الوجه وبرة الشباب!، ثم سأل: وأنت تقصدون؟، قلت: هذه رياضة لان تقوم بها في العام إلا مرة، وإننا لطعاما وماء وحلوى: فهل تصحنا؟

قال: ودعت ولكن في غير هذا اليوم... أسأل الله لكم العافية!

وكانا في هذا اليوم شر لم توقعه، فقدنا قبل أن ينصف النهار مرونين! وسمع الراقي بما كانا فقال: وهو ذلك! ينثر ليبرص بالمسلم الذي يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لطلع الحرم! هذه وصية أب!«(1)».

وكان يعالج كثيرا من وسائل الرياضة غير المئى، وقد أتفق تمرينات

«صاندو» الرياضي الفرنسي المشهور...

ولو أن أحدا دخل منذ سنوات الفرقة التي كان فيها مكتب الراقي، لرأى

(عقلته) تتدلى من السقف، وكرات وأساطين من الحديد ملقاة إلى جانب،

وأنقالا من أنقال الرياضة مسيدة إلى الحائط.

وقد كان إلى قريب يملك عسا طويلا من الحديد الغليظ يعلق في كرفيه

(1) وصفت هذا الحادث في مقال نشرته مجلة الرسالة المصرية منذ أعوام,

بعنوان: هو لا أنساه!».
ولديه الشابين سامي ومحمد، ثم يرفعهما يدها كما يفعل أبطال الجمل حين يحملون
من أثقال الحديد...!
وكان ولعه بالرياضة يحمله على السعي إلى أبطالها يلمس صداقهم؛ ومن
أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبدالحليم المصري، والبطل المصري المشهور
السيد نصير!
وقال وأشار إلى صورتي صاندو والشيخ محمد عبده:
هاتان قوتنا تعملان في نفسى: قوة في روحى، وقوة في جسدي!
قلت: وهذى...؟
قال: وهذى...! ما أجملها! انظر! ألا تقرأ شعرًا مسئولاً على
هذه الجبين؟
كان سباحاً ماهرًا، وكانت له جولات في السباحة يشهدها شاطئ سيدى
بشير في الصيف، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام جنبًا من الشاطئ غير
مطرقة لنعنوانها وشدة موجه، وكان يمزج وبسمته، بلاغ الراحى، إذ قال أن
يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطفى في سيدى بشير غير الراحى وأسرته.
ولياطن في قدرة الراحى على السباحة أنه أوكى أن يغرق مرة: كان
ذلك قبل منعاه بأشهر، وكان يغرق معه طائفة من أولاده، لولا أن أسرع
حارس الشط لنجدهم.
والرافعي صورة طريفة تصورها منذ بضع عشرة سنة، وتمثل في ذي أبطال
الرياضة المشهورين: عارى الجسم، بارز العضلات!
وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية، نشرها مسلسلة في مجلة "المضمار"
الرياضية التي كانت تصدر في القاهرة منذ بضع عشرة سنة.
وهي عنوانه بالرياضة من أسباب قوته البدنية، ومن أسباب قوته العصبية
أيضاً؛ ومن هؤلاء كان اصطباغ الرافعي على العمل الشاق فيا يعالج من
شتون الأدب.
ولكنه وأسفا... قد مات بغير علة، لأن القدر أقوى من احتيال البشر.
قفت في أول هذا الفصل: إن الرافعي لم يكن رجلا اجتماعيا يلتزم ماتفترض
عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أساليب الناس فها يلبق وما لا ليلى.
فعمل قراء الصحف المصرية مايزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذي كان
يطالعهم في كل جريدة وكل مجلة "عن الفسفورين" وفي رأسه صورة الرافعي
وشهدته تخطه عن مرايا الفسفورين الذي ظننا شفاء فكانا شرب في الكهربا...
فولعل كثيراً من الذين قرأوا هذا الإعلان ورأوا في رأسه صورة الرافعي
وشهدته تخطه - قد جعلوا وسألوا أنفسهم: كيف يرضي رجل كالرافعي أن يضع
نفسه هذا الموضوع؟
ولعل كثيراً منهم كذلك كانوا يعتقدون أن الرافعي لم يكتب هذا الإعلان
إلا ما أجوروا كما يؤجر دنجوم السما وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف
العنبر والساعون وأدوات الزينة...!
ولكن هذا الذي كان يدور في خلية جميع القراء، أو أكثر القراء،
لم يكن ينظر للرافعي أو يدور بخلده؛ بل لعله كان يراها مغرة له على أدب الجيل أن يؤخذ بشجاعة من دونهم جميعاً، وأن يُنشر صورته كل يوم في كل جريدة مع لقب: إمام الأدب وحجة العرب...، الذي نخله إياه الأمير شكري أرسلان في بعض ما كتب عنه! وأحسبه قال لي مرة: "إن الأديب فلاناً لياً كله الحبيب كلما رأى هذه الصورة مقتارنة إلى هذا اللقب الذي لا يталو" إلأه أدب من أدب الجيل، أُثراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين؛ أم شهادة من الفسفورين إمامته...؟

ولكنه - رحمه الله - لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليبر أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان عمل لا يلبق! والسبب الذي دعا له كتابة هذا الإعلان، أنه ذهب مرة ليشتري دواء من صيدلية؛ فأهدي إليه من أهدى شيئاً من الفسفورين زعم أنه بعينه على المجهد العصبي الذي يبذل في معاناة الأدب، ثم دعاه بعد إلى كتابة هذا الكتاب. فلا أجابه الرافعي إلى ماطلب، بما دعاه في منزله بهدية من مركبات الفسفور في صندوق... ثم كان كتاب الرافعي - كما رأه القراء - إعلاناً بأخص الأمان، وهو راضي مسرور! وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان: نشره منذ سنين في مجلة المقتطف (1)، يشيد بهنديًّ مشهور، لأنه وضع له رسماً لمزلجه الذي مات قبل أن يبنيه؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذي وضعه! وإلى القراء هذا الإعلان؛ أثبتها ملاحظة أديه لا يقع القراء على كثير من أمثالها...!

(1) سنة 1928
(22 - حياة الرافعي)
إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس...

عزيزي الأستاذ رمسيس

تأملت رسمك الجميل الذي وضعته لمزلي، وتبتعت مواضع الاتصال فيه بين قريعتك المبديعة وبين شكل الطبيعة وروها; فأشهد لك أن هذا الرسم بما فيه من القوة يحاول أن يجا في نظر من كنامله. إنك بهذا الدوق السليم الحلي لتعطينا المرور في شكل من الفن؛ حتى لو ملأك المالك رقة من الأرض كالبقبعة من الظلة لوضعت لها من هندستك غزوة غير نيبو عليها.

وأراك بهذا الدقة وهذا العلم كأنما ترمي الطبيعة أن تقدم لك حسابا عن كل مكان تتناوله منها؛ وأحس بها لو هي صنعت بناءً كما تصنع مسامارها وأزهارها لجأت به في موضعه على الرسم الذي تخليله أنت لموضعه، كأنك أعطيت بالعلم سر إظهار الجمال في أشكاله كما أعطيت هي بالقدرة سر تكوين الأشكال في جمالها...

ما أبدع ماتمرج أنمي الساحر بين القريحة والمسادة، وما أدك ماتصل بين الجمال والمنفة، وما أك معا حقق بين المخلة والواقع إن هذه الخطوط إلى رسمتها لتكون ميضاءة بيت جميل، هي نفسها ميضاءة فن بلغ يقيم لك بناء نفي من إعجاب عينك؟

مصطفى صادق الراقي

ديسمبر سنة 1928

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلانا عن فنه بشهادة الراقي؛ وحسبك بها من شهادة!
ولكن كان في هذه الإعلانين الكفاحية لإنجابات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية، إن في الحادثة التالية لتساوى بوضوح:

عاد الباشا حافظ عامر من الحجاز ذات سنة في إجازته فأخذ إلى الراقي:

"سبحة نادرة لمناسبة عودته، زعم له أنها تساوى بضعة جنيهات.

وعرض الراقي السبحة على وقال: "كم تساوي؟" قلت: "لا أدرى أ".

قال: "فهل لك أن تقومها في السوق؟" فذهبت بها، ولم أكن أعرف أنها مهدئة إليه - فلم أجد لها شيئاً في السوق، ولكن ناجراً أتبني أنها لا تساوي أكثر من جنيه!

وابتأت الراقي بما سمعت، فذا لفت أن تناول قلبه وكتب رسالة إلى صديقه يعتب عليه أن يغالي بقيمة الهدية إلى خمسة أثمانها.

وعلست بعد بـ"بما كتب الراقي فأتلمتا لذلك ولم أكم عليه رأي، فنظر إلى مدهوشًا وهو يقول: "أترضى خطأً أن أكتب إليه هذا...؟"

قلت: "نعم!" فسكّت هنأة ثم قال: "وهل تراه يغضب لهذا؟"

قلت: "أظن!".

فعد إلى سكونه وفي وجهه الأسف.

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد، فيه عذاب، وفيه عناية، وفيه:

ورقة بحثه يطلب إليه أن يشترى به سبيحة من لها إن وجد...!

وقرأ الراقي رسالة صديقه: وكان حريأ أن يشترد به الأسف لجواب صديقه، لولا أن هذا الجمع قد عنا ما كان في نفسه... فاستبقاه لنفسه...!
في يوم الريفي:

في الساعة الثانية بعد ظهر الأحد 9 مايو سنة 1937 ، نهض الرافي عن مكتبه في المحكمة متطلقاً إلى داره ، يراقب صديقه الآديب أمين حافظ شرف - وهو كان رفيق أوبته كل يوم - وتحت إبطيه عديد من الكتب والصحف والجلات ، تعود ألايسير إلا ومعه مثلها ، وفي يمته عصا لايعتدم عليها ولكنه تعود ألا يمشي إلا بها.

واфрقت الصديكان وبنهما ميعد على اللقاء مساء في مكان ما ، ليذهبا معا لمشاهدة فرقة رائقة هبت المدينة منذ قريب . وتغدى الرافي وصل الظهر ونام ، ثم نهض بعد ساعتين ، فصل العصر وجلس إلى أولاده يداعه ويُرحم معهم ويتسطع لهم ، على عادة تعودها ; ثم ذهب إلى عيادة ولده الدكتور محمد ، حيث لقي هناك أخاه الدكتور محمد النبوي ، وصهره الاستاذ مغازي البرقود .

جلس يمرح ويضحك ويستنكر أكثر ما عرف عنه من المزاح والضحكات والتنذر في يوم من الأيام ; ثم صلى المغرب والعشاء في العبادة ، وصحب أحدهما إلى مأم جار من العامة يعزبا أهله . والمعروف عن الرافي أنه كان يكره حضور الآلام وتقدير التعازي كراهنة ظاهرة ; وقلما كان يشتهى في مأم ، حتى إنه لم يتو في زوج ابنه سامي ، لم يجلس في المأم إلا لحظتين ، ثم انفرد في خلوه يستوحي الحادية مقالة المعروف « عروس تزف إلى قبرها » ، وجاء المعزون يلبسون الرافي.
أعلم بحدوا إلا وله وصهره...

فقد كان الرافعي بحضرت هذا المقام في يومه الأخير يريد أن يصل نسباً.

ويعد قد آسرة بالعالم الثاني، أم كان ذلك ميعادا إلى لقاء قريب...

ثم ذهب الرافعي بعد التعبيرة إلى مروج صديقه ماتشبة. واتخذ طريقهما
راعياً إلى حيث أرادوا: ففرحنا، وشاهدنا ما شاهدا في الحفلة الرائعة، وأخذ
الرافعي ما أخذ من وحي الرقيات لفته وأدبه، وأخذ صديقه ما أخذ...

أعلم أن الرافعي يريد من هذه السهرة أن يصل ما انقطع من قصة (الجمال
البائس) و (القلب المسكين) و (في اللهم ولا تحيق)...

وفي منتصف الساعة الثانية عشرة، كان الرافعي في طريقه إلى بيتته,

نوراً ودع صديقه في منتصف الطريق: فلما بلغ الدار، خلع نيابه، وتناول
عباءة خفيفة من الحزب والبطرخ؛ وبالبطرخ كان طعام الرافعي الذي يحبه
ويؤثره على كل طعام في اللمسة: لأنه كان يؤمن بفائدة لا عصابة: وكان
يستوردته من بور سعيد جملة.

وإستيقظ مع الفجر على عادة كل يوم، فتوضاً وصل، وجلس في مصلى

يسبح ويدعو ويتلو قران الفجر. وأحسن بعد خظة حراراً في معدته، فتناول
دواة، وعاد إلى مصلى: وخا وله الدكتور محمد ملوده، فسكتا إليه ميس نو
معدلته، وما كان إلا شيئاً ما يعتاده ويعبادة الناس كثيراً من حصوله في المعدة
فالعامة وله شيوخ من دواء، وأشار عليه أن ينام، ثم ليس محمد نيابه ومضى لبدورك
القطار الأول إلى القاهرة كعادته كل يوم، ومضت ساعة ثم نسي الرافعي من

(1) انظر ص 375 - 277 من هذا الكتاب.
فرائه لا يحس آلاما ولا يشكو وجوه وما بآلهة: فأخذ طريقه إلى الأقاصى، فلمكان في الهمو سمع أهل الدار سقطة عنيفة أحدثت صوتا شديدًا: فهبوا مذعودين ليجدوا الرافعي جسدا بلا روح!
قال الدكتور محمد: ولما وجدت البقية تنطرز في محطة القاهرة وليس فيها سبب ما يدعوني إليه، تخبرت حيرة شديدة: بل، قد أيقنت أن شيئًا حدث وأن كارثة وقعت، ولكن لم يخطر في بالي قط أنه أي. لقد تركته منذ ساعتين سلما معافًا قوى القلب أقوى ما يكون قلب رجل في سنّه... كل المفاجآت المروعة قد خطرت في بالي إلا هذا الحادث، ولكن... ولكن الالذي مات كان أي...!
يا صديقي، لك العزة ولي أحسب أن الرافعي سيمر أنت في فراش وهو قد نذر أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينحرف بها الشرك والضلائل ويدعو إلى الله، وواصل حملة التطهير!...
طبت نفس يا مصطنع! لكم كنت تخشى القرى والحبار والمسير والدم والإغلاق، و嘘ُنُبُلُ الأشخاص الذي تُعد من الحياة وماهي من الحياة! فأيّ كرامة نلت؟ وأي مجاز جرت؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد؟ وهل كانت الإبهام أن تقف بكذاك من ملام إلى ملام أرحب في كنف الخلد وفي ظلال الحياة؟ يرحمك الله يا صديقي ويرحنا اه... اه...

وحل جبله بعد ظهر الاثنين 20 مايو سنة 1337، إلى حيث رقدة

(1) ما بين القوسين، نص عبرة الرافعي في رسالة مكتوبة إلى صديقه

الاستاذ صاحب الرسالة قبل موته بأيام، يحدد نهجه في العمل!
الأب في جوار أبوه من مقبرة الرافعى بطنطا، لم يشيعه إلا بضع عشرات من زملائه في المحكمة، أو من جيرانه في الدار.

وبلغ نعيه أقطار العرب وأدباء العربية: فسكت القارئ وتلفت الساعم،
وغمض السامرود من أهل الأدب سكون ورحمة وانقباض.
وطالت فترة الصمت، والسامرود في غضبهم لا ينطقون، إلا نظارات شاردة، وخواطر تصرع وتتهجج، وذكريات تنبس في محبة لاذعة، تذكر
بما كان وتبته إلى ما ينبغي أن يكون ...

وهمس هامس: يا رحمه الله! لقد كان رجلاً للدين، ولهربية هيبات أن تجد
بديلاً منه أو ين قضى زمان من عمر التاريخ!
ثم عاد الصمت، وعاد السكون، إلا النظارات الشاردة، والخواطر المسائية، والذكريات والألمان ...
وهنف هائف في جلال الصمت، وفي وحشة السكون: إن للفقيد تفا
على اللغة، وحقاً على المسلمين، لا يحجز فيما أن يقول: يا رحمه الله!
وتدانت الرووس، وتجاوزت النظارات، وانثارت الأفكار، وتزاحت
الألمان: لم لم يلبث أن عاد الصمت وعم السكون!
ثم عاد القارئ يقرأ، وأنصست الساعم يسمع، وانتحى أئتمان يداولان
الأرى في شأن من شئون الأدب، وتماسك أئتمان يفاصلان بين الجديد والقديم؛ وعامت في سماء البدى غائمة، وانعقدت على رؤوس السامرودين محافة، وضح المكان كسالف عهده، واختلطت الأصوات فما بين صوت من صوت، واشتغل كل بما هو فيه ...
وصاح صاحٌ في نبضة البلاس المحزون: يا يحكم يا بني يعرب! لقد شغِلتمكم.
دناكم عن الوفاة، وفتنتكم الحياة عن ذكر الموت! لقد كان هنا إنسان منكم، وإن له لأرففكم صوتاً وأبلغكم بياناً، وأبلغكم غاية ومدى: فهل ذكره منكم إنسان؟

ورقت العيون، واختلطت الشفاه، واهتزت الرؤوس، وانبعث صوت السامرين يحوقل ويسترجع في حمس خاف، وقال قائلهم: "يرحمه الله! لقد كان...!"

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا كل وفاء العربية للراحلين من أدبائها: يهاوون من الدروة إلى بطن الودى فرداً فرداً، وإخوانهم على الطريق ينظرون إليهم في بلاد وصمت لا يشيعهم منهم قدم، ولا تتبعة منهم باكية، ولا يذكرون منهم إنسان!

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا كل تراث الأديب في العربية لبنيه وأهله، هو حسنهم من الطعام والشراب والطيب وتقاليف الحياة، وفيه العواد كل العواد من عائلتهم الذي طواه الموت بين الصفائح والترب!

يرحمه الله! يرحمه الله!

هذا هو الخالد الذي ضمتها العربية لمن يموت من أدبائها، وهو في ميدان الجهاد يكافح الفقر والمرض والشظى العمال، ويبدل نفسه لنشيئ أداً يسمو بضمير الامة، ويشير لها طريقاً تسير فيه إلى عظمة الخلد وسعادة الأبدية وجد التاريخ!

يرحمة الله! يرحمه الله!

هذا كل ما تستطيع العربية من كلمات العزة، وكل ما يملكه أدب العربية من أساليب المواساة، وكل ما يقدر عليه ناطق بين، صديق يحب، وحبيب
يشعر أن عليه حقاً ممن يموت من أهل البيان

يرحمه الله! يرحمه الله!

صوت ملاه صدى، وتراث ليس فيه غناء، وطعام لاهناً ولا إرماً، وخلود لايدوم إلى غد، وعزة لايفخفف دمعة ولايفخفف لوعة ولا ينفذ إلى قلب طفل سلبه الموت أباه وسعادة دنياه!

يرحمه الله! يرحمه الله!

كلها عنكم أيها الأدباء الكبار، وأيها الشعراء العظام، وأيها الخطباء المصاقف! خلوا عنكم عناها، سيرحمه الله وإن لم تقولوها! سيرحمه بما جاهد، بما بذل، بما عانى، بما تحمل من جهد التضحية ومشقة الحرمان؛ وسيرحمه ثانية بما لم من العوقات وكان بها، بما لقي من الغدر وكان وفياً، بما قبول من إنكار الجيل وكان من أهل الجيل؛ وسيرحمه بدموع اليتاء، وأبنات الآيام، وبدعوات كثيرة من أهل الإيمان وفقوا له ما وسعهم الوفاء!

مضى عام وأوشك عام ثان منذ ممات الراقي (1)، فهل سأل أحدّ: كم خلف وكم ترك؟.

سأقول وإن لم يطلبها أحدّ إلى ...

أما المال فلا سبد ولا لبد، وأما الأدب فثروة للرواية ومحنة للولد،

أما العيال ... فواخرناً لوكأن يجد الحزن!

هذا «سامى» كبرهُم في بعثة الجامعة بأمريكا مايزال بينه وبين الغاية خطوة!

(1) كتب هذا الفصل في الذكرى الأولى لوفاته، في 10 مايو سنة 1938.
هذه "سعيدة" الصغيرة تبكي في الورد وتضعم شفتيها على الباء؛ وبينهما شمامةٌ يقوم على شوونهم "محمد"! الله هذا الشاب العائل! لم يكد ينعم بقرب الأهل بعد فراق سبع سنين، حتى كان عليه عبء الأسرة كلها، فكأنما كان هو في تلك الغربة وديعة إلى أجل، وذخيرة إلى ميعاد; وعاجلته تبعات الحياة ولم يزل في باكر الشباب!

والحكومة...؟ خلي عنك يا وزارة الحكاية، خلي عنك يا وزارة المعارف، خلي عنك يا وزير المالية... الله أكرم!

لقد تصرّم من عمر الرافعي في خدمة الحكومة مثمان وثلاثون سنة، ومات ولم يجاوز السابعة والخمسين؛ فأي مكافأة لناها وأي جزاء؟ بضعة عشر جنباً في كل شهر تأتي الحكومة إلا أن يكون لها فيها ميراث...!

إنه الرافعي، إنه الرجل الذي كان اسمه في مقدمة الأسماء المصرية التي تؤكد زعامة مصر للأمم العربية، وترفع اسمها، وتبني مجدها الممتاز، وتستند طرائفها التي يحتذى بها الأدباء في العالم العربي. إنه هو... ولكنها هي مصر!

وكتب رئيس الرافعي في وزارة العدل كتاباً غداً منصبًا إلى وزارة المالية؛ يصف لها من حال الرافعي ومن خبره، ويقترح أن تنزل الحكومة عن نصيفها من الميراث في (معاش) الرافعي لأولاده... ولكن وزير المالية يأتي (1)...

ولكن الله أكرم...

يرحم الله! يرحمه الله!

ذلك كان جواب الحكومة المصرية...

لقد مضى عام وأوشك عام. فهل هذا كر أداء العربية فيها عليهم للرافعي؟

(1) كان وزير المالية لذلك العهد هو مكرم عبيد.
واهل ذكرت الأمة والحكمة ما علينا من واجب الوفاء للرافعي؟ لقد تدأعى الأدباء إلى ميعاد يحتفلون فيه بتآبين الرافعي، وفاجء المياد وتفخفف المدوز والداعي: وترادر مياد ومياد ومياد؛ وميض عام، وعلى مكتب كل أديب دعوة لتأبين الرافعي، وذيل كل دعوة جواب المدعو بخطه أو برساله:

"يرحمه الله! يرحمه الله!"

واعد كلاً كين الوراقين أسألة عن كتب الرافعي، ولكن السوق ليس فيه كتاب من كتب الرافعي (1): وقال قائل: "أعيدوا طبع الديوان، أعيدوا طبع إجاز القرآن، أعيدوا... أعيدوا..."

وقال الطالب والناشر والوراق: "يرحمه الله! يرحمه الله!" وعلى مكتب الرافعي كتب لم تطبع، وقصصات لم تترجم، وثمرة عقل خلاق كان يجده جهده ليضيف كل يوم إلى العربية ثروة جديدة وفكراً جديداً.

وقدنا: "يا وزراء المعارف. هذه كتب إن لم تخرج للناس سبق إليها العت والفيران فيضعب على العربية كنز ما لها منه عوض! ولكن وزارة المعارف في أحلامها الهنثية لاتسع ولا يجيب، إلا همساً في أُمِّي أنفاس الناس" تردد قول الناس: "يرحمه الله! يرحمه الله!"

وفي الأمة مع ذلك أدباء، وفي الأمة كتاب وشعراء، وفي الأمة ناشئة عامة ما تزال ترجة الخلد في الأدب...

وفي الأمة عقول ناضجة في أجساد مهولية من الفقر والجوع؛ وفي الأمة...

(1) لم يكن في السوق من كتب الرافعي إلا وحيد القلم، فيمكنه لجنة التأليف والترجمة والنشر، التي طبعته قبل نعه مؤلفه بأشهر، ثم زارعت مكتبات القاهرة على نشر خطواته، وإعادة طبع ما نجد من مؤلفاته، وتكاد كتبه جميعًا أن تكون اليوم متدولة في أيدي الوراقين بختلف العواصم العربية.
رؤوس مماثلة على أناسٍ تضطرب كل مضطرب للبحث عن القوت.
وفي الأمة رؤوس فارغة على أجسام تشاد تتمرق شعياً ورياً؛ وفي الأمة
قلوب خاوية في أناسٍ تتمرغ بين وسائد الدمقوس وحشاي الحزير...
وفي الأمة مع ذلك من يتساءل مدهوشًا: لماذا؟ لماذا لا أجده في الأمة
العربية شعراء وكتاباً ومنشئين كبعض من نقرأ لهم من أدباء الغربيين ...؟
يرحمك الله يا مصطفى ... بل يرحمك الله أيتها الأمة!
مATTRAFUWYAT INFUSHTA SHAFA'AH MIN TARJXAX LEREBB IN SIRAX, WA 'ANFUS XEEL MIN ADIBAA AL-ARABIYYA KAN LAH MIZHEB WA MNHAAJ, WA LAKAN RAAFUIYAN DII MATA WA 'ANBIYAA AL-SAFNAH QAD KHALAF WORAAR TARA'AN MIN AL-DZaksiyatin WA AL-FA'IN AL-FUNN SINTAUFAB AJBIYAL QAB ALAN YIFRUG LEREBBEYAN DII DARASTII WA MAHDITHIYAN; WA 'ANNA 'AN DZaksiyatin TNEERIF IN KUL NAMSA'THER MIN OWAL AL-JEURAY OA AHABBIYA; WA 'ANNA LAAFAR... 

AMAA 'AN DZaksiyatin, 'ALLA MA TA'BITH MIN NAFSUX MIN MINAAN AL-NHADIB WA MINAAN AL-RU'AA, QAD ANBAHAT MINHAN MIN XEF'SUX MIN QA'DIR MINQA'DIR 'ALLA; WA LISNIBAN MIN'ANBIYAA MANTARAH MIN 'ANFAR MIN NAMSA'THER, 'IZKAN GABAYETIYAN DII 'ANHUR MINQA'DIR 'ALLA, HI MIIJALA. 'AN DAAFWAH AL-TARIKX AL-ARUBAYA KAM 'AGH IDIYIYYA MIN NAMSA'THER WA 'ANFAR MIN WADANI, MIN'ACBIYAA MA 'ANSTUBAT MIN XALILA AL-HOO 'WSALATUL AL-AULATAA 'WAWHU 'RQAYIY: LÂA SÂBUH BIBIY KALL QARIY, ALBIY, 

WAMAA 'ANBAHAR AL-DABAABIYYA QAD FULSAH AL-MAHDIYAH 'AN BIJIBA MIN 'ABAR MAN SÂBUH MIN QA'DIR MIN QA'DIR MINQA'DIR MINQA'DIR. 'ANAFSUX WÂ 'ANFAR QALIBIY JELABITA MAR'ITAH MIN 'ALACHIY ETHXANATHAQ:

1 - DIWAYN RAAFUIYAN: 'AIL MEEZAH, SODRAT MIN QA'DIRA 1903 WA 1906. WQADDUM LIL-DEEL JEEB MINA BIMQADAT MIN MINAAN ASH SHURR TDEL MIN MIZHEB WENHEE, WEE M vịDLLA BISHR 'YINSBIL 'ALIYAH AL-MURRUMAH MUHMD KALL RAAFUIYAH WEE MIN ENSHAA Marmor 'ANBIYAA.

2 - DIWAYN AL-NABIRAH: MANSHAH BIIN QA'DIRA 1906 WA 1908.
3- ملكة الإنشاء : كتاب مديرى بحوى على نماذج أدبية من إنشائه، أعد أكثر موضوعاته وتبدأ لإصداره في سنة 1907، ونشر منه بعض نماذج في ديوان النظائر، ثم صرفه شعور ما عن تنفيذ فكرة فأغلبه، وقد ضاعت (أصوله) فلم يبق إلا النماذج المنشورة منه في ديوان النظائر.

4- تاريخ آداب العرب : صدر في سنة 1911 بسبب من إنشاء الجامعة المصرية، ويراه أكبر الأدباء كتاب الرافعي الذي لا يعرفونه إلا به.

5- إنجاز القرآن : وهو الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب، طبع ثلاث مرات، أخرهاه في سنة 1922 على نفقة المغفور له الملك فؤاد.

6- حديث القمر : أول ما أصدر الرافعي في أدب الإنشاء، وهو أصل يرمى في الحبي تغلب عليه الصنعة، أنشأه بعد رحلته إلى لبنان في سنة 1912 حيث التقى لأول مرة بالآنسة الأدبية (م.ب) فكان بينهما ما كان ما أجمل الحديث عنه في بعض الفصول من قصة حبه.

7- المساكين : فصول في بعض المعاي الإنسانية أهله إياها بعض ما كان في مصر من أثر الحرب العامة، أنشأها في سنة 1917.

8- نشيد سعد باشا زغلول : كتب صغير عن نشيده، إلئلي يا مصر يهوي الذي أهداه إلى المرحوم سعد زغلول في سنة 1933، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة، وأكثر ما في الكتاب من المقالات هو من إنشاء الرافعي أو إملائه.

9- النشيد الوطني المصري : إلي العلا... ضبط ألحانه الموسيقية، الموسيقار منصور عوض.

(1) طبع بعد ذلك عدة طبعات في القاهرة.
10. رسائل الأحزان: كتاب أنشأه في سنة 1324 يتحدث فيه عن شيء ما كان بينه وبين فلانة. على شكل رسائل يرغم أنها من صديق يشبه ذات صدره.

11. السحاب الأحمر: هو الجزء الثاني من قصة حب فلانة، أو الطور الثاني من أطواره بعد القطعية، صدر بعد رسائل الأحزان بأشهر.

12. المعركة تحت راية القرآن: هو كتاب الجديد والقديم، وفيه قصة ما كان بينه وبين الدكتور طه حسين لمساعدة كتابية في الشعر الجاهلي، صدر في سنة 1937.


14. أوراق الورد: الجزء الأخير من قصة حبه، يقوم على رسائل في فلسفة الحب والجبل. أنشأها ليصور حالاً من حاله في كان بينه وبين فلانة، وما كان بينه وبين صديقته الأولى صاحبة حديث القمر.

وتعتبر كتبه الأربعة: حديث القمر، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، وأوراق الورد - وحدة - يتم ببعضها بعضًا، لأنها جميعاً تنبع من معين واحد وترجم إلى هدف واحد وإن اختلفت أساليبها ومذاهبها.

15. رسالة الحج: أنشأها في صيف سنة 1935، استجابية لرأي صديقه المرحوم حافظ عامر، وله ينسب.

16. وحي الفن: مجموعة مقالاته في الرسالة بين سنة 1934 و1937 إلى مقالات أخرى، طبع منه جزءان في حياته، ثم أعيد طبعه مع الجزء الثالث أكثر من مرة بعد وفاته.
وله عدا ذلك كتب لم تطبع، أهمها ما يأتي:

1 - الجزء الثالث من تاريخ أداب العرب: تأم التأليف والتصنيف تقريباً
2 - أسرار الإجازة: في فصول تأليف، وفصول أخرى أجمل افتكرها في كلمات على ورق أو أشار إلى مصادرها، وكان الرافعي يعتد بهذا الكتاب اعتدادا كبيراً، وهو جدير بذلك حقاً؛ وقد أطلعني رحمه الله - على فصول منه، كما تحدث إلى عن نهجه في تأليفه، وأذكر أن نهجه فيه كما يأتي:

أ) يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية، فيردها إلى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماها منذ كنانت، ويضع لها قواعد جديدة وأصول أخرى

ب) ويتحدث في الفصل الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إجازته، مسترشدا في ذلك بما قدم في الفصل السابق من قواعد.

ج) ويتناول في الفصل الأخير من الكتاب، آيات من القرآن على أسلوب من التفسير بين سر إجازتها في اللظة والمعنى والفكر العامة؛ ويعتبر هذا الفصل الأخير هو صلب الكتاب وأساسه؛ وقد أتم الكتابة إلى آخر يوم كنت فيه بودع ومسبعين آية على هذا النطق؛ وقد نشر منها في الرسالة بضع آيات مفسرة على ذلك النهج، وجعلها في بعض أفاصيصه.

3 - ديوان أغاني الشعب: وهو ديوان من الشعر جعل فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نفديدا أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أماناتها؛ وقد أبرز الرافعي طائفة كبيرة من هذه الأغاني نشر بعضها

(1) طبع في سنة 1940
وبما يزال سائرها بين أوراقه الخاصة وموقفاته التي لم تنشر. وأكثر الأغاني في
هذا الديوان مانون ذو الفظ رشيق المعنى ما يحمل وقعه في النفس ويفتح
جرسه على الأذن.

4- الجزء الثالث من وحي القلم. وفيه سائر المقالات التي كتبتها، سواء منها
ما نشر في الرسالة وعشرها من المجلات والصحف، وما لم ننشر من قبل (1).

5- الجزء الأخير من الديوان: وهو مجموعة كبيرة من شعره بين سنين
1908 و1937، بما فيه من شعر الحب، والمذائع الملكية التي أنشأها للمغفور
له الملك فؤاد.

هذا إلى شقتين من المقالات والرسائل الأدبية أنشأها لمناسبتها ومنها كثير
من مقدمات الكتب المطبوعة، بعضها منسوب إليه وبعضها مجهول النسب.
أما المطبوع من هذه الكتب فقد أعيد طبع أكثرها، وأما غير المطبوع فما
يزال ورقات وقصصه على مكتبه، وإلى آخرى أن يمضى وقت طويل قبل
أن تنتبه إلى ضرورة العناية بهذه المؤلفات التي خلفها الراقي ورقات مخطوطة
يكاد يليها الإهمال والنسى!

ولدى الدكتور محمد الراقي مشروع لإحياء تراث أبيه، لست أدرى أحد
الوسائل لتنفيذه أم تجول دونه الحوائل وتمتع منه الضرورات؟
على أن أكاد أدرى أن هذه ليست هي الوسيلة بالحافة على تراث الراقي:
فليس من الوفاء له وحسن الربعة لأولاده أن نحمل عليهم هذا العبء، وما
انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انفع كل أديب وكل مسلم وكل عربي في مصر
وغيرها من بلاد العربية.

(1) طبع سنة 1942.

(23 - حياة الراقي)
لقد كان الرافعي صاحب دعوة في العربية والإسلام يدعو إليها؛ فقهه على العربية، وحقوق العربية على أدويتها، وحقوق الإسلام على أهلته، أن تجدد دعوته، وأن نبتذ ذكره، وأن ننشر رسالته، وأن نغني بآثاره، فإذا نحن قد وثقنا إلى كل أولئك فقد وقينا له بعض الوفاء.

والآن فلننظر لنرى مقدار ما يمكن أن تصل إليه هذه الدعوة من النجاح.

وأمانا إلى ذلك وسيلتان: أولاً: أن نعرف مدى تأثرنا الناشئة من المتأندين اليوم بباحة الرافعي ومذهبته، والثانية: هي البحث عن آثار الرافعي ومنشأه الأديبية وتراثه الفكرى لنحرص عليه من الضياع.

فأما الأول: فإن بين الرافعي والأكثرين من ناشئة المتأندين في هذا الجيل حجاباً كثيفاً يمنعهم أن ينذدوا إليه او يتأثروا به، لعوامل عدة:

فالرافعي أدب الخاصة كان ينشئ إنشائه في أو فروع الأدب ليضيف ثروة جديدة إلى اللغة تعلوها وتقيز مكاناً بين اللغات، وشابناً أصلهم الله لا يعرفون الأدب إلا ملاها وتسليه: لا ينشدون لهذه العقلية وسمو النفس، ولكن ينشدون لمقاومة المثل وإجواء الفراق، فهذا سبب.

والثاني أن الرافعي - رحمه الله - لم يكن يكتب الكتابة الصحافية التي ينشئها أكثر كتاباً لتملقو غزيرة القراء بالعبارة المبهرة والقول المكشوف، وزواد المتأندين من ناشئة اليوم أن قيمة الأدب هي بمقدار انطباعه على أهواء النفس وارتياحها إليه وقدرتها على أن تسجف بلا تكلف ولا عنا.

ومنذ سبب آخر، هو طبيعة السياسة على الأدب في هذا الجيل طغتنا أفضح
على الأدب ماليس فيه وعلى الأدباء من ليس منهم؛ بحيث يتنجح أكثر الأدباء أن يقولوا قالة أو رأياً أدبياً في أدب أو شاعر إلا متآثرين بما كان له من مذهب سياسي أو رأى في السياسة المصرية.
والرافعي رجل - كان - لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها، ولم يكن يعتبر له مذهباً في النقد إلا المذهب الأدبي الذي لزمه منذ نشأته في الأدب، ففي ذلك كانت خصوصاته الأدبية تنحني نهايته إلى اتجاهه في وظيفته وفي مذهب الإقليسية: ورأى أكثر خصوصه من كتاب الشعب فرصة ساعته لينغاوه عند القراء، فانتشرها، وبالغوا في اتهامه، وأغرقواففي التنمن على وظيفته وتأولوا مسهبه، حتي صار عند بعض القراء رجلاً لا وطنية له ولا إنسانية فيه ولا إخلاص في عقيدته. وما تزال السياسة عند أكثر شبابا ذات سنناء، وما زال الأدب يجري في غبار السياسة وهو أعلى مكاناً وأرفع منزلة...

ولقد لقي إله كول أولثك سبب أخير، هو أن أكثر ما كان يتناوله الرافعي من ستون الأدب هو ما يتصل بحقيقة الإسلام أو معنى من معانيه. على أن السكتة من ناشئة المتآذبين اليوم يريدون أن يفروقو بين الأدب والدين، فلا يرون ما ينشأ في هذا الغرض لوناً من أروى الأدب أو مذهباً من مذاهبه. تلك جملة الأسباب: أو أجمل الأسباب، التي باعدت بين أدب الرافعي وبين أجهور من ناشئة المتآذبين، مابد من النظر فيها والبحث عن علاجها حين نفهم بأن نجد دعوة الرافعي ونشر رسالته إن كانت مبقة بأن أدب الرافعي حقائق باقية: وأن الفينه مبعث قلب كل أديب يؤمن بأن الدين واللغة هو أول المقومات لقوميتنا العربية المسلمة.
ذلك شيء .. أما آثار الرافعي فإن كل مافي يد العربية منها هو صدى كلمات وعنوانات كتب، أما حقائقها ومعناها فقد انفرط الجيل الذي درسها أو كاد فلم يبق للجيل الناشئ منها غير عنوان، فليس كل أدبي نفسه: ماذا قرأ من كتب الرافعي وماذا حصل وماذا أفاد؟ إنها لمكتبة حافلة جديرة بأن تنشئ مدرسة جامعة لمن يريد أن ينفرد من العربية زادًا مرتين وغداً شهماً، ليكون أديباً له لسان وله بيان وله منزله الأدبي في غد ..
إن لا كاذو أوقن أن تسعيين من كل مائة من القراء لا يعرفون من هذه الكتب إلا أسماؤها؛ وإن منهم لسمن يتوهم أن من حقه أن يتحدث عن الأدب ويوص干扰 لآداب الجيل.
وما عيب على من لم يقرأها أنه لم يقرأها؟ ولكن العيب كل العيب علينا علاقة نحن المشتغلين بالأدب أن يكون كل وفاقنا لم يموت من أدباء العربية أن نقول: كان وكان ورحمه الله.
لقد أدى الرجل واجبه ما استطاع وبيع علينا فرض واجب الوفاء ..

أحس يداجي إلى التحدث عن ماضيه. لقد أورث الرافعي بعض تبعاته، وإلى لا حس بثقلها على عاتقه أكثر مما
لقد عاش الرافعي حياته يجهد لأمه مال يجاجده أدبي في العربية منذ قرون، وقضى حياته يلبى من العقود ونكران الجيل مال يلق أديب في العربية منذ كانت العربية، وماذا كان حظه منا في أخباره أحسن منه في الدنيا. فهل لي أن أوقع
أن تنقب عنهما والحكومة إلى ما ينفي أن يكون; فوابع لهذا الراحل الكرم؟
ليس يكن أن يكون كل وفايتنا للراقي: حفصل لتأييته وبضع كلمات نزائه،
ولكن الوفاء حق الوفاء. أن تعمل على تخلص ذكرى; بتخفيض أدبه، وتجديد
دعوته، وإيقاف ذكره، ونشر رسالته: فلحسن هذا الذي أنشأته عن حياة
الراقي، أولا له ما بعده، لتفكر في الوسائل النافعة التي تجدى على الآدب
والعربية أكثر مما تجدى رسائل التأبين وكلمات الترحيم والاستراحج.
أما هو فقد انطوى تاريخه على هذه الأرض، فلن يجد على شئ مانفع.
وما نقول: ولكن ما نفعل وما إننا في إنه هو خيرنا، وجداول علينا، فلنفكر
في أنفسنا وفي ذاتنا وفيها يعود علينا وعلى العربية من تجديد ذكرى الراقي،
إن كانت يعز علينا أن نعمل أو أن نفكرو إلا فيها تكون منفعته علينا ولنا
من قارئه نصيب!

أما بعد، فهذه حياة الراقي، مبسوطة لمن يريد أن يدرس، وأنا لم أجهد
جهد في جمعها وترتيبها لكي أقول ويكول الناس: كان وكان من أمره
وحسب: فما في ذلك كبير فائدة، ولكنني أنشأت هذه الفصول لتكون تمهيدا
لدراسة الراقي في أديبه وفنه ومذهبه، فما أجهزها كتابا، ولكنها مقدمة تدلها
فصول: وكتب إن شاء الله، وهذا كتاب حياة الراقي، اليوم في سوق
الآدب، فما يكون عنوان الكتاب التالي عن الراقي، وفي يطالع القراء?
أثراني أحسن الظن بأهل العربية في هذا التساؤل؟
لقدمات الراقي، ولكن اسمه سابق مابقيت العربية: وليس بعيدا ذلك
اليوم الذي يتداعى فيه أدباء العربية من كأفة أقطارها ليجعلوا ذكرى الرافعي
ومسمى من مواسم الأدب وحلبة يتساقب فيها أهل البيان.
ألا إنه إذا كان أكثر الأدباء المعاصرين قد عقروا الرافعي وأغفلوا شأنه
وتناسوه، فإن جيلا جديدا يوشك أن يبسط سلطانه زاحفا متفقّحا لا يثبت
أمامه شيء; ويومئذ... ويومئذ تذهب العداوات بأعطابها; وتنطفئ هذه
الفقهات العائمة؛ وينحو الرماد؛ ويخلص وجه الحق للحق!

... ويومئذ... ويومئذ تعلو كلمة الله!
<table>
<thead>
<tr>
<th>موضوع</th>
<th>صفحة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>اسلام يافعصر</td>
<td>88</td>
</tr>
<tr>
<td>شفه الاستقلال</td>
<td>90</td>
</tr>
<tr>
<td>البحر المنفجر</td>
<td>91</td>
</tr>
<tr>
<td>الرافعى العاشق</td>
<td>93</td>
</tr>
<tr>
<td>الحب عند الرافعى</td>
<td>96</td>
</tr>
<tr>
<td>هو و هي</td>
<td>99</td>
</tr>
<tr>
<td>شعر و فلسفة و حب وكبرياء</td>
<td>107</td>
</tr>
<tr>
<td>هي و هو</td>
<td>114</td>
</tr>
<tr>
<td>تجبيب</td>
<td>120</td>
</tr>
<tr>
<td>رسائل الأحزان</td>
<td>126</td>
</tr>
<tr>
<td>السحاب الأحمر</td>
<td>132</td>
</tr>
<tr>
<td>أوراق الورد</td>
<td>140</td>
</tr>
<tr>
<td>في النقد</td>
<td>147</td>
</tr>
<tr>
<td>الرافعى و طه حسين</td>
<td>151</td>
</tr>
<tr>
<td>تحت رأية القرآن</td>
<td>162</td>
</tr>
<tr>
<td>كلبة و دمنه</td>
<td>170</td>
</tr>
<tr>
<td>شاعر الملك</td>
<td>178</td>
</tr>
<tr>
<td>الرافعى والإبراشى</td>
<td>171</td>
</tr>
<tr>
<td>الرافعى و عبد الله عفيفى</td>
<td>175</td>
</tr>
<tr>
<td>الرافعى والعقاد</td>
<td>183</td>
</tr>
<tr>
<td>فتحة الكتاب</td>
<td>محى محمد شاكر</td>
</tr>
<tr>
<td>تمهيد</td>
<td>11</td>
</tr>
<tr>
<td>صورة</td>
<td>21</td>
</tr>
<tr>
<td>نسبه و نسنه</td>
<td>23</td>
</tr>
<tr>
<td>علمه و ثقافته</td>
<td>28</td>
</tr>
<tr>
<td>في الوظيفة</td>
<td>34</td>
</tr>
<tr>
<td>شاعر الحسن</td>
<td>43</td>
</tr>
<tr>
<td>شعراء عصره</td>
<td>52</td>
</tr>
<tr>
<td>بين أهله</td>
<td>59</td>
</tr>
<tr>
<td>من الشعر إلى الكتابة</td>
<td>64</td>
</tr>
<tr>
<td>ملكة الإنشاء</td>
<td>64</td>
</tr>
<tr>
<td>إنشاء الجامعة المصرية</td>
<td>65</td>
</tr>
<tr>
<td>تاريخ أدب العرب</td>
<td>77</td>
</tr>
<tr>
<td>إنجاز القرآن</td>
<td>79</td>
</tr>
<tr>
<td>حديث القمر</td>
<td>74</td>
</tr>
<tr>
<td>شيوخه في الأدب</td>
<td>75</td>
</tr>
<tr>
<td>في سنوات الحرب</td>
<td>77</td>
</tr>
<tr>
<td>كتاب المسئلين</td>
<td>79</td>
</tr>
<tr>
<td>أغاني الشعب</td>
<td>83</td>
</tr>
<tr>
<td>الشجاع القوي</td>
<td>85</td>
</tr>
</tbody>
</table>
صفحة

251 قصص الراقي
256 عود على بدء
301 نقلة اجتماعية
302 من رسائل القراء
317 مقالات منحوتة
325 من شوته الاجتماعية
341 في يومه الأخير
349 الخاتمة

صفحة

189 على السفود
195 وحي الأربعين
208 قرية جام
212 القتل أنيق للقتل
214 أديب صغير
215 البلاغة النبوية
220 كيف كان يكتب؟
229 عمله في الرسالة
233 مقالات وحي الفلم
باب الأعلام

إبراهيم إبراهيم علي 310
إبراهيم الرافعي 278
إبراهيم عبد القادر المازندي 218
إبراهيم الباجي 46، 67، 76، 48، 67، 76
أبو العتاهية 128
أبو الفتح الفقي 29
أبو محمد سليمان الأعشش 272
أبو معاوية الضري 272
أبو التصرف الشاعر 128
أبو نواس 128
أبو هلال العسكري 210
أبو وداعة 300
ابن الرومي 98
ابن المقعف 125
أحمد أمين 216
أحمد بن أمين 206
أحمد حسن الزيات 56، 94، 120
أمين الرافعي 176
أمين المعلوف 217
البحتري 98، 168، 180
البستانى 46
بشارة بن بدر 98، 180
تودري 47

أحمد الرافعي 134
أحمد زكي باشا 82، 87، 217
أحمد زينور 109
أحمد شوقي 46، 63، 80، 85
<table>
<thead>
<tr>
<th>اسم</th>
<th>رقم</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>خليل مطران</td>
<td>46</td>
</tr>
<tr>
<td>داود عمون</td>
<td>53</td>
</tr>
<tr>
<td>ديباب العربي</td>
<td>333</td>
</tr>
<tr>
<td>رشيد رضا</td>
<td>323</td>
</tr>
<tr>
<td>زكي الإبراهيم</td>
<td>179, 183, 229, 247</td>
</tr>
<tr>
<td>320</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>زكي مبارك</td>
<td>124, 149, 107, 280</td>
</tr>
<tr>
<td>328</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>رمسيس سوراتي</td>
<td>238</td>
</tr>
<tr>
<td>زهير بن أبي سفيان</td>
<td>168</td>
</tr>
<tr>
<td>سعد زغلول</td>
<td>88, 104, 106, 109, 187, 173, 190</td>
</tr>
<tr>
<td>350</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>سعادة</td>
<td>346</td>
</tr>
<tr>
<td>سعيد الرافعي</td>
<td>25</td>
</tr>
<tr>
<td>سعيد الرافعي الصغير</td>
<td>241</td>
</tr>
<tr>
<td>سعيد بن المسبح</td>
<td>93, 208, 251, 270</td>
</tr>
<tr>
<td>سلامة موسي</td>
<td>179, 228</td>
</tr>
<tr>
<td>سلامة المغنية</td>
<td>241</td>
</tr>
<tr>
<td>سليم سركيس</td>
<td>43</td>
</tr>
<tr>
<td>سامي الرافعي</td>
<td>3, 40, 240, 270, 540</td>
</tr>
<tr>
<td>340, 340, 350, 360</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>سيف الدولة</td>
<td>188</td>
</tr>
<tr>
<td>السيد إبراهيم العراقي</td>
<td>54</td>
</tr>
<tr>
<td>توفق الحكم</td>
<td>10, 291</td>
</tr>
<tr>
<td>توفق ديباب</td>
<td>206</td>
</tr>
<tr>
<td>جعفر ولي</td>
<td>85</td>
</tr>
<tr>
<td>جوته</td>
<td>82</td>
</tr>
<tr>
<td>جورج إبراهيم حنا</td>
<td>42, 428, 440</td>
</tr>
<tr>
<td>72, 112, 128, 130, 220</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>جورج زيدان</td>
<td>42, 77</td>
</tr>
<tr>
<td>الجاحظ</td>
<td>233</td>
</tr>
<tr>
<td>حسن بدوية الفاطري</td>
<td>26</td>
</tr>
<tr>
<td>الحسن البصري</td>
<td>92, 270</td>
</tr>
<tr>
<td>حسن الغلته</td>
<td>127, 212</td>
</tr>
<tr>
<td>حسن مظهر</td>
<td>289, 290</td>
</tr>
<tr>
<td>حسن نصيف</td>
<td>231</td>
</tr>
<tr>
<td>حسين مخلوف</td>
<td>294, 299</td>
</tr>
<tr>
<td>331</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>حسام الدين القدس</td>
<td>210</td>
</tr>
<tr>
<td>حسين الهراوي</td>
<td>137</td>
</tr>
<tr>
<td>حسين ولي</td>
<td>215</td>
</tr>
<tr>
<td>حفني ناصف</td>
<td>53, 40, 85</td>
</tr>
<tr>
<td>حافظ إبراهيم</td>
<td>43, 440, 53, 179, 180, 282, 214</td>
</tr>
<tr>
<td>228, 331, 332, 333, 334</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>حافظ عامر</td>
<td>288, 290, 331</td>
</tr>
<tr>
<td>251, 329</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الحاكم بأمر الله</td>
<td>279</td>
</tr>
</tbody>
</table>
 السيد البدوي 20
السيد زياده 280
السيد قطب 219
السيد نصير 235
خاشعري 217
شكيبير 22
 شكيب أرسلان 279, 100
337
شبعون 274
الإمام الشافعي 26
صرف على 217
صروع 89
صاندو 330, 274
طل حسین 52, 130, 147, 158
178
328
228, 211, 202, 201
208
301
الشاعر عبد الحليم المصري 179
المصارع عبد الحليم المصري 230
عبد الحليم البنان 109
عبد الحليم الخلاوى 300
عبد الرحمن البرقوق 274, 227, 209
عبد الرحمن الراقي 235
عبد الرحمن صدوق 82
عبد الرحمن القس 277
عبد الرؤف الرافعى 330, 269, 232
الشيخ على الجناجي 79، 134، 138
روفات أبواوري 24
محمد بن نعيم 24
محمد توفيق نسيم 277
محمد حسين هيك 103
محمد رافعي 67، 111، 113، 141، 142، 237، 267، 280، 300، 319، 375، 380، 387، 402، 503، 520، 642
محمد سعيد الرافعي 74، 209
محمد الطاهر الرافعي 24
محمد عبد الله 134، 44، 60، 68، 132، 134، 138، 187
محمد عبد الواحد خلاف 243
الدكتور محمد فؤاد 299
محمد كامل الرافعي 37، 19، 219، 319، 354، 375، 380، 387
محمد مشح 88
محمد النفيي الرافعي 340
محمد النجفي 54
محمد نجيب 181، 187
محمد هراو 80
محمد هلال إبراهيم 53
محمد أبو رية 324
محمد أبو الوفا 207، 232، 377، 388
محمد الديناري 377، 538

فؤاد صروف 127، 187، 217
فرح أنطون 77
فكدور هيجو 82
غلالة 99، 129، 179، 217، 242، 247، 283، 291، 310، 377، 380، 383، 401، 501
فليخس فارس 207، 333
فارس نمر 92، 214
كامل محمود حبيب 280، 299
كرمين هام 325
المبرّد 29
المفتي 98، 103، 218، 180
المتوكل 128
محمد الأمهدي الظواهرى 328
 Mumâd ar-Râfî

محمود الرافعي

محمود دسایل البورود ۳، ۴۴۱، ۵۰۲
۵۰۲، ۵۰۶
محمود عبد الرزاق الرافعي
۳۰۰
محمود محمد شاكر
۳۱۲، ۳۱۷، ۳۲۱، ۳۳۱، ۳۸۵، ۳۸۰
محمود واصف
۵۰ مصطفى درويش
۹۱
مصطفى صادق الرافعي
۲۴۱
مصطفى كمال
۲۷۹
مصطفى كامل
۵۱
مصطفى لطفي المنفلوطي
۱۴۹
مصطفى المحي
۲۱۸
مغامى البرقوتي
۲۴۰
مكرم عبد
۳۴۶
<table>
<thead>
<tr>
<th>صحيفه والمجلات</th>
<th></th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>الاخبار 82</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>גיםالاسبوعية 149 101</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الحاضر 248</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>النهار 281</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>البلاغ 141 180 202</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>كوكب الشرق 12 108 158</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>ظروف المصور ا 283 290</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الموعد 210</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>المشابه 237</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>المقتطف 426 79 279 185 187 180 272 310</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>المقتضى 198 310 278</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>المكتفوف 132</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>المنبر 149</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الهلال 89 509</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>البيان: الليبجي 67 77 109</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>البيان: للبرقوق 57 57 57 67 77 87</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الثريا 64</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>النقاوة 231</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الجريدة 6 216 60 67 206</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الجهاد 198 206 203</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الجامعة 50</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الرسالة 125 209 207</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>214 314 317 419</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>الزهراء 6 129</td>
<td></td>
</tr>
<tr>
<td>كتاب</td>
<td>صفحات</td>
</tr>
<tr>
<td>------</td>
<td>-------</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان النظارات</td>
<td>164, 165, 166</td>
</tr>
<tr>
<td>رسائل الآخرين</td>
<td>122, 123</td>
</tr>
<tr>
<td>السحايا الأحمر</td>
<td>130, 131</td>
</tr>
<tr>
<td>السحاب المتغير</td>
<td>132, 133</td>
</tr>
<tr>
<td>شرح ديوان المنفية</td>
<td>234, 235</td>
</tr>
<tr>
<td>في الشعر الجاهلي</td>
<td>86, 87, 100, 101</td>
</tr>
<tr>
<td>الشرح النفي</td>
<td>213</td>
</tr>
<tr>
<td>التفسير الديواني</td>
<td>124, 125</td>
</tr>
<tr>
<td>عليه السفود</td>
<td>187, 188</td>
</tr>
<tr>
<td>الفاروق، عمر بن الخطاب</td>
<td>233</td>
</tr>
<tr>
<td>القاموس المحيط</td>
<td>235</td>
</tr>
<tr>
<td>القصيد المدرسي</td>
<td>209</td>
</tr>
<tr>
<td>في القهوة والأدب</td>
<td>102</td>
</tr>
<tr>
<td>قول مصرف</td>
<td>208</td>
</tr>
<tr>
<td>كلية وأمة</td>
<td>150, 151</td>
</tr>
<tr>
<td>المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء</td>
<td>179</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان الإغاث</td>
<td>233</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان الإعجاب</td>
<td>208, 212, 213, 214</td>
</tr>
<tr>
<td>الإسلام الصحيح</td>
<td>213</td>
</tr>
<tr>
<td>إنجاز القرآن</td>
<td>214, 215, 216</td>
</tr>
<tr>
<td>الأغاني</td>
<td>76, 92, 207, 208</td>
</tr>
<tr>
<td>الأغاني</td>
<td>208, 209, 210</td>
</tr>
<tr>
<td>أوراق ورد</td>
<td>117, 120, 121, 122</td>
</tr>
<tr>
<td>تاريخ أدب العرب</td>
<td>276, 277, 278</td>
</tr>
<tr>
<td>عقلاء الجانبين</td>
<td>299</td>
</tr>
<tr>
<td>حديث القمر</td>
<td>131, 132, 133</td>
</tr>
<tr>
<td>الدوران</td>
<td>141, 142, 143</td>
</tr>
<tr>
<td>ديون الأعشاب</td>
<td>231, 232</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان حافظ</td>
<td>48</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان الرافعي</td>
<td>86, 87, 88, 89</td>
</tr>
<tr>
<td>ديون المعايي</td>
<td>141, 142</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان المعايي</td>
<td>219, 220, 221, 222</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان المعايي</td>
<td>219, 220, 221, 222</td>
</tr>
<tr>
<td>ديوان المعايي</td>
<td>219, 220, 221, 222</td>
</tr>
</tbody>
</table>
المخصّص 227
المواطنين 77, 79, 350
المواطنين 82, 350
نهج البلاغة 33
وحي الآل 172, 196، 217، 216، 27، 227، 230، 273، 280، 288، 292، 347، 350

تمت الملاحظة

تتم التفاصيل

مكّنة القصّي 67
ملكة الإنشاءات 74، 76، 350
الملاح الثان١ 218